M B A R E K R A B I
رواية
NOVEL
مبارك ربيع
غرب المتوسّط
t.me/read4lead

غرب المتوسّط

غرب المتوسّط / رواية عربيّة

مبارك ربيع / مؤلّف من المغرب

الطبعة الأولى، 2018

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسيّ:

المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام

مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل ابراج بيروت

ص. ب 11-5460، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان

هاتفاكس 2/707891 1 961+

e-mail: mkpublishing@terra.net.lb

info@airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،

هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+

موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:

® عمّان، هاتف 95297109 7 962+

لوحة الغلاف: **بارل كوجنسكي** / بولندا

الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-886-5

مكتبة t.me/read4lead

رواية
NOVEL

مبارك ربيع

غرب المتوسّط

إلى روح الروائي الفقيد عبد الرحمن منيف

أية نظرة هي؟ ماذا تقول؟ أي بوح صارخ مكتوم؟ حبات الماء المتلألئة بكثافة على مسحة أبنوسي ذاك الجبين ، وارتفاع الحاجبين كسؤال عجب كوني عن المعنى ، أو هي صرخة احتجاج يخفيها ضيق الصدر العريض ، بين زبد الموج المتلاطم حول الرقبة ، وأعلى الكتفين .

أي معنى ، وماذا تكون النظرة أو تقول ؟

لا بأس ، لا بأس . . . مـا هـذا؟ تتـابعُ الأوراق بين يديهـا ، يخط قلمُها الأحمر علامات التحفيز وعبارات مشجعة بقدر الإمكان ؛ حقاً لكل جيل معارفه وعوالمه ؛ ما كانت صفية أستاذة اليوم ، في صباها وبقيم المعلمية السارية في دمها إذ ذاك ، مع تقاليد أسرة متواضعة محافظة إلى حد كبير ، وأعراف وسط حارس حريص بمقوماته المعنوية الروحية ، ولا كان أيضاً لأي من جيلها الإناث والذكور إذ ذاك ، في طفولتها وعلى امتداد سنوات دراستها الأولى ، ليتحدث أو لتتحدث هي لمعلمها أو معلمتها عبر فرض مدرسي ، مُبينة عن رغبات مثل ما تخطه وتتلفظ به ، بنات وأبناء اليوم من صغار تلاميذها وتلميذاتها ؛ أكانت صفية وهي طفلة لتقول رافعة إصبعها ، متسابقة منافسة من معها ، في وجه أستاذتها للآرقية إذ ذاك ، إن رغبتها المستقبلية أن تكون راقصة؟ وأن تحدد باعتزاز دون خشية أو حشمة ، مردفة موضحة :

- شرقي ، سْتاذة ، رقص شرقي سْتاذة . . .

هكذا تعلن إحداهن في وجه معلمتها صفية ، بما هو أكثر من الوقاحة ، صبية بزقولة ، مثل التلميذة فريدة ، في مستوى متوسطها الأول ؛ تقول البزقولة المبزوقة تلك ، متمايلة في وقفتها ، كأنما تحاكي الرقص ، غير عابئة بتعالي ضحكات الرفيقات والرفاق من حولها ، بل وبتداخل صفير البعض من الفتيان طبعاً .

والصفير نفسه؟ حتى وهو في ظاهره انتصار لما يجب من وقار واحترام للأستذة وللدرس ، كما هو استهجان لما تتفوه الصبية ؛ أكان

ليصدر من رفاق المعلمة صفية ، في زمانها ومن بني جيلها ، في عز الدرس وعرين الأستاذة للاّ رقية العتيدة ، أم الأستاذ سي حماد ، وما أدراك ما هما؟

لا بأس لا بأس . . . لا يخلو الأمر من بعض إشراقات مبشرة ، بعد كل هذه البلايا ، هذه ريمة ، تتواضع لتقول بمنطق مستساغ على الأقل ، إنها تريد أن تكون مثل أمها ، وأمها أستاذة معلمة ؛ لا بأس من تشجيع هذا التوجه في معقوليته على الأقل ، وهو يتيح فرصة النقاش : ولماذا يا بنتي تريدين أن تكوني مثل أمك فقط لا غير؟ ألا يستحسن أن ترغبي فيما هو أحسن وأرفع ، وليكون هناك تقدم في المجتمع؟ واسمعي يا عزيزتي : إن الفتى - والفتاة أيضاً - من يقول ها أناذا ، لا من يقول كان أبي ؛ واسمعي يا حبيبتي لا يحب امرؤ - ذكراً كان أو أنثى - أن يفوقه أحد أو يتقدم عليه في شيء ، إلا من كان من صلبه ، أي ابنه أو ابنته . . . إذن؟

تصمت ريمة ، مثلهم جميعاً ، لا يبررون ؛ تدرك صفية ذلك وتتوقعه ، لكنها تظل مع ذلك في نظرتها إلى تلميذتها مستزيدة ، دون جدوى ، بينما تبدو ريمة متداخلة في كيانها بظاهر شيء من الخجل ، وهذه علامة إيجابية على كل حال ؛ لا بأس ، لا بأس بذلك كله ، لا بأس . . . لكن هذه المظاهر على ما بها ، إنما هي مجرد سوانح برقية نادرة ومتطايرة ، وإلا هاهوذا مراد ينهض ليهدر كالمستفيد من المناسبة ، يقتنص فرصة سانحة للتعبير : أنه لن يكون مثل أبيه أبداً! لماذا ياعزيزي؟ يصمت مثلهم ، كالعادة لا يعرفون كيف يبررون ، وهو المقصود الثاني والأساسي من التمرين كله ؛ فأن تكون أمنيتك كذا وكذا ، إنما هو مجرد تعبير وانطلاق تخيل ولسان ، يعلم المعلم والمعلمة

أنه يصدق ولا يصدق ، أما السؤال بعد ذلك : لماذا؟ فهو ما يحفز على التفكير فعلا ، ويعلّم تأسيس الرأي والحكم ، هذا ما تقصده المعلمة صفية ، وهو خلاصة تكوينها المهني .

لماذا إذن يا ابني لا تريد أن تكون مثل أبيك؟ لا يُفتح على مراد بشئ ؛ جيل ضائع تماماً ، ويتطلع إلى ما لا يعرف . إذن ، لماذا يا مراد لا تريد أن تكون مثل أبيك؟ يغرق في صمته ؛ وهذه في حد ذاتها مصيبة كبرى وعامة ، أما الأدهى من ذلك ، فأن ينبري عبد الرحيم ، متدخلا فيما يعتبره بلا شك من شأنه وواجبه ، وهو يبادر به دون أن يؤذن له ، ما دام الموضوع ما يزال مفتوحاً والسؤال غير موجه إليه هو بالذات ، ليقول المدعي عبد الرحيم ، بدون إذن ولا استئذان ، متحدثاً عن زميله مراد اللائذ بصمته وجلوسه ، إن زميله لا يرغب أن يكون مثل أبيه ، لأن والده مجرد عامل يدوي ، بلا حرفة ، وأنه سكير ووو . . . يشتم ويضرب زوجته ، أُم مراد باستمرار ووو . . .

لتخرسْ ، اخرسْ واجلسْ ؛ تبدو منفعلة جد محبطة وفائرة صفية على ما تسمع ، من هذا الـ . . . لكنها مع ذلك ، تغالب وتواري غضبها ، لترنو إلى مراد المطأطئ كمذنب مدان ومعترف ، وتتصوره صفية في باطنه كما في ظاهره ، يفور حرارة ويتصبب عرقاً بارداً سارياً في كيانه ، لا تدري ماذا تفعل من أجله وفي حاله ، لتقطب موجهة نظرة نارية إلى الـ . . . الـ . . . الفضولي عديم التربية والأدب والذوق عبد الرحيم ، رافعة سبابتها باتجاهه ، بعد أن تأمره بأن يخرس ويجلس ، لتجدد أمرها إليه الآن : أنت . . . اخرجْ من القاعة .

وينتفض عبد الرحيم في هيئة جذل نشيط بما يؤمر به ، كما لو أنها نعمة نزلت عليه من سابع سماء ، يجمع أدواته بهمة وطفح

ابتهاجٍ . . . ماذا تفعل؟ اخرجْ فقط ، اغربْ من هنا . . . ينظر إليها محدقاً ، كمن خاب أمله ، لكنه يبدي طاعة ، يترك أدواته حيث هي ، ويخطو في حركة كالرقص ، وربما يغني في باطنه نشيد الحرية ، أو على الأصح يترنم بأية حماقة سمجة ، من مائع أغاني اليوم المبتذلة المسترذلة .

أي جيل هؤلاء؟ تتدارك صفية الأمر إزاء الفضولي عبد الرحيم ؛ قفْ مكانك ، ارجعْ واجلس بأدب وهدوء ؛ هكذا تحرمه على الأقل ، مما كانت تعتبر وقعه سيكون كبيراً عليه ، فإذا هي بالنسبة إليه نعمته المبتغاة .

أي جيل هؤلاء؟ ماذا تفعل المعلمة من بلسم لجرح مراد؟ أنت عبد الرحيم : اعتذرْ عما قلت ، كل ما قلت ، لأنه يمسنا جميعاً ، كلنا لنا آباء وأمهات ، فيهم ومنهم الزائد والناقص ، وكلنا بشر فينا الزائد والناقص ، وأنت عبد الرحيم بالذات فيك الكثير من الناقص ، ولا نريد أن نكون فضوليين مثلك ، لنعلنه في وجهك أو في غيابك ، هذه أخلاق ؛ والآن لم نسمع اعتذارك بعد . . . لا . لا . ارفعْ صوتك بالاعتذار . نعم ، هكذا . كرِّر اعتذارك ، نعم ، وبصوت مرتفع ، نعم هكذا ، هكذا . . .

يُسمع صوت عبد الرحيم موجهاً اعتذاره لزميله : سامحني . . . لا . لا . تقول المعلمة صفية ، الاعتذار موجه إلينا جميعاً ، نحن جماعة ، أما مراد فهو مثلنا ، واحد منا ، إذن نسمع اعتذارك لنا جميعاً ، بصوت واضح مكرر :

– سامحوني ، سامحوني ، أنا غلطت ، سامحوني كلكم .

يا الله خلاص أين كنا؟

تعبر الصور والمشاهد متداخلة تحت نظر صفية على السطور، وهي تمرر قلمها الأحمر على الأوراق أمامها، موزعة عبارات التحفيز وعلامات التشجيع، كلما بدت لها سانحة استحقاق أو مجرد ترغيب فيه، متأكدة من رأيها في أنها مهما يكن، يجب أن تبحث عن الشريان الإنساني الدفين الدقيق في هذا الجيل، تستفيقه ربما وعسى . . .

تمرر صفية الأوراق وتخط العلامات والعبارات المشجعة والمحفزة، بينما تترى المشاهد اليومية أمامها حية متحركة بين السطور، متخفية تحت ستر المعاني والكلمات حيناً، لكنها ما تلبث أن تفاجئ بقوة بروزها حينا آخر؛ ماذا بعد اعتذار عبد الرحيم؟

يبدو لصفية أنها عالجت الموقف بما يمكن في حينه، وعازمة على أن تنفرد بالفضولي عبد الرحيم لتسر إليه، ما يمليه الواجب وتستلزمه مهنة المربي، لكن ما يحز فيها، أن الفضولي المعتدي بعد عبارة اعتذاره مباشرة، يهم بالجلوس وهو يلتفت حواليه، كالمعلن انتصاره في حلبة ملاكمة وينتظر التصفيق من الحضور!

لا بأس، أي جيل هو؟ وهذه الأخرى، بشرى التي تعرب عن رغبتها في أن تتزوج بحاراً، وتردف ذلك بما يعز على غيرها ويعجزون عنه جميعاً، في غالب الأحيان، وهو التبرير الواضح المباشر، في أنها تحب البحر، لم تركبه أبداً، تعشق ما وراءه، دائماً تقضي أوقاتاً تتأمله كلما واتتها فرصة، تراقب من بعيد، ما يبدو أو يتحرك من سفن ومراكب على سطحه، البلد هنا بحري، قريب من البحر، ولا تريده أن يكون أكثر من بحار، يمتطي بها متلاطمات اليم بلا هوادة ولا انقطاع، ينقلها إلى ما وراءه من بلدان وأكوان . . .؟!

يا سلام . يا سلام ؛ مهاجرة في المهد ، مهاجرون بالفطرة ، ماذا يرضعون من صدور أمهاتهم ، أم هو الإرضاع الاصطناعي يعطي أكله مرتين؟ أما البرهوش الآخر ، فيعرب عن رغبته ، بهيئة متطاول مستعرض ، بأنه كوسمونوت ، بمعنى أنه يريد أن يكون ذلك في مستقبل أيامه ؛ كوسمونوت؟ ولماذا يا حبيبي؟ طبعاً لا يجيب ، لا يرى ولا يجد مبرراً كما هي آفة الجميع . . . ما عدا . . . وينبري من يعلق بأن من يريد أن يكون كوسمونوت ، يجب أن يكون ابن وزير!

ما العلاقة؟ لا جواب ؛ والمضمن بلا شك أن الوزير لا يعجزه شيء ، وبيده كل شيء ، طيب وما معنى كوسمونوت؟ تسأل صفية موزعة نظرتها على الجميع ، لتعود مركزة متنقلة فيما بين المعرب عن رغبته والمعلق عليه . . . ما المعنى؟ لا جواب ، لا جواب محدد على الأصح ، وتترك صفية الباب مفتوحاً ، ليكون ذلك هو موضوع بحث الجميع ، لحصة قادمة .

أي جيل ، وهم ليسوا صغاراً رغم أنهم صغار ، إنما النهار من صباحُو والخير من مراحُو . . .لا بأس لا بأس ، تمرر المعلمة صفية الأوراق ، قلمُها الأحمر يخط ، وبالُها يستحضر ويستعرض ، لا بأس . . . ماذا؟ ما هذا؟ الحدث هنا بجوارها ، لا في الفصل المدرسي ، ولا في الأوراق ؛ يتوقف القلم بين أصابعها ، وهي تتسمع وتستعيد ما التقطت من صوت . . . تْشخْ . . . قوية ، واحدة بلا تثنية ، ملأت سمعها دفعة واحدة ، ولم يتلُها شيء . صوت تحطُم ، ارتطام . . . ماذا؟ وباتجاه المطبخ . ماذا؟ سامان . . . سامان . . . تنادي مكررة سامان ، ولا مجيب إلا همهمة بعيدة متناهية متكررة كتعويذة ، تتردد في سمعها ببعض انتهار . . . مجوس . . . قاديان مجوس . . .

تضع صفية كراريسها جانباً ، وتقف بهدوء ، تخطو متطلعة تجاه المطبخ .

- قاديان مجوس

عبارة سامان يرددها في غضب وغيظ . تنظر صفية إلى الأرض ، باتجاه تحفة الصحن الخزفي المهشم عند قدمي سامان ، وعيناه جاحظتان في الأرض ، مفتح الذراعين في شبه انحناءة ، كالمتجمد في وضع ما كان عليه عندما تساقطت التحفة من بين يديه ، تتردد بين شفتيه بعفوية ما بين همس وضيق نفس ، عبارته الأثيرة كتعويذة . . . قاديان مجوس ، قاديان . . .

لا تفهم صفية من الأمر كله ، إلا أن تحفة الخزف من صنع آسفي ، آسفية تليدة ، وهي الآن مهشمة متناثرة أشتاتاً فتاتاً ، شظاياها مبعثرة على أرض المطبخ ؛ لا تفهم ما يرطن به سامان ، ولا ما دعا إلى تهشم التحفة أو أتى بها إلى المطبخ أصلا ، وهي المعلقة بعناية في صدر البهو الضيق ، تحفة عزيزة غالية تحيي وتكتحل بها نظرة كل وافد .

- نو مدام نو . . . مْوا بّايْ ، مْوا مدام . . .

يبدو سامان مرتبكاً مضطرباً ، شديد الارتعاب ، تغشى صفاء سمرته الإفريقية الأصيلة ، هالةُ شحوب واصفرار ، شفتاه جافتان منفرجتان بين لفظ وهمس ، يحاول بلغة أكثر من متكسرة وبخليط صوت وحركات مضطربة ، أن يشرح أنه المسؤول ، وهو يتحمل ذلك ، ويؤدي ما يجب عليه ، مردداً بصره الجاحظ بين شتات الآنية ووجه المعلمة صفية ، يكرر اعتذاراته بالمفهوم وغير المفهوم ، مطعماً كلماته الفرنسية بدارجة مغربية ، لا تكاد تستقيم على لسانه .

تستوعب صفية المشهد ، أشتات هدية بسيطة جداً ، لكنها غالية

القيمة لا تقدر بثمن ، لما تحمله من تذكار مناسبة عزيزة ، ذكرى التخرج من المركز التربوي ، حيث تأخرت ذلك اليوم ، مع بقية المتخرجات والمتخرجين ، ممن حالفهم الفوز ، في انتظار التوصل بوثائق تعييناتهم في مراكز اشتغالهم ، لتجد زميلها نعيم واقفاً في انتظارها ، يهنئها ويناولها الآنية الفخارة هدية ، ويقطف من خدها قبلة خفيفة خاطفة ، ليضغط دواسة دراجته الفيسبا ، وينصرف منخطفاً على ظهرها مبتعداً عنها .

تظل صفية ترمقه في خط سيره المتنائي عن موقعها ، بخط دخان خفيف منسحب وراءه من دراجته النارية ، حتى يتوارى عنها ، لتعود إلى نفسها ، تلمس برفق موقع قبلته الخاطفة على خدها ؛ هكذا يبدو نعيم بمثابة من لا يهمه من أمر التخرج شيء ، لا بابتهاج أو ابتئاس ، وإنما يغادر متفرداً مسرعاً بلا أدنى كلمة أو إشارة ، ولا حتى عبارة وداع ، كما هو متبادل بين الجميع لحظة التخرج ، أم أن هديته إليها مع سرعة اختفائه ، عبارة متفردة عن وداع؟

تقتلع نفسها من خواطرها ، تعود إلى ذاتها ، تنظر إلى سامان مأخوذة بملامح ارتعابه البالغة . . . لا بأس لا بأس . . . تلفظها صفية بعفوية ، كأنما تهوّن من الأمر عليها ، أكثر منها على سامان المتجمد في وضعه والمتحفز لأي شيء . . . لا بأس ، لا بأس ، يبدو سامان كأنما يلتقط عبارات صفية المسامحة وملامحها المهوّنة ، ليؤكد بحركات الرأس رفضه تسامحها معه ، وتسامحه هو أيضاً مع نفسه ، لا . لا يمكن .

. . . نو مدام موا . . . أنا بّاي ، نو جنتي مْوا ، نو جنتي . . .

عرفته منذ نزولها بالرباط بحي التقدم الشعبي ، بعد الاتفاق مع

مدرسة حرة كانت على اتصال بها قبل ذلك ، تجده في الحي يسارع من ذاته ، يساعد الحمال على إرساء الأثاث الأولي لمسكنها بالحي ، دون طلب منها أو من أي أحد ، لتعلم من حاله بعد ذلك ، أنه مناوب حراسة الحي ، والمبادر إلى المساعدة بالخدمات المنزلية ، لأي كان من قاطنة الحي ، في أوقات فراغه ، ولتجده بدورها ملائماً ، لا بأس ؛ تراه جد متفان فيما يتطوع له أو يكلف به ؛ هذا ما يبدو عليه ، وهذا ما تؤكده في أكثر من مناسبة ، للأمليكة التي يقطن عندها ، في الجزء السفلي من منزلها ، مع ثلة أفارقة جنوب صحراويين ، وهي تؤكد ذلك بأكثر من لسان . . . لا بأس ، لا بأس به ، تنقصه بعض الدربة ، يساعد الجميع ولا يشترط شيئاً ، متقبلا ما ينفحونه ، ولو مجرد ابتسامة وكلمة شكر . . . لا بأس . . . لا بأس . . .

يؤكد سامان كامل مسؤوليته وتحمله أداء ما كسر ، منهياً عباراته برفس متتابع للأرض بصفحة إحدى قدميه في غيظ ، مردداً دون توقف بين نفس وهمس ، كما لو كان يتلو تعويذة : مجوس قاديان . . . مجوس . . .

لا تعلق صفية بشيء ، ولا تنظر إليه ، وإنما تنهي الموقف بالارتماء نحو المكنسة ، تلم الشتات الخزفي ، لتلتقي أيديهما على عصا المكنسة ، ونظرة انكسار مترجية من قبل سامان ، أنه هو من يقوم بذلك . . . لا بأس لا بأس . . . وإلا سيعتبر رفضها غضباً عليه أو عقاباً له .

لا بأس ، تكرر صفية مهونة من الأمر ، مخففة من هول ما يبدو على سامان ، وهو يكرر في شبه هذيان عباراته المكسرة بأنه هو المسؤول وهو من يؤدي ثمن خطئه .

يهولها أمره ، تقاطعه صفية ، ممسكة يديه حول عصا المكنسة أن لا شيء عليه ، لا بأس . . . تربت بإحدى يديها على كتفه لا بأس . . .

- نو مدام بّاي مْوا . . . تْوا نو . . .

يكرر سامان في إصرار منه على تحمل مسؤولية عمله ؛ تتركه صفية وشأنه ، يكنس الأرض من نثريات الآنية المكسورة ، بينما تعود هي إلى جلستها على السداري ، مسندة ظهرها إلى مخدة على الجدار ، تنظر حولها بعفوية إلى لا شيء ، متخطية بنظرتها كومة الكراريس من حولها ، ساهمة لا تقف عيناها على شيء .

قاديان مجوس . . . تظل العبارة تطن في بال صفية ، لتغتنم أول فرصة سانحة ، تسأل سامان عن معنى تلك العبارة التي يكررها على لسانه ، وطالما تسمعه يلفظها باستمرار ، في حالات مختلفة من تذمر أو ضيق ، أو حتى بغير مناسبة أحياناً . . . مجوس قاديان؟

يحدق سامان في ملامحها مفتحاً عينيه في شبه اندهاش ، من سؤال لم يكن منتظراً ، لتفهم صفية بعد لأي وتلعثم منه ، أنه لا يعرف بالضبط معنى ذلك ، لا يكاد يعي ما يصدر عنه ، معتبراً أن ما يلفظه طبيعي ويأتي منه عفواً ودون أي قصد ، ومعناه تحصيل حاصل بالنسبة إليه ، لا يستدعي سؤالا . . . آه طبعاً ، بالنسبة إليها هي وإلى غيرها؟ ينسى أحياناً أنه في غير بلده ، وأنه يخاطب غيره ، أما في بلده وبين أهله ، فلن يطرح عليه أحد مثل هذا السؤال ، حتى لو كان مخاطبه لا يوافق على معناه ودلالته ؛ ذلك كله لا يهم .

إنما لا بأس ، ويشرح سامان لصفية ما تسأل عنه ، يمكنه أن يقدم نفسه على أنه من المدرسة الشعبانية ؛ لا ، ليس بالضبط الضبط ، وإنما على وجه الدقة ، جده هو الذي كان شعبانياً حقيقياً من المدرسة الشعبانية ، وسامان يعتبر نفسه كذلك بالتبعية وكل الأسرة ، المدرسة الشعبانية في أكرا تعلم القرآن والعبادات واللغة العربية ؛ والد سامان سيكو مادو ، تعلم في تلك المدرسة ، وهو من أتباعها ، يصلي في مسجدها ومع جماعتها ، أما هو سامان . . .

يلوي عنقه ويحرك رأسه يميناً وشمالا ، كالعاجز عن تعبير مقارب

لما يريد ؛ هو شعباني ، نعم ، لكن ليس كأبيه . لا ، بل بعيد هو عن حال أبيه ، وبالأحرى جده ؛ لا يهم ، الشعبانيون يكرهون القاديان المجوس . . . يتلفت سامان جنبه ، كما لو كان يتعوذ منهم ، أو يتجنب أن يكون بقربه أحدهم ؛ تسأله صفية إن كان يصلي ، يجيب بالإشارة أن نعم ، ويبادر من ذاته بإقامة الصلاة . الله أكبر . . . ليمارس سلسلة حركات انحناء ووقوف متعددة ، تثير موجة ضحكات متتالية لدى صفية ، بينما يتوقف سامان أمامها مشدوهاً . . .

تكف صفية عن الضحك ، تغير من ملامحها مستردة سمة جد ، تسأله إن كان قد سبق له أن صلى . يحرك رأسه قليلا . . .لا . لم يفعل ، ولكنه رآهم يصلون . . . تسأله عن الوضوء ، آه نعم . يتذكر بعض الشيء ، يظهر حركات إيمائية ، كما لو كان يهم بغسل ما يستلزمه الوضوء ، لكنها تأتي بدورها عشوائية .

- لا بأس

تهمهم صفية ، تتركه لشغله منصرفة لشأنها ، وهي تلتفت تجاهه ؛ لا بأس ، تؤكد على مسمعه كما لو كانت مكتفية أو راضية ، عما شاهدت منه .

يتردد في سمعها خليط ضجة متناهية من ناحية الشارع ، تخطو صوب الغرفة باتجاه النافذة المشرعة على الساحة ، ترمي بصرها وهي تهم بإغلاق النافذة ؛ عدة سيارات مركونة كالعادة ، بعضها مغطى بشمع واق وبعضها الآخر بدون ذلك ، تعلو سطوحها طبقات غبار يتناسب سمكها وكثافتها ، مع مدة المكوث وطول التعرض لتقلبات الطبيعة ؛ بضعة أطفال يتقافزون متبارين في لعبة الظهور والاختفاء ، بين مراكن السيارات ، شبح بّالعربي الحارس ببعد همة وهزالة كيان ،

يهش بحركة يد ولسان ، جمهرة الأطفال وهم يتحركون ببالغ طيش ، بين السيارات ، في تحد ممازح مرح لإرادته وجهر أمره ونهيه ، ليلتفت عنهم أخيراً ، يحاجج في الوقت نفسه ، أحد معارفه من ساكنة الحي وأرباب السيارات ، في أنه غير مسؤول عما يترك داخل السيارة من أشياء ، سواء بالليل أو بالنهار . . . انظرْ . . . يوجه بّالعربي انتباه محدثه بسبابته ، متابعاً حركة الأطفال في تحوامهم بين مراكن السيارات ، وهم مع فتور واضح في همتهم ، بعد أن تركهم بّالعربي لشأنهم ، إلا أنهم يتنقلون ببالغ خفة بين العربات ، لا يكادون يتركون واحدة دون أن يطوفوا بأطرافها ، متطلعين كالمتفقدين لحالها وما بداخلها ، عبر زجاج نوافذها .

تغلق صفية زجاج نافذتها بمهل ، لتظل ممسكة بالمقبض ملامسة بجبهتها ملاسة الزجاج ، متابعة حركة الساحة أمام ناظريْها ، لتتراءى لها ساحة الجامع الكبير بمدينة الصويرة ، مدينتها الأصلية ، وهي في طريق الأوبة من مدرستها الابتدائية إذ ذاك ، ساحة متربة مدكوكة السطح بكثرة حركة دائمة ، تبصمها أقدام الراجلين ، مع آثار العربات المختلفة حجماً وشكلا ، أقلها من ذوات المحرك وأغلبها من المجرورة بدابة ، أو المدفوعة بيد وساعد ، تمر عابرة أو تجثم قارة مركونة إلى أجل ، أو تابعة لبائعين متجولين ، يعرضون عليها بضائعهم المختلفة ، تتناهى أصواتهم متنافسة في الصياح عن جودتها ورخص ثمنها ، وهي لا تخرج في غالبها عن خضر وفواكه موسمية ، تخالطها منذ عصريات اليوم ، مواقع الفرّاشة ، ممن يعرضون كل شيء من الإبرة والخيط ، إلى الأواني المنزلية والألبسة ، بما فيها المستعمل والجديد .

تقف الطفلة صفية مشدوهة مأخوذة ، بلطف حركة بائع قطع ثوبية

جذابة الألوان ، فتى عذب الكلام ، وهو ينشر واقفاً قطع الأثواب واحدة تلو الأخرى ، على طول قامته ، يعرضها واصفاً في الآن نفسه للاّ مولاتي العروس ، جميلة الجميلات ، أميرة العرائس ، وهي تلتحف بحديقة الألوان القماشية مما بين يديه ، منسابة على قوامها الرشيق ، أو تفرغ عليها التكشيطة الأميرية ، من حرير الدودة الأصيل مما يعرضه اليوم ، يكاد النحل يكب على زهو رسومه يرعى رحيق زهرها البديع . . . آه للاّ الأميرة الحسناء ، تجرجر أذيالها . . . و . . .

ينتبه الفتى إلى مشهد الطفلة صفية ، من بين من يتحلق حوله وأغلبهن نساء ، والطفلة مأخوذة بما ترى وتسمع ، ليبدو الفتى البائع بدوره مشدوداً إلى ما يثير في مشهد الصبية ، يمد إليها يده ، تنصاع لجذبه ، يتخطى بها قطع الأثواب تجاه موقعه ، حتى تصبح مثله بمواجهة من يتوقف حوله من متحلق ، يربت على كتفيها ويمسح على خديها بلطف ، ليسألها عما أعجبها من ثوب ولون ، تشير دون كلمة إلى قطعة مزركشة مما ترى ، يتناولها الفتى ، يعرضها مشرعة أمام الأنظار ، ثم يفرغها حول قامة صفية ، يلفها بها كالملحلفة ، شاملة غطاء الرأس وسائر الكيان ، إلى أوفر من أخمص القدمين ، مما يلتمّ ململماً حول قدمي الصبية على الأرض ، ليلم الفتى بعد ذلك ، ما حول منتصف كيان صفية ، بإحدى يديه من خلف ظهرها ، في شبه حزام .

يجيل الفتى البائع نظره فيمن حوله ، مظهراً غاية الانشراح ، متفرساً في السحنات المحيطة به ، ملمحاً بكل الإشارات والحركات إلى ما يملؤه ويملؤهم من إعجاب . . . ماشاء الله . . . انظروا ها هي الفتنة والجمال . . . تملّوْا انسياب حرير الدودة الحقيقي الأصيل ، ورسوم الزهر على سحر القوام . . . انظروا كيف تزهو العروس ويمرح انسدال الحرير ،

خذوا اختاروا فوزوا تسابقوا .

يمد الفتى يديه يميناً وشمالا ، يأخذ ويعطي في غاية حمية وانبساط ، ومرة بعد أخرى ، يلثم خد الصبية ، بقبلة تودد خاطفة ، دون أن يكف عن نشاطه في الأخذ والعطاء ؛ بينما صفية منتصبة في قماشها المزركش ، تعبرها صور العروس في هودج حريري مذهب ، تُزف بأحلى الأنغام ووئيد الخطو ، تتهادى نحو مرفئها الآمن ، يقودها بيد اللطف فارسها الوسيم ، تجاه مأواهما الدافئ ، يزيح بيده ستارة سريرهما ، فراشهما الوردي . . .

ويلتمع أمام عيني الصبية صفية المغمضتين الحالمتين ، خاطف برق على صدى صفعة مدوية على خدها ، مع قوة يد تسحبها سحباً غير رفيق ، مشفوعة بألوان السبّ والشتم عليها وعلى والديها ، وعلى البائع والمشتري والناس أجمعين .

زْحومة الوالدة ، ترفس وتضرب بما اتفق ، حيثما اتفق . . . هكذا هو الحال ، والوالدة زْحومة والوالد سي الحسوني نيام على آذانهم شُخّار ، وهذا هو طريق المدرسة ، في الذهاب والإياب ، هكذا تكون بنات الناس المتربيات ، هذا هو الحال ، وهذه هي البنت العاقلة المعمرة المثمرة ، صفية ما شاء الله عليها وتبارك الله ، هذي هي صفية المهدية المرضية حيا وحشومية و . . . ويلي . . . ويلي وحدي وييييلي .

تهذي زْحومة وتهدر ، وهي تخطو بقوة كالركض ، تسحب سحباً فلذة كبدها صفية إلى جنبها ، ممسكة بخناقها ، تقودها متوعدة بما تدخره لها من مزيد عقاب ، ومن والدها الحسوني ، مما لم تره عين ، ولا سمعت به أذن ، ولا خطر على قلب بشر .

تستعيد صفية نفسها ، تبعد جبهتها عن ملامسة زجاج نافذتها ،

ترنو لحظة إلى حركة الساحة من خلف الزجاج ، يبدو فضاء مركن السيارات في تمام هدوء من شغب أطفال غادروه للتو ، بعد أن أدوا به واجبهم اليومي المعتاد .

يبدو شخص بّالعربي وحده يتحرك ببالغ تؤدة وهدوء ، ذهاباً وإياباً ، ما بين كشك حراسته في منتصف شارع وساحة مركن السيارات ، في هذه الساعة المبكرة من زمن حي التقدم ، بعد حركة المصلين في ذهاب وأوبة ، ما بين منازلهم والمساجد إبان الفجر ، وما يتلو ذلك و قبله بقليل ، من مبكري عمال وعاملات الحي ، ممن يأخذون وجهات ورشات شغل نائية ، أو متعهدي أسواق الجملة من جزارين وتجار خضر وفواكه وما إلى ذلك ، حيث يكون بّالعربي قد أثبت ما لا يحتاج إلى إثبات ، لمن يبكر ويرى أنه الساهر حقاً ، والحارس حقاً ، بكامل يقظة وعين لا تنام .

هكذا يمكنه أن ينتظر بعد ذلك ، موجة الصحوة الثانية ، التي ما بعدها نومة ، وهي يقظة الموظفين وخلائق المدارس من كبار وصغار من الجنسين ، كل إلى وجهته ، حيث يعم معها زمن الشغل حتى لمن لا شغل له ، بينما تفتح أبوابَ استرزاقها سائر المحلات التجارية ، لتبدأ فعلا دورة الحياة كاملة شاملة .

يتوقف بّالعربي عند كشك حراسته ، كالمتردد ما بين ولوجه واقتعاد جلسته بالداخل ، على اللبدة الصوفية فوق القطعة الخشبية لمقعده الواطئ ، أو متابعة حركته الوئيدة المعتادة ذهاباً وإياباً ، إن لم يكن ذلك لضرورة الحراسة ، فلتليين عضلاته ومفاصل كيانه النحيف على الأقل . ينظر بّالعربي إلى ساعة معصمه متطلعاً إلى الوقت ، وهي تُبين عن اقتراب السابعة من صباح اليوم ؛ يلج الكشك الخشبي ،

يسحب من الركن لوازم الشاي مكتملة ، ويشعل موقده الصغير ، ويبدأ في الإعداد ، لكأس صباحي منعنع ينعش مزاجه ، مع نفحة من السبسي ، ولو أنها تكييفة لا يُنصح بها على الريق ، مما يستحضره ويعْلمه بّالعربي حق العلم ويؤمن به ، لكنه يخالفه تمام المخالفة .

ما يكاد بّالعربي ، ينهي تسوية الشاي وتذوقه ، حتى ينتصب مقدم سامان قبل حلول نوبته النهارية كالمعتاد ، يتبادلان عبارات تحية ومودة ، مع انهماك بّالعربي في صب الشاي ، متابعاً شرشرته وتبلور طوق رغوته يجلل الكأس ، متنسماً فوح بخاره المنعنع ، ليناول سامان كاساً بينما يظهر هذا من جانبه ، ما يحمله من جوال ورقي صغير ، ما يلبث أن يفتح فوهته بمواجهة بّالعربي الذي يفغمه نفح بخار متصاعد ، يصدر معه صيحة ابتهاج بالمحتوى ، وهو يمد يده دون استئذان أو انتظار ، يسحب من داخل الجوال الورقي ، شفنجة يمضي بها مباشرة تجاه فمه ، يقضم منها ، ليبعدها في الحين متوهاً من لسع حرارتها .

يضحك سامان من حركة بّالعربي وهيئته المتألمة ، بينما يتناول بدوره شفنجة من الجوال الورقي ، يداعبها بيديه معرضاً إياها لمزيد تهوية ، لتفقد بعض حرارتها ، ثم يقضم منها وهو يكرر مقولته بأن الشفنج يؤكل ساخناً وإلا فلا . . . نعم يؤكد بدوره بّالعربي هو ذاك ، نعم ولكن شتان ما بين ساخن ونار . . .

– الجمر هذا يا أخي . . . يكوي

يقولها بّالعربي متذمراً في انتشاء واضح ، وهو يرنو إلى شبه فقاعات على طوق الشفنجة المقلية ، يقلبها بين أصابعه ، ليستدرك في الحين منوهاً بنوعية ما يقضم من شفنجته .

– . . . ولكن المعلم تبارك الله عليه .

ويتأدى الاثنان معاً إلى امتداح المعلم عليوات الشفاج ، الذي يسهب بّالعربي في ذكر مزاياه وكم يقل أمثاله اليوم ، وهو الذي ورث الحرفة عن أجداده .

- إييه ، والنظافة ، الطهارة ياولدي الطهارة

يؤكد بّالعربي أن المعلم عليوات ، صنايعي وأقدم محل في حي التقدم بأسره يصنع الشفنج ، قل في الرباط كلها وفي المغرب بأسره أيضاً ، الناس الآن ترتمي متطفلة على المهن ، بلا استحقاق ولا موجب ، كلها شفاجة ، دوّر عينك وشف ، ولكن الطراوة والإتقان . . . آه والنظافة ، الرجل عليوات هذا ، لا يفتح محله قبل أن يتوضأ ويؤدي دين الله ، صلاة الفجر لا تفوته ؛ إنما النظافة ليست فقط في مجرد غسل اليدين وحتى الرجلين ، لا تنس أنهم يخلطون العجين بأقدامهم . . . نعم ، نعم . لا تتعجب ؛ ويمكن أن يخلطوه ببولهم ويتفلون فيه ، نعم . نعم . بنو آدم خلق من ضلع أعوج ؛ لكن النظافة والإتقان عند صاحبنا المعلم عليوات الشفاج في كل شيء ، وفي القلي بالذات ، في الزيت الذي هو موقع ربح الغشاشين ، نعم الزيت عند المعلم النظيف والمخلص يتغير ويتجدد برمته ، بعد قليتين أو ثلاث لا أكثر ، بينما لدى أصحابنا الآخرين ، حدثْ ولا حرج ، يمكن للزيت أن يستمر أياماً وأسابيع إن لم يكن أكثر ، يكتفون بالإضافة على الإضافة دون تغيير ولا تجديد . . . السّمّ هذا ، نعم ذاك هو ، سمّ زعاف ، لا يستشعر الآكل ضرره في الحين ، لكنه يتربى شيئاً فشيئاً كالجنين في بطن أمه ، ولعشرات السنين قبل أن يتولد أذاه الخبيث ؛ أعوذ بالله من التطفل على الحرف ، وندرة المعلمين الأصلاء . . . أو هي . . .

- في الحقيقة في هذا الزمان آ ولدي كثرة المعلمين وقلة تمعلمت .

هذا هو الأمر وخلاصة ما ينتهي إليه بّالعربي ؛ الحرف الأصيلة تنقرض ، والمعلمون الأصلاء لم يعد لهم من أثر ، والندرة البقية منهم ، تخلت واتجهت وجهات أخرى في البحث عن أجر ثابت ، بدل الاتكال على ما يجود به يومك أو لا يجود ، ليست وحدها تشفاجت التي تنقرض ، ويتطفل عليها من يهرف بما لا يعرف ، خذ أيضاً تفرّانت ، أين هو المعلم الفرارني الذي يتحسس بشمه ، درجة نضج الخبز في الفرن ، ويدرك تنظيم الأخباز وهي بالعشرات في بيت النار داخل الفرن ، ونظيرها من تنظيم الأطباق الفارغة خارج الفرن ، ليرجع لكل خبزه دون تغيير ولا تبديل . . .

- آه سامحني . . .

يبدو سامان متحفزاً لشيء ما ، يحاول إيقاف بّالعربي ، لكن هذا يبدو مستمرئاً متعة ما يفضي به من دراية وخبرة بالزمان وأهله ؛ شف يا ولدي ، الناس الآن كلهم ملوك ولا يشعرون ولا يقنعون ؛ هذا صحيح وواضح وضوح الشمس في جهرة النهار . . . مثلا . . . مثلا . . . خذ على سبيل المثال جحيم حرارة الصيف ، لهيب السمائم اللافحة القابضة ، وجرعة الماء الباردة القارسة ، قل الثلجية ، يتلقاها حلقك لاهثاً جافاً ؛ من كان يدركها من ملوك وجبابرة السلطة والمال في العصور الغابرة ، أقصى ما كان يظفر به أقواهم وأشدهم عتواً وكنزا ، جرة فخارية ، يشرب منها ويقال عنها برّادة ؛ بينما قراح الماء البارد الثليج اليوم ، هو اليوم في متناول بّاك العربي على قلة حاله وماله ، وفي متناولك أنت ومتناول أي كان ، في كل وقت وحين ، حتى لمن لا يملك جهاز تبريد ولا ثلاجة ، إذ يكفيك بدراهم معدودة اقتناء البارد المثلج بشتى الأنواع والمذاقات السائغة ، في عز الصيف ولفح الحر ؛ وانظر في

التهوية بالبارد صيفاً والدافئ شتاء ، وهو اليوم متيسر للجميع ، بينما كان أعتى جبابرة السلطان و المال في العالم ، لا يحظى بأكثر ممن يهش عليه مجرد نسمة هوائية عادية من منشة ؛ الناس اليوم كلهم ملوك وجبابرة عيش ، ولكن لا يشبعون ولا يقنعون . . .

يقفز سامان حتى لا يأخذه حكي صديقه عن نفسه ، وما يلتزم به قبل بدء نوبته في الحراسة النهارية ، يوقف سيل حديث بّا العربي ، ليقوم وهو يدس في يده جوال الشفنج بما تبقى فيه ، ويعتذر مهرولا ، لأداء ما هو واجب مستعجل .

يطرق سامان الباب ، تفتح صفية ، يتبادلان التحية ، تفسح له الباب ليلج بما يحمل بين يديه من المعهود الذي تكلفه يومياً بإحضاره لإفطارها ، من هلالية وعلبة لبن ، متجهاً مباشرة إلى المطبخ كالمألوف ، بينما تنصرف صفية إلى غرفتها ، تتهيأ ليومها المدرسي ، لتظهر بعد لحظة ، وتجد سامان ، قد وضع ما يتعين من إفطار على الطاولة الصغيرة في البهو .

- سايبي مدام

ترفع صفية نظرها باتجاه سامان المنتصب عند باب المطبخ ، في هيئة من أنهى ما عليه ، مستاذناً في الانصراف ، تومئ إليه صفية شاكرة موافقة ، لكنه يتريث قليلا ، يسألها كعادته إن كان ثم ما يمكن القيام به قبل ذلك .

- نو نو . . . مرسي مونامي

تومئ برأسها نفياً ، مكررة شكرها له ؛ له أن ينصرف ، لا شيء لها تكلفه به الآن .

يبدو سامان متلكئاً في موقفه ؛ رغم الشكر وأمارات الاكتفاء من

صفية ، يظل كالمتردد أو المنتظر أمراً بشيء ، ليسألها ببعض تلعثم إن كانت تصلي؟

تتريث صفية في الجواب ، سبق أن طرقت معه الموضوع وسألته السؤال نفسه ؛ تبتسم في أعماقها . . . نعم ، تقول . . . نعم ، ليس دائماً ، أحياناً لا تصلي . . . لكنها يجب أن تصلي . . .

يزم شفتيه مع حركة خفيفة من رأسه ، تفيد الفهم كما تفيد التحبيذ لما يسمع ، قبل أن يلوي في تؤدة متجهاً نحو الباب ، تتابعه صفية في خطوه المتئد ، حتى ينغلق الباب وراءه ، لتعود إلى التهيؤ لبداية يومها .

يركبها حرج ، تتململ صفية باطنياً في جلستها ، تتبرم من لسعات تستشعرها خاطفة قارسة من عيني للاّمليكة الحاذقتين المتطلعتين ، وهي تراقب حركات سامان ، في سعيه ما بين المطبخ وغرفة الجلوس يعد لهما الشاي ، يضع الصينية جاهزة أمامهما ، ليعود إليهما بآنية الحلوى ، منحنياً منصرفاً بنظرته عن كل شيء إلى لا شيء ؛ تميل للاّمليكة ، في حركة أو همس باتجاه سمع صفية ، التي تقاطع حركتها بالتفاتة متباعدة ، وبصوت مرتفع باتجاه سامان :

- ماتنساش . . . عافاك؟

تقول صفية ذلك منبهة سامان إلى ما أوصته بشأنه ، وقد عاد إلى ما يشغله في المطبخ ، دون أن تنتظر منه جواباً ، مسارعة في الآن نفسه إلى جليستها للاّمليكة ، تستطلعها إن كانت تريد الشاي حلواً ، ناقص سكر أم بدون؟

تصب صفية الشاي لهما معاً ، متابعة همهمة للاّمليكة ، وهي تعلق عن الحلو والناقص حلاوة ، أو بدون . . . بجواب عن أيام الحلاوة وأين هي منها ، متنهدة في شبه نفس مكتوم عن تلك الأيام الزاهية ، ومن يجدها اليوم أو يستعيد لحظة واحدة منها ، وقد خانها الزمان ، زمان الأيام وزمان الزوج الذي ارتبطت به وأنجبا ما أنجبا ، ذاقت معه الحلو والمر ، ليتبخر الحلو فجأة ، دفعة واحدة ، ويبقى المر وحده ، عندما يسقط الزوج لحسن طريح العلة ، بشلل نصفي مباغت ، ليصبح لصيق مقعد وفراش ، وإذا الرجل بين عشية وضحاها ، وقد أمسى عالة على

من كان معوّلها ، معيلها وضمان أيامها ولياليها ، هو بدوره ضحية ، غدرتْ به الأيام والزمان ؛ وتبقى أختك مليكة حمالة ثقل ثلاثة ، فوق ثقلها على نفسها ، مع ثقل مضاعف ، بزوج كسيح ووالدة مسنة في شرود وغياب دائم ، مع اللوازم كلها من صغيرة وكبيرة بلا معين ، تكاليف كلها كبيرة ما فيها من صغيرة أبداً ، كلها متاعب ، مصاريف كثيرة واحتياجات لا تنقضي .

- ياختي والله ما أنا مليكة ، ولا للاّ ، ولا بنت سيدي . . . أش من مليكة؟ والو . . .والو . . . ما مليكة فيّ ولا مني غير السمية . . . كرهتها وكرهت هذا الاسم كرهتو كرهتو . . . قال لك سموْني مليكة وزادوني شرف للاّ من فوق . . . السمية سهلة ، زدْ وسمٌ ، هذا الاسم أنا كرهتو وكرهتها سمية . . .

تمعن المرأة بملامح أسى وحزن عميق ، في ذم اسم على غير مسمى ، لو سموها فقيرة ، مسكينة ، فريدة ، وحيدة ، يكون أحسن وأحق ، أما مليكة وفوقها للاّ . . . ما شاء الله والسلام .

تومئ صفية مشاركة متأسية على ما تسمع ، وهي تمد يدها بالكأس إلى ضيفتها جليستها ، مشيرة إلى آنية الحلوى ، مكررة عبارات التصبر والمجاملة ، عن حال تعرفها وسمعتها من صاحبتها مراراً وتكراراً ، لتفتح بوابة عالمها هي ، محاولة أن تصرف اهتمام المرأة عما بها من مشاعر حزن وكآبة ، مظهرة تأففها هي أيضاً مما تلاقيه من هذا . . . هذا . . . الجيل . . . صغار ، براهش برهوشات ، مازالوا بولهم في فراشهم وياخْتي ياختيْ . . . تتحدث صفية عن شغلها اليومي ببالغ تأفف ؛ إنهاك يومي لا ينقطع ، ما بين مربية صغار في الرياض ، قولي في الفراش ، ومدرّسة ابتدائي ، وأشياء أخرى . . . مدرّسة؟ قولي

مَتْعبة للبعض ، قولي محلبة للبعض ، يحلبون الناس ، ينسلون جيوبهم حتى سيور أحذيتهم ؛ كانت صفية أحسن حالا في مدرسة حكومية بناحية الصويرة ، كانت على الأقل خالية الذهن مما تلمسه اليوم وتراه بعينيها ، من تلك الصور والمشاهد اليومية المتكررة ، أما الجيل . . . ياخْتي ياخْتي يخزي شيطانهم .

تضع صفية ، يدها على صدرها ، تحركها كما لو كانت تهدئ حرقة تعتمل في جوفها ، أو تحتمي من طعنات حادة تتلقاها ، وهي تمعن في وصف تطلعات جيل اليوم ، تعايشه كل لحظة من يومها مع ناشئة هذا الجيل ، مخازي يحلمون بها ويعربون عنها ، بلا حشمة ولا استحياء . . . باختصار باختصار مفيد ، عقول فارغة من أساسها ، همها الراحة والفرجة والحلوى ؛ تشير صفية إلى كومة كراريسها بالقرب ، من يطلع على ما فيها يضحك يضحك ، حتى يبكي ؛ كله سخافة وقاحة وانتفاخ على خواء .

- والو والو . . . لا شيء . . . فراغ في فراغ ، لا أولاد ، لا بنات . . .

تتلقف للاّمليكة الحديث عن أولاد وبنات اليوم والغد . . . النهار من صباحه يبان رباحه . . . ياخْتي قولي لا رجال لا نساء في هذا الزمان ؛ والرجال على الخصوص ، فين الرجال؟ لا رجال اليوم كالمعهود ممن تعرف أمي وجدتي قبلها ، لا . الرجل اليوم ، يريدها بتمامها وكمالها ، المرأة يريدها بالوظيفة والراتب الشهري قبل كل شيء ، كم راتبها الشهري؟ هذا هو سؤالهم ، رجال اليوم عن بنات اليوم ؛ الراتب يتسلمه الرجل الزوج ، يبدده بلا رقيب ولا حسيب وإلا . . . أما من كانت عديمة الراتب الشهري والوظيفة الرسمية ، مثل البائسة المليكة بلا ملك والخاسرة قدامك الآن ، فويلها وعليها أن تشمر عن . . .

ذراعيها . . . لا . لا . وأكثر . . . قولي تشمر عن فخذيها . . . المهم أن تعود كل مساء أو نهاية الأسبوع ، بما يصلح به رب البيت ، تاج الزمان وغرة الأيام على جبين البائسة المليكة الخاسرة أمامك ، أحوال مزاجه وراحة باله ؛ هي مليكة بالذات عرّتْ عن كل شيء فيها : ذراعيها ، فخذيها وصدرها . . . تعرت كاملة ، لكن في الجد والكسب الحلال ، عندما أسعفتها مرضاة الوالدين ودعاء الخير ، بولوج الحمام منذ يفاعتها ، لتعلق بها عين للاّعيشة الطيابة ، ملاحِظة نباهتها وخفتها ، لتصطفيها مساعدة لها في بعض شؤون الحمام ، بدءاً برعاية أمتعة المستحمات بالحرص اللازم في الحفظ والاسترداد ، بينما تتفرغ للاّعيشة للمهمة التي ستبرع فيها فتاتها اليافعة مليكة إذ ذاك ، وهي الحك والتدليك والاستقاء في قاعات الاستحمام الداخلية ، لمن يرغبن أو تجعلهن يرغبن في ذلك ، لتصبح بدورها بعد حين ، ينادى عليها للاّمليكة الطيابة ، حين يتوفى الله تلك المرأة الكريمة الطيبة . . .

- الحمد لله هاحنا عايشين برزقنا وحلالنا حتى يسترنا رب العالمين .

تنهي المرأة دعاءها مُقبّلة كفيها ظهراً وبطناً ، شكراً وعرفاناً لفضل الله عليها على كل حال ، لتسأل صفية بابتسامة عريضة عن أحوالها ، لا عن المدرسة والكراريس و . . . و . . . هموم الدنيا التي لا حصر لها ، إنما عن الداخل ، القلب والخاطر .

تبدو صفية غير متفاجئة بالسؤال الذي أصبح مألوفاً لديها ، لكثرة ما يتكرر . . . لا شيء ، لا شيء عندها ، لا جديد ، ولا هي ترغب في جديد ، مكتفية بحالها في شغلها ومدرستها . . . نصيبها؟ طريقها؟ تسألها عن النصيب والطريق ، عن الزواج والرجال ؛ طريقها والزواج

سلكته معكوساً ، بدأته من نهايته ، لا مجال لتفكير في شيء مماثل ؛ أما ما اعتقدت يوماً أنه بداية طريق حقيقي تختاره وتخطه مع من تقدّر ويقدّر ، طريق حب ونبض قلب حقيقي أول ، فقد مضى مع نعيم ، دون أن يتبقى منه شيء ، متمخضاً عن سراب أخضر خادع ، أخضر بلون بطاقة إقامة ساحرة متأمركة ، وبجناح طائرة محلقة في الأجواء ، فوق كل شيء أرضي .

تختفي ملامح الاستطلاع ، وتغيب البسمة العريضة عن محيا للاّمليكة ، أمام الباب الموصد من قبل صفية ، ليتغير الحديث باتجاه موضوعات عادية مختلفة ، لا تعدو المألوف من تبادل تعاليق أو أخبار عن الرائج والدارج من أحوال المعارف والجيران بالحي ، حتى يبدو وكأن الجلسة استنفدت أغراضها ، لتتذكر للاّمليكة متأوهة ، ما تركت وراءها وينتظرها من مهام وواجبات متتابعة لا تنقضي بليل أو نهار .

- الوالدة مّيمتي مسيكينة . . .

تحرك المرأة رأسها تأسياً ، معددة حالة والدتها في شرودها الدائم ، والزوج الكسيح لا يفارق الفراش . . . والحمد والشكر لك يا ربي على ما كتبت ورزقت .

تنهض للاّمليكة مستأذنة كالمستعجلة ، تقوم صفية إلى جانبها ، ترافقها إلى باب الشقة ، لتتوقف المرأة قبيل العتبة ملتفتة إلى مضيفتها صفية ، ومتطلعة بعينيها إلى ما وراءها ، كأنما تتهيب أن يكون لكلامها متسمع أو شاهد ، تقول بصوت كالهاجس في خاطر صفية ، وهي تومئ بعينيها تجاه المطبخ .

- آه ، سامان مالُو؟

تتساءل صفية إزاء إشارة المرأة المتسائلة

- ما مالوش . . .

تحرك المرأة رأسها نفياً ، كأن لا شيء ، لا شيء . . . تقول للآمليكة كالمتنصلة من أية نية ، مع ما بدا مفاجئاً على صفية من ملامح انزعاج لم تفلح في إخفائها كلية ؛ لتبدو للاّ مليكة ، كما لو أخذت نفساً ، وهي تستأنف بكامل التؤدة حديثها عن سامان . . .

- مالو؟ كامل تبارك الله عليه ، شباب وصحة ، جد ومعقول ، ثابت تبارك الله عليه ، ومرضية الوالدين يكون في طريقها ومن سعدها ، تفرح به ويفرح بها ، إن شاء الله .

تبدو المرأة هذه المرة واضحة القصد أكثر منها مجرد ملمحة ، لتضع صفية يدها على كتفها برفق ، تفتح لها الباب ، كأن لم تع شيئاَ ولم تسمع .

تغلق صفية وراءها الباب متأنية ، لتقف متكئة بكتفيها على مصراع الباب من الداخل ، يبدو شبح سامان متحركاً في نشاطه المعهود ، يلم ويرتب شؤون المطبخ ، قبل انصرافه ؛ تظل لحظة مجمدة الوضع ، مسندة كتفيها إلى الباب المغلق ، ساهمة في لا شيء .

ليلتها الأولى ، ليلة العمر ، كما كان وجدانها يصوّر وعقلها يشيّد ما يشيّد ، يرصّف ويلوّن زاهي ما يلوّن . . . أية ليلة هي؟ تقول أختها زينب فُوزي يا صفية ، فُوزي ، نصيبك لا تفلتيه ، الفرص لا تعوض ؛ تطرق صفية كالمتأملة بهدوء ومخايل رفض ؛ تهزها زينب ، تواجهها محدقة في ملامحها ، الأمر كله مسألة حساب ، انظري أنت الآن مطلوبة ، الزوج على الباب ، من يدري؟ بعد لحظة قد يغير رأيه ووجهته ، البنات والنساء كثير ؛ ومن يدري أيضاً؟ من جهتك انت ، قد تغيرين رأيك بعد لحظة ، وإذا أنت بعد كل هذا التردد والتمنع ، أكثر رغبة فيه ، ويكون من سعدك أنك لم ترفضي وتركت لك فرصة . . . نعم هي حسبة وحساب ، هكذا وإلا ماذا تفعلين لو غيرت رأيك بعد فوات الأوان؟

ليلتها الأولى . . . الوالدة زْحومة في أوج سعادتها المكتومة ، تمسح بعين الرضى والإعجاب ، كيان صفية مغموراً في القشُب ، مغموساً في الأطايب ، متحاشية أن تتلاقى نظراتهما ، كأنما تخشى أن تفاجئ بهجة الزفة الأولى مكتومة متوارية في الأعماق ، لدى ابنتها العروس أيضاً ؛ صفية العروس بدورها كالمتحاشية ، منكسة كأنما تخفي عارم ابتهاجها الداخلي ، فلا تبين عن غير شبه حياد ظاهري أو قبول متعفف ؛ نظراتهما تلك التي طالما تلاقت سابقاً ، ولأكثر من مرة ، متعارضة متبادلة التحديق ، لهباً في لهب ، حيث كانت يدا الوالدة زْحومة إذ ذاك ، تمسكان بكمش الأصابع على كتفي صفية ، تهزانها بقوة ، مع شديد وخز بناري نظرة وحكم قاطع .

t.me/read4lead

– اسمعيني صفية ، اسمعيني هي كلمة واحدة . . . ولد أوناصار هو هو رجلك . . .

ما من خيار تتركه لها ، بغصب القوة أو طيب الخاطر ، كما تريد ؛ كأنما تُركت لها أبواب الاختيار مشرعة على مصاريعها . انتهى الكلام ، كلام الوالدة زْحومة ومن وراءها وأمامها ، كلهم رأي واحد لا ثاني له .

تتركها زْحومة منصرفة لشأنها وحال سبيلها ، انتهى الكلام وطالما انتهى وينتهي على هذا المنوال ،لا مفر من فؤاد أوناصر ، طبعاً لا تضيف زْحومة شيئاً أو تبتكره من ذاتها ، إنما هو صوت الوالد الحسوني يتردد قاطعاً ، لا عن سلطة وتسلط هما أبعد ما يكون عن طبعه الملاين المسالم في كل شيء على الدوام ، وإنما عن روية وعميق اقتناع كما تقول زْحومة بلسانه ، بأنه عين الحق والصواب ؛ ماذا؟ صغرى بنتيه العزيزتين ، يغمرها ظل حظ سعيد ، ليطلبها من لا مطمح في أكثر منه أو حتى قريباً ، سليل آل أونا صر؟ أي مطمع لعروس ولأسرة من مصاهرة بعد ذلك؟ أي خيار لولي أمر؟ لو كان المطلوب تقديم ما يمكن أن يطلب ويُقدّم من جانب الحسوني ، نظير الانتماء لآل أوناصر – ولو أنه خارج التصور – لما كان ليتردد قليلا ولا كثيراً في ذلك ؛ فكيف والحال أن تكون أنت المطلوب ، ماذا؟ مطلوب منك أنت الحسوني وآلِك وابنتك صفية ، أن تصاهر بعزيزتك الصغرى هذه أصلحها الله ، سليل أوناصر ، فؤاد نجل الحاج أوناصر نفسه ، لا تابعه ولا قريبه ، وإنما هو بالذات نجل أوناصر الحيقي الأصيل؟ أيحتاج الأمر إلى أية خرافة من تريث أو تروٍّ ، فأحرى تلعثم أو تردد . . . أو أي خبل من أي نوع؟

ليلتها الأولى . . . النكّافات المزينات ، يطفن بالكيان ، متفقدات يلمسن ويتلمسن ، يشددن من هنا ، ويرخين من هناك ، ينششن

ويهشـشن بلا كلل ، لينات متلطفات ، يهمسن بعذب لفظ ما ينعش ويؤنس ، متباريات متنافسات في حسن ما يفهن به ، من فاكه حكي وغمز طرف وخفي إيماء وخفض صوت ، ما يُبين بين لحظة وأخرى من قبل هاته أو تلك ، عن عبارة غنج فاضحة ، أو إشارة فحش داعرة ، وكأن ذلك ما ينفك يترى منفلتاً من صاحبته انفلاتاً ، منزلقاً عن سبق لسان بلا عظم ، عن عفو خاطر بغير قصد ، لتتلو ذلك في الحين ، علائم استهجان مفتعل وانتهار من إحداهن لصاحبتها على ما تفوه به ، أو يغلبها عنه سائب لسانها . . . ثم لتلتقي النظرات مستطلعة أثر ذلك في النجمة العروس المتلألئة ، ملكة الليلة الأميرية صفية ، ثم أخيراً ما تلبث أن تلكزها هاته أو تلك ، مستنفرة مزاج عروسهن لرائق مزاح ، ملمحات إلى هذا الخفر الأنثوي الجميل ، نور العذرية الأصيل ، عسلها المصفى المصون لصاحبه الحاذق المتروي ، يتمصصه قطرة قطرة ، لحظة لحظة في قمراء ، تشع ببدر تمام ، عروس صفيةٍ ، تشع وتشيع على الكون فيض سحر وبهاء .

- إيوا خلاص علينا من الحيا والحشومية

هكذا تنهي إحداهن استنفارها لهمة خرق ساتر الحياء بينهن ، ملمحة مستملحة ما يُبين عنه مولانا السيد حياء نفعنا الله ببركته ، والسيدة الصالحة للا حشومة ، عندما يديران وراء ظهرهما المفتاح في القفل ، ويخلوان لبعضهما . . .

- والظلام . . .؟

تقاطع إحداهن كالمتسائلة ببراءة مفتعلة ، بينما تعلق رفيقتها بأنهما الليلة سيان ، النهار الجهار والليل الجرار ، كل يعرف طريقه الليلة .

- حتى الأعمى؟

- قولي الأعور . . . ممم

تترادف منهن تلميحات دَعر وفجور ، تتقاطع بينهن ضحكات الغمز واللمز على المضمر والمعلن من معنى .

ليلتها الأولى . . . ليلتك يا صفية ، يا نجمة متلألئة في سماء عرسها ؛ كالموت ، كالميلاد ، ليلة واحدة لا تتكرر ، كالموت كالميلاد ، لا يجود بها الزمان أكثر من مرة في العمر . . . كم تمنيت يا صفية ، كم ادخرت من باهي صور ، من زاهي لون ، ومن لين لفظ وملمح ، للحظة العمر هذه ، ليلتك ؛ ليلتك . . . لكنها لا تأتي بأي مما أردت وتمنيت ، وكأنك لم تعارضي وتصارعي بأقوى ما لديك .

- ولكن وظيفتي ، نعم وظيفتي . . .

بذلك ترفع صفية صوتها المعترض ، في وجه من يسلكون كل السبل لإقناعها بزواج يرون فيه كل شيء ، ولا ترى فيه شيئاً ، ترفع صوت احتجاجها بقوة لا سابقة لها ، بعد أن أغلقت في وجهها أبواب التهرب من زواج يبدو قدراً منزلا ، وتبدو وحدها من تغيب عنها مزاياه ؛ هنا بمعنى حقيقي ، يبدو حتى الأعمى بحق يعرف طريقه ، إلا هي صفية ، لتتحجج أخيراً بوظيفتها ، وقد تهرأت بين يديها كل أسباب التردد ، أمام البناء المرصوص من تآزر حججهم من حولها . . . نعم كلهم بدون استثناء ، حتى المعارف أو الجوار ، ممن يفترض ألا علم لهم ، فضلا عن أن لا صلة لهم بالموضوع ، يبدون هم أيضاً ، لصفية بملامح المؤاخذ المستصغر ، نظراتهم تعني أنها ليست أقل من غشيمة إن لم تكن بلهاء . . .

- ولكن وظيفتي ، نعم وظيفتي . . .

نعم ، وظيفتها الإدارية ، تلك حجتها الأقوى أمام تفاهة ما تبدو عليه كل حججها الأخرى في مواجهة التآزر المحاصر المرصوص ضد إرادتها ، نعم تقول صفية إذ ذاك ، هي الموظفة المدرّسة المتمرنة ، وعلى أبواب أن ترتقي إلى موظفة رسمية ، وتنال حق الانتقال الذي تحلم به مؤدياً إلى مدينة كبرى جامعية ، تتيح لها ما تتيح من دراسة عليا حقوقية كما ترى وتريد ؛ ماذا تفعل بجهد وحظ النجاح في مباراة ولوج سلك التعليم ، مقابل عديد ممن لم يحالفهم كما حالفها الحظ والجهد؟ وهذه الرسالة الرسمية الحكومية إلى الآنسة المحترمة صفية الحسوني ، والتي طالما انتشى الوالد الحسوني بخطابها ، وارتمى جذلا يقبل جبين ابنته صفية ، مزدهياً بحملها اسمه في الأعالي ، لتقرأ على سمعه الرسالة أكثر من مرة ، تخبرها بتعيينها مدرّسة متدربة في مؤسسة بتعليمية بالقرب من مدينتهم الصويرة ، مدرسة ماردي بحد دْرا ، وذلك مؤقتاً كبداية ، كما تعلم صفية وتشرح ، ريثما . . .

حقاً تجد صفية مدخلا لإفحامهم ، إذ ماذا تفعل بذلك كله الآن ، وبكل ما بذلت لتنال وضعيتها الإدارية ، وتتمتع بإحساس راتب شهري مستقل ، يخصها لجهدها وشخصها وذاتها ، لها هي وحدها ، لا لغيرها؟ نعم ماذا تفعل؟ أتعود تنتظر ما يجود به عليها الغير ، حتى لا تقول تستجدي من . . .

يقاطع الحسوني تساؤلاتها الصريحة والمضمرة ، بإيماءة وحركة منه إلى رْحومة

- قولي لها

ينصرف الحسوني بحياد تام ينبئ عن إحساس بثقة واقتناع ؛ من يدري؟ قد يكون منطق صفية قد نال منه ؛ لم لا ، وهو ينصرف في هيئة لا

تنبئ عن تذمر أو غضب ، خلاف عادته كلما كان ينفتح بينهم الموضوع؟

وتدنو منها الوالدة رْحومة بقابلية همة واستبشار ، في هيئة من لها ما تقول . . . ماذا يمكن أن تقول بمواجهة أقوى حجج صفية : الوضع الإداري ، الأجر الشهري المتسمر المستقر والمضمون؟ قولي لها ، تطن عبارة الحسوني بقوة في رأسها ، والوالدة تلمسها برفق ، قولي لها . . . تقول رْحومة بخفة لسان فقد رابطه ووزنه ، يكاد يطير مرحاً وبشراً ، يخبر صفية بأن عصر الأجر الشهري ذاك ، قد ولى وفات ، وذاك الجهد والنصب من أجله قد انتهى ومات ، وسلطة المدير وسطوة المفتش وكل آمر وناهر ؛ كل ذلك فات وانتهى أمره . . . آه والراتب الشهري؟ تتساءل رْحومة من ذاتها ، لتفترّ ملامحها عن ابتسامة عريضة صامتة ، رافعة حاجبيها تعجباً . . . الراتب الشهري؟ تمعن الوالدة في ابتسامها الهادئ ، لتربت على كتفي صفية . . . الله يرضي عليك يا بنتي ، يكون خير ، ما يكون إلا الخير .

تنصرف رْحومة لبعض شأنها في رضى كامل ، تاركة صفية لأسئلة محيرة بلا أفق ولا جواب ؛ ولا يطول الأمر ، بل يأتي الجواب بعد ساعات معدودة ، حوالي المغرب ، يظهر الوالد الحسوني في غير ميعاده ، كأنما أخلف - على غير عادة منه - صلاة المغرب الذي يقول عنه إنه دائن مستعجل ، ضيق النفس ، لا يمهل ، حارّ وحاثّ ، خلاف غيره من مواقيت من الصلاة كالعشاء والظهر ، بينما العصر عصّار ، عصّار الشياطين ، وحتى المؤمنين عن نزواتهم المتواكلة المتخاذلة ، هكذا وهذا هو الأمر .

يخطر الوالد الحسوني إذن متخلفاً عن موعد المغرب ، كأنما يخونه فجأة كل علمه الخاص عن أوقات الصلاة وطول عشرته معها ،

كأشخاص لها أمزجة وطبائع ، ليسير بهمة وقصد ، وجهة غرفته ، غرفة الوالدين ، متأبطاً ما يشبه مظروفاً أو محفظة صغيرة ، تلمحه صفية دون أن يلتفت إليها وهي في ركن الصحن ، منهمكة في دفاترها المدرسية ، تسمعه ينادي الوالدة رْحومة الغارقة في أشغال يومها المعتادة ، لا ترد الوالدة ، لكنها تبدو في طريقها لتلحق به ، وتبدو يد الحسوني ترد دونهما الباب .

تظل صفية برهة ساهمة في صفحة الباب الموصد بمواجهتها ، لتعود إلى انهماكها في دفاترها المدرسية ، تصحح ما تصحح تشطب ما تشطب ، مستغرقة مأخوذة بعوالم ما تخطه أنامل يافعة مرهفة ، لتستشعر بعد لأي ، وكأن هناك من عينه عليها ، كإحساس بشبه ظل على رأسها أو إلى جانبها ؛ تتجمد حركتها لحظة ، تتوقف عن تصفح ما بيديها ، لتلتفت رافعة رأسها باتجاه ما تحس به : الوالدة رْحومة بكامل هدوء ، وبابتسامة عميقة عريضة ، تقف حذو جلسة صفية تتابعها بحنو بالغ ، بينما يمرق شبح الحسوني مسرعاً كمن يخشى فوات موعد هام ، يعبر باتجاه الخروج دون كلمة أو التفاتة ، وتظل رْحومة تتملى سحنة ابنتها المتطلعة إلى ما وراءها .

تجلس رْحومة على مقعد صغير مقابل ابنتها صفية ، في جلستها على السداري ، ثم تمد إحدى يديها بهدوء ، تزيح الكراريس المدرسية جانباً من أمام ابنتها ، ثم تسحب من تحت إبطها محفظة جلدية رقيقة صغيرة ، تضعها أمام صفية ، مكان الكراريس المزاحة ، وهي ترنو إلى ملامح ابنتها بمعالم رضى كامل .

– وجه الخير يا العزيزة بنيتي صفية ، عفا عليك الله من الهم والشقا .

تنبئها بأن سيدي فؤاد ولد الحاج أوناصر يكفيها هم كل شيء، وستكون ربة بيتها، لا تستعطي أو تنتظر من يتفضل عليها بشيء . . . الأجر الشهري؟ ذاك الراتب؟ ما عليها إلا أن تفتح الكيس أمامها، وتعد ما تشاء، رواتب شهور مقدمة، وغير منقطعة كل شهر، بما يفوق راتباً بئيساً لمدرّسة متدربة أو رسمية . . . وأنتِ قاعدة في بيتك، ربة أمرك، سيدة نفسك، لا من يأمر أو يطاع؛ هل من قدْر ومقدار أكثر من هذا؟ انتهى الكلام.

لا يدري أحد كيف ينفلق بلاط الأرض، أو لبنات الجدار عن شبح الأخت زينب، في ابتسامة لا تقل اتساعاً وبهجة عن ملامح زْحومة، أترين أن الأمر جد، وليس مجرد كلام في فراغ؟ هذا زوج كفء وزواج حقيقي، يعز مثيله وما له من نظير . . . آه، تتنهد زينب من حسرتها على حظها هي، وكثيرات مثلها يطفئن عين الشمس عدّاً؛ طبعاً مثل هذا الحظ لا تتمناه زينب إلا لأعز من نفسها عليها، وهي شقيقتها صفية، وما تلبث أن تربت على كتفي صفية، وتمد يدها تفتح الكيس الجلدي الصغير، ليفتر باطنه عن أوراق مالية، رزماً زرقاء، منضدة وحداتها بعناية، بعضها إلى بعض، تفك زينب رباطاتها، تنشرها نشراً، تتملاها بأعين عجب مفتحة على أقصى مداها، لم تر أبداً في حياتها هذه الكمية من أوراق مالية، فأحرى أن تلمسها لمساً أو تمسها، وهي الآن تمررها بين يدها على نحو ما تشاء، تبعثرها لتعيد ترتيبها، بلونها ورسمها وقيمتها . . . هذه تعادل لبسة بلْدية تكشيطة رفيعة، وهذه للبسة عصرية، ثم هذه للحذاء وهذه للزينة، للماكياج، وهذه للتوفير في حساب، وهذه وهذه . . . طبعاً، ضروري ولكل شيء حسابه . . . آه كم تمنت وتتمنى زينب لو تتوافر لها

لوازم الزينة والعطور ، تموت في العطور ، لكن من أين ، لمن ومع من؟ المهم الآن ، هنا كل شيء ، لمن تستحقه العزيزة الغالية صفية . . . حتى ما يعادل ثمن سيارة صغيرة أنيقة ، كل شيء هنا كاف وفوق الكفاية .

تبدأ زينب ترتب وتعد المبالغ ، معادل شهور من راتب إداري بخس بئيس ؛ ماذا لصفية أن ترى بعد الآن؟ ماذا لأي أن يرى بعد ما تأكد كل شيء بالحس والعيان . خير البر عاجله ؛ المهم الآن ، أولا وقبل كل شيء ، فتح حساب بنكي بالمبلغ وما يتلوه كل شهر ، أو الأحسن ، دفتر ادخار . . . ولكم طمحت وتطمح زينب ، أن يكون لها يوماً مدخر مالي في حساب ، كل أمنيتها دفتر حساب باسمها ولها .

تنهد الآن وتهوي إلى الحضيض أو تتبدد هباء تلك الحجة الأقوى : الراتب ، الوضعية الإدارية ؛ أترى صفية الآن ، كيف أنها ترتقي إلى الأعلى الأعز ، بدل إطفاء نور العينين بين سواد الكراريس وبياضها ، وقضاء العمر بين دورات مياه رفقة صبية وروائح تزكم الأنوف ، ماذا لها أن ترى بعد الآن؟ وينفلق المكان عن شبح الوالد الحسوني ، لا لأكثر من أن يطل برأسه مشرفاً شاهداً على ما يجري ، ليعود أدراجه باتجاه غرفته ، بخطوه الواثق المطمئن دون أدنى التفاتة أو كلمة .

- مم . . .

تحرك صفية رأسها بعلامة ارتياح ، وهي تنشق عبق القهوة يعمر الفضاء من حولها ، قبل أن تترك كراريسها جانباً ، تستلم فنجان القهوة من يد سامان متلذذة بالنكهة ، مرتشفة ببالغ تذوق ومتعة ، مبدية علامات إطراء ورضى .

- نيونغ . . .

- ؟

تتساءل صفية عما تسمع ، ليكرر سامان في هيئة اعتزاز بإنجازه ، أنها قهوة أصيلة حقيقية ، ينفي أن تكون من ياوندي ، هناك عندهم قهوة معلبة مخلوطة . . . لا . لا . ينفي سامان أن تكون هذه القهوة من ياوندي ، بل من نيونغ العليا بالكاميرون ، آه . . . يتذكر رحلته الأولى خارج بلده ، قادته للاشتغال هناك ، في ياوندي أولا ولفترة قصيرة ، ثم في نيونغ العليا بعد ذلك ، في مواسم جني القهوة ، آه من رائحة التحميص الشهية تغمر المنطقة كلها ، تذكره بنكهة شي الذرة في بلدته بضواحي أكرا ، لكن لم يطل به الأمر ، إذ يلتقي بطريقه أو حظه . . .

يتوقف سامان بملامح تأثر ؛ طريقه ، حظه؟ ألا ترى الأمر هي أيضاً كذلك بالنسبة إليها ، ألا تستعمل العبارات نفسها . . . طريقها؟ حظها؟ تنظر إليه مستفسرة مستزيدة ، لتعبر خواطره صور مترادفة متسابقة : يذهب به الطريق ، يعود به ، يلتوي أو ينحرف ، قبل أن

يتقسم ويتوزع أو يبدو كذلك ؛ تأخذه فكرة الابتعاد باتجاه الضفاف الأوربية ؛ ديفتا هذا الرجل الكاميروني ، ما يكاد يصادفه حتى يوقد فيه الفكرة ، يشعلها ناراً في رأسه ؛ لم يكن ديفتا صديقاً أو يصبح كذلك ، وإنما يشتغل مع سامان مثله وبجواره ، لكنه يبادره ويستطلعه منذ أسبوعه الأول ، عن رغبته في الذهاب إلى أوربا ، رحلة سرية طبعاً ، لم يكن ديفتا ليبذل معه ولا مع غيره ، جهداً كبيراً لإقناع ، بل تُعتبر الفرصة حظاً سعيداً يوافي ، ولا سيما إذا كان بدء الإجراءات يتم في عين المكان ، ليعلم سامان أن كاووما المشرف على العمال في المزرعة ، هو المسؤول المنظم للحشد والرحلة ، بمقابل مالي يُتفق عليه ، يُدفع مقدماً مقتطعاً من أجرة الشغل ، كما يُدفع ما يُعتبر متبقياً بالتزام وضمان ، بعد تمام الرحلة والاستقرار ، عبر وسطاء وشركاء منبثين في مختلف المحطات ؛ يقضي سامان عدة مواسم في مزارع القهوة والكاكاو بمختلف المراحل ، كما في ضيعات متعددة ، علاوة على نشاطه كوسيط أيضاً ، في جلب وإغراء آخرين بالرحلة لحساب معلمه كاووما دائماً ، رغم وجود غيره من منظمي الرحلات السرية ؛ مما يجعل سامان يتأكد من مكانته الخاصة ، لدى معلمه .

وتمضي الأمور في طريقها المرسوم ، رغم متاعب أسطورية في بعض المحطات ، لا سيما شمال مالي ، والتوغل في الصحراء باتجاه الشمال ، حيث يتطلب الأمر الخلود إلى السكون - لا النوم - والاختباء نهاراً ، والسير ليلا وراء أدلاء محترفين قساة ، لا يعبأون بالواهن والمتعب والضعيف ، لدرجة التخلي عنهم ، وتجريدهم من أموالهم أمام الأنظار ، وتركهم لموت محقق تحت رحمة طبيعة قاسية ؛ تستمر الرحلة على الأقدام في غالب الأحيان ، وعلى جمال أو دواب مختلفة ، موجودة

بغير صدفة في محطات معينة ، كما يصادفون ركوبات ميكانيكية أحياناً وعربات مجرورة ؛ وكله بمقابلات مالية إضافية ، حتى نقطة الاختراق لولوج المغرب ، وقبلها بالذات يتجدد ابتزاز الأدلاء والمتدخلين ، لإفراغ الجيوب ، لتتلو محنة إدراك شمال المغرب بمحطاته ومحترفيه أيضاً ، لدرجة يعم فيها اليأس والقنوط ، ويغدو كل شيء محط شك ، بما فيه التساؤل عن الرحلة برمتها ، إن كانت في طريقها الصحيح ، أم هي لعبة جهنمية تراجعية إلى وراء ، حتى ليكون أمل أكبر ، يملأ النفوس وحده دون غيره طوال المحطات والأهوال المختلفة ، يتلخص في مجرد رؤية البحر ، لا لفكرة تجاوز ضفته ، فذاك مؤجل وبعيد ، وإنما للاطمئنان على أن الأمور في طريقها المرسوم .

- نعم؟

تقطع صفية صمتها المتتبع ، مستزيدة من حديثه ، تحفزه لإتمام ما هو فيه ؛ نعم؟ مسحة اصفرار تأخذ سامان ، تغشى سحنته ، تخالط سمرته ؛ يبدو شديد التأثر فيما يستعيد من صور ؛ تتناول صفية الإبريق ، تصب له قهوة ، تناوله الفنجان . . . هي أيضاً طريقها لم يكن طيعاً ولا قويماً ، كما لا يعرف سامان ، وربما لن يعرف ؛ تهمس صفية وتجهر لنفسها أحياناً ، أن طريقها أيضاً لم يكن قاصداً في اتجاهه ، ولا يبدو أنه يتقوم ؛ ربما طريقهم جميعاً واحد ، رغم الاختلافات ؛ لم يكن مفروشاً بسجاد مبسوط طريقُها ، ولن يكون كذلك مستقبلا ، ولا حتى سالكاً في درجة احتمال بشر ؛ متشابهون هم رغم الاختلافات ومن طينة مغايرة لسعداء الحظ ، طينة نكهتها الألم ، مغايرة للمألوف .

حكايات متشابهة ومتفاوتة إلى حد ما ، لكنها تبقى واحدة موحدة الجوهر ، ربما أنماط في الزمان والمكان وحدها ما يختلف ، فقط لا

غير ، إلا ما يكون أيضاً في كثافة المرارة ودرجة الاحتمال ، سيَر وحكايات يعكس بعضها بعضاً ، صفحات هي مجرد مرايا متقابلة متبادلة ، ماذا يمكن أن تعكس؟

- أهه ، نعم؟

نهاية؟ تسأله عن نهاية ؛ إن كان من سؤال عن نهاية ، فلعلها صنع بدايتها وثمرتها الطبيعية ، إن كانت بداية منعشة مريحة : في نهاية المطاف بعد الأهوال والأحوال ، يتوصل سامان على شاشة هاتفه النقال ، بصورة منزلهم المتواضع بجدرانه اللبنية ، ينْشقُ سامان عبير طينته الفريدة ، بما يحيطه من قش وشجيرات ، تبدو على قرب منه البئر المشتركة في بلدتهم ، يكاد يرى بأم عينيه رولا ، أو أويتا أو غيرهما من فتيات الجوار ، يمتحن بقوة من عمق البئر ، مبينات في حركاتهن عن فائر أنوثة نامية يستأنس ويلتذ بها الفتيان ، باعثة مثيرة فيهم عبارات غزل واستثارة ، ليبادر أخيراً منهم من يساعد ، بدافع تقرُّب أكثر منه تطوعاً ، قبل احتدام المنافسة بينهم .

لا يعرف سامان ولا يهتم بمن هو أو يكون هذا المحسن أو الوسيط الطيب المرسل ، الذي يتفضل بفيض حنو بالغ ، يبعث له الصورة على شاشة هاتفه .

موجة حنين عارمة تعم سامان ، موقظة فيه كل أحاسيس الغربة والحنين إلى البلدة ، تربتها وأهلها ، وكأنه يخطو يلمس ويشتمّ ، يعانق ويقبل تربة وجداراً وأنفاساً ، جذوة سنين بحمل جبال وسيل دمع ، ما بين لوعة حنين وابتهاج ؛ يتملى سامان صورة ما يرى حية ، بكل ما فيها ، كل شيء ناطق متحرك ، كما هو ، على ما تركه عليه من حال ، لم يتغير فيه شيء . . .آه لحظات ابتهاج عارمة ، طافحة بالدمع

والحنين ، ما كان أحوج سامان إليها ، في مستويات أهواله وحالات غربته وأحواله .

– ممم . . .

يتوقف سامان متردداً ، تهمهم صفية مستزيدة ، بملامح لا تخلو من بشر بما تسمع منه ، ليؤكد أنها مجرد بداية ، بداية النهاية التي تجملها عبارة جامعة مختصرة صادمة : مأساة ، مأساة حقيقية ؛ هذا كل شيء .

يتوقف سامان ، تكسوه معالم ذعر ، يحدق بقوة في ملامح صفية ، منزلهم . . . أسرته . . . أُحرق الكل ، المنزل على من فيه ، أُحرق عن قصد وتدبير ؛ يذكر سامان أنه بعد الصورة الأولى على شاشته الصغيرة بلحظات ، بما يتيح تأملها واسترجاع ما يمكن من ذكريات وحنين ، تزف على شاشة هاتفه ، صورة ثانية للمنزل بكامله ومن فيه ، طعماً للنيران ، يضيء لهيبه المتطاول ظلماء الليل ، متعالية من حوله أصوات الجيران والأقارب ، ولولات ونحيب ، وهم في عجز كامل عن فعل أي شيء .

تتجمد ملامح صفية ، ملؤها ذعر وإشفاق ؛ لا مزيد ، الصورة مكتملة في ذهن صفية ، تعرف البقية دون تفاصيل ، سمعت بالكثير من ذلك عن بعد ، مما يلقاه ويتعرض له المهاجرون ، ولم تفكر يوماً أن تجمعها الظروف شخصياً وعن قرب ، بمن يعاني أو عانى مباشرة من بعض ذلك ، أو تكون له مجرد علاقة بالموضوع ؛ عمليات انتقام تلك ، تنفذها عصابات المتاجرين في البشر ، المدبرين للرحلات السرية تجاه الفردوس الشمالي ، حين لا يفي أحد المتعهدين بما يعتبرونه التزاماً بدفع أموال ؛ سامان إذن ، لم يكن إلا واحداً ، ليس الأول ولا الأخير ، الذي يُنتقم منه شر انتقام ، بصور عديدة من اختطاف أهل ، أو ذبح ،

أو سلب ونهب . . . شعـار أولئك المتـاجـرين ، وبدون أدنى رحـمـة أو شـفـقة ، ألا يجرؤ أحد ، بأن يتجاسـر على هيبتـهم وكلمـتـهم العليـا والشروط المجحفة التي يفرضونها ؛ سامان إذن يخرج عن العرف ، يهمل ما يعتبر متبقياً في ذمته من مقابل الرحلة ، باعتبار ما قضى من مواسم الشغل في الكاميرون نظير ذلك ، مضافاً إليه ابتزازات الطريق مع تنوع واختلاف المراحل ؛ ذاك حسابه وطريقه ، ولهم حسابهم وطريقهم .

يحرك سامان رأسه أسفاً ، كأنما يستخلص نفسه من خواطره ، أو ينفض عنه ما يغمره من مرارة أحداث وصور .

تنهال الصور والمشاهد متكاثفة بمستويات شدة وحدة على مشاعر سامان ، لا يدري كيف يصدها أو يتحمل تجرع مراراتها من جديد ، وكأنه يحياها الآن من جديد . . . هكذا يرى سامان أنه يتحرك في الظلام بتحفز واحتياط ، في قعدته على ملاسة الإسفلت المعدني داخل جوف الحاوية ، متقلصاً منكمشاً على نفسه ، منحشراً أقصى ما يستطيع في الركن ، ملتحماً بجدار الصندوق المعدني الذي يحتويه ، وهو يتسمع شبه حركة في الخارج عن قرب من الحاوية المغلقة عليه وحده إذ ذاك ، لينفتح بتؤدة وصرير مكتوم ، مدخل الحاوية ، يعم ضوء خفيف متناهياً من بعض مصابيح بعيدة منتشرة بانتظام في أرجاء الميناء ، في مواقع نائية عن هذا الفضاء القصي ، من مركن حاويات فارغة أو ملأى ، في انتظار دورها في الاستعمال ، ويمرق بسرعة وخفة ، بأدنى حس ، قافزاً إلى داخل الحاوية ، شبح ينغلق دونه الباب من الخارج ، ليعم الظلام والصمت والسكون من جديد .

تتوالى اللحظات بطيئة ثقيلة في جوف الحاوية ، صمت مَوات تام شامل ، لايتخلله إلا تردد أنفاس خافتة متقطعة ، مكتومة النسيج في الصدور ، واجفة ناشفة ، ملؤها الترقب والتوجس .

- مونامي . . .

يلفظها سامان بشبه همس يقطع رتابة اللحظات المتسربة في تثاقل وبطء ، يكرر همسه مراراً دون أية استجابة ، ليعود بدوره إلى الصمت ، مرتخياً في موقعه بعض الشيء ، وتتوالى اللحظات في إيقاعها الرتيب

المعلوم . . . مونامي . . . همس سامان أكثر إلحاحاً هذه المرة ، سرعان ما يتلوه ضوء من مصباح صغير في يده ، يتجول بشعاعه على السطح المعدني المحيط ، قبل أن يستقر على جسم الشبح الآدمي الأسمر ، المتداخل على ذاته في الركن المقابل ، تكسوه ملامح هلع وانزعاج من تساقط الضوء على كيانه . . . نو . . . يهمس الشبح بشبه صياح مكتوم ، مشيراً بيده ، علامة النهي والرفض ، ليطفئ سامان مصباحه الصغير ، ويعم الصمت السكون كما كان .

تتوالى بين فترات متقطعة تطول وتقصر ، لحظات انفتاح مدخل الحاوية من الخارج ، لتقفز داخلها مرة بعد أخرى ، أشباح منفردة أو مترافقة ، ينغلق دونهم باب المدخل من الخارح ، يندرجون بدورهم في نسيج الصمت والأنفاس المترددة المتوجسة ، كأنما قفزاتهم تلك ، إلى جوف الحاوية ، آخر عهدهم بالحركة .

يتابع سامان تردد الأنفاس المتداخلة من حوله ، متتبعاً كما لو كان يحصيها ، يحصيهم ويحصي لحظاتهم بذلك ، محدثاً نفسه بأن غيره منهم ، ربما يفعل الشيء نفسه في الوقت ذاته ، والزمن يمضي جد متثاقل من حولهم ؛ يقدر سامان أن عددهم الآن سبعة أو تسعة ، ربما غير ذلك ، أكثر أو أقل ، وربما ينتظرهم المزيد من أفراد ، وجوف الحاوية ما زال يحتمل ، فيما يحس ويلمس سامان من تباعد أنفاس وتقاربها ، في مواقع جلوس بغير انتظام ؛ طبعاً لا خوف من زيادة العدد ، لا خوف . . . يؤكد ذلك صوت الوسيط والمرشد إلى طريقة الرحلة الآمنة المأمونة ، وسامان يساومه في الثمن المطلوب وسلامة الرحلة . . . لا خوف يؤكد الوسيط المدعو رشيد ، وإن كان الجميع يدرك في هذه الظروف ، أن الأسماء مجرد علامات تتغير باستمرار ، كالقبعات على رؤوس

أصحابها ، حتى الوجوه . . . لا خوف من أي شيء ، الحاوية في الأصل كما يؤكد رشيد ويشرح ، مهيأة لنقل كتاكيت الدجاج ، وبالتالي مجهزة بمسام تهوية طبيعية خاصة ؛ والحظ السعيد وحده ، وفطانة الوسيط رشيد طبعاً ، وتنفذه داخل دواليب الميناء ، جعل بعض الحاويات ومنها هاته ، تعد لرحلة تذهب بها فارغة ، لتعود ملأى بصناديق كتاكيت الدجاج ، تنغل نابضة بالحيوية والنشاط . . . لا خوف من أي شيء ، وكذلك يكون في العلم أن الحاوية عندما تنقل إلى الباخرة منتصف الليل ، لتبدأ الرحلة بحوالي ساعة واحدة بعد ذلك ، ستضاف إلى التهوية الطبيعية عبر المسام الخاصة للحاوية ، تهوية صناعية شاملة من تجهيزات الباخرة . . . لا ، لا خوف من البرد ، يبتسم رشيد وهو يربت على كتف مخاطبه أن لا خوف من البرد ، بفعل التهوية الطبيعية من المسام ، إضافة إلى الاصطناعية التي تشتغل مع حركة الباخرة ، لا خوف ، وإلا لكانت الكتاكيت لتنفق بالبرودة الزائدة مثلما بالحرارة الزائدة ، هذه مخلوقات حساسة جدًا جداً ؛ ولا تنس الرقم المالي المقابل ، ملايير الدولارات . . . لا خوف ، التهوية ممتازة والحرارة مضبوطة بالقيراط ؛ في الحقيقة ، بكامل الصراحة ، لا يوجد مثل هذه التهوية ، حتى في درجة السفر الممتازة للمسافرين عبر الباخرة ؛ طبعاً بالتأكيد ، بكل تأكيد ، ولولا خلو الحاوية من وثير مقعد وفراش ، أو لنقُل لو جهزت بذلك ، لكانت درجة ممتازة لأرقى طبقة مسافرة ، لا خوف أبداً من الناحية الصحية أو أي تعب ، ولا من أي شيء آخر .

- . . . والثمن؟

اسمعْ أولا وقبل الحديث عن الثمن . . . آه . لابد من ذكر الحقيقة ، آه طبعاً لابد . . .

يتوقف رشيد عن الحديث ، تعلو محياه علامات جد بالغ وكدر ، يتطلع سامان بقلق إلى ملامح محدثه ، تساوره هواجس بأن في الأمر سوءاً يتعلق بالرحلة ، يحدق في ملامح صاحبه بهوس استفسار ، يتأنى رشيد كأنما يزن كلماته حرفاً حرفاً ، لكنه يظل متردداً في البوح ، كأنما يجد صعوبة في المصارحة . . . الحقيقة . . . الحقيقة . . . ماذا؟ يتساءل سامان ، وهو يهز كتفي رشيد بكلتا يديه ، متوجساً سوءاً ما ، حول الرحلة . . . ربما هناك تأجيل ، أو رفع في الثمن . . . ماذا . . . وإن كان عن الثمن . . .؟ يتفرس سامان في ملامح الوسيط رشيد ، دون أن يفصح عن هاجسه حول الثمن ؛ فجأة ترتخي ملامح رشيد . . . لا . لا . فقط يجب أن يكون صريحاً ، المسألة تتعلق بدوار البحر ، الرحلة قصيرة جداً ، لا خطر فيها حتى من دوار البحر ، ساعتان ونيف ، أو ربما أقل بكثير إذا كان التيار مواتياً ، وهو مُواتٍ حسب الأرصاد الجوية لهذه الأيام ، لا ، لا شيء تماماً ، وكل شيء حسب الخطة وبرنامج الرحلة .

يتنفس سامان الصعداء . . . دوار البحر؟ فتلكن عواصف البحر إذا شئت لا مجرد دوار ، المهم أن الباخرة العتيدة لا يهزها ريح ، والرحلة مؤكدة زمناً ومسافة ، هذا هو المهم ، حتى الثمن لا يهم ، ويحدثني عن دوار البحر؟ عن غثيان وقيئ محتمل ؛ يريد أن يقول إن على راكب رحلته ، أن يتجهز للدوخة والغثيان إذا ما داهم . . . ألا تقول بالأولى ، إن على راكب الرحلة قبل كل شيء ، أن يفرغ بطنه ومثانته؟

مفهوم . . . مفهوم . . . ولنقلْ إن عليه أن يلعق قيئه يجتره ويكرره تكريراً ، ولتقلْ ما تشاء عن مسؤولية راكب الرحلة ، عما يفرز ويخرج . . . قل ما تشاء قل . . . دوار قال لك؟ يا أخي دع عنك . . . يا سيدي قل عن الرحلة متى ، والثمن؟

يربت الوسيط رشيد على كتف سامان ، يطمئنه بأريحية تامة ؛ الرحلة مضمونة ، لا خوف من أي شيء ، ولا حتى من دوار البحر أيضاً ، هي مزحة ، اعتبرْها مزحة ، واعتبرْ أنها فرصة سانحة وحظ سعيد لا يتكرر ، وهي خالية من أي تعب أو تعقيدات ، وهذا كله بالمقابل ؛ طبعاً ، طريقة سفر مثل هذه ، مضمونة سريعة وآمنة تستحق ما تستحق ، بيد أن الوسيط رشيد مع ذلك لا يبالغ ، بل بالعكس هو الميسر والمتساهل ، ولا يأخذ على ذلك شيئاً يذكر لصالحه ، بل أحياناً وفي حالات وظروف إنسانية كثيرة ، يضيف من جيبه وماله الخاص ، نظير ما يسهل رحلة الإخوة ، بحثاً عن حياة أفضل ؛ فقط هي المساعدة وفعل الخير ، أهم من كل أموال الدنيا وكنوزها ، وكذلك معرفة الناس ودعاء الخير منهم ، هذا أهم جزاء وأعظم مكافأة للوسيط رشيد ، وهو فعلا دلال خير ، لا أقل ولا أكثر ، بحيث لا يتبقى له شيء من الثمن المعلوم ، بعد أن يوفي لكل حقه من المتدخلين الميسرين للرحلة ؛ لذلك فهذه رحلة حظ والسلام ، ولا ننسى ، يجب ألا ينسى المرتحل بأمان داخل الحاوية الآمنة المأمونة ، ما يتضمنه الثمن المؤدى هنا والآن ، من أنه بمجرد رسو الباخرة على الضفة الأخرى ، بعد رحلة ساعتين ونصف تقريباً ، تُنقل هذه الحاوية مسحوبة على الأرض بحامل جرار ، إلى موقع معلوم في الميناء الآخر ، لينفتح مدخلها عن دليل مرشد لا يتقاضى شيئاً ، لأنه متضمن في ثمن الرحلة المقدم بكامله هنا قبل الرحلة ، وهذا المرشد هو الذي يسير بالمرتحل أو المرتحلين ، إلى مسرب آمن للخروج من الميناء هناك ، صوب سيارات وحافلات النقل العادية ، كل شيء مرسوم مضبوط ؛ وهنا نهاية الخط ، كل يأخذ وجهته كما يريد ، وعلى حسابه طبعاً . . . هذا كل شيء ، لا خوف من أي شيء ،

ورافقتكم السلامة . . .ههها ، دوار البحر؟ تلك مزحة ، مزحة للتفكه ، اضحك ، مالك يا أخي؟ اضحك . . .

أكثر من ساعتين تمضيان الآن ، كما يقدر سامان على مكوثه بالحاوية ، وهو أول من يصل في الموعد المحدد ، مقدراً أيضاً أنها رحلة قد تكون بالصدفة فردية ، مهيأة له خصيصاً بالصدفة والحظ في ركن حاوية ، أو مكمن ما بجنبات الباخرة ، مع ضمان متدخل عند مرفأ الوصول ، يساعد على مغادرة الميناء الآخر بأمان ، كما يؤكد الوسيط في جميع الأحوال ؛ بيد أن فطانة الوسيط رشيد وحبه للمساعدة وإسداء المعروف ، يكتشف ويكشف في آخر لحظة لسامان وهو على عتبة الميناء عبر مسرب سري ، أن حظه السعيد ساق له طريقة أخرى للرحلة ، وليدة الصدفة ، ولم تكن متوقعة أبداً ، سريعة وأكثر أماناً ، مباشرة الآن دون انتظار ، فرصة لا تتكرر ، وهي وإن كانت تتطلب ثمناً أكثر ، إلا أن رشيد لا يقف في وجه ما يسوقه الحظ لأهله ، ولو كلفه ذلك ما يكلف من زيادة مستحقات المتدخلين في الرحلة ؛ لا يهم ولا خوف . . . الرحلة الآن .

يجد سامان نفسه كأول من يلج الحاوية ، ليتوالى بعد ذلك أفراد ، هم الآن سبعة أو تسعة أو . . . لينفتح مدخل الحاوية ، تتسلل عبره عتمة ضوئية خفيفة متناهية من مصابيح بعيدة ، لينط متبشتاً بحافات المدخل ، إلى جوف الحاوية ، شبح آدمي بنفَس امرأة ، يتلوه مثيله ؛ وقبل أن يرتد المدخل مغلقاً على من فيه ، يسمع صوت يخاطبهم معلناً انتهاء الشحن واكتمال عدد المرتحلين ، متمنياً لهم رحلة سعيدة . . . سايبي . . . فينيش . . . طريق السلامة . . .

يسود الصمت والترقب ، لم يبق إذن إلا أن تبدأ رحلة السلامة إلى

الجنة الموعودة على الضفة الشمالية ، هي جنة بحق ، لمن جرب أن يكون غير صالح لشيء في بلده ، غير منتج لشيء ، عدا مزيد اللاجدوى واللاإنتاج ؛ نهارك كليلك في بلدك ، وماضيك كمستقبلك ، خال مما يفيد أو مما يشغل اليد ، أو البال على أقل تقدير ، أبداً لا شيء من ذلك في بلدك ؛ وعندما تدعوك احتياجات حيوية ضرورية ، فكل شيء مباح ، بقدر سعدك وساعدك ، لإسكات الحاجات تلك ، حتى إن منها الاقتران وأنت على هذه الحال من بؤس ، ببنت القبيلة أو الحي رفيقة الدرب ، لتكونا معاً وحدة إنتاج بشرية ، لا تصلح بدورها لشيء ولا تنتج أي شيء عدا الكتاكيت البشرية ، علاوة على أنكَ وبنت الحلال قرينتك ، كلاكما وإنتاجكما البشري ، مضاف أصلا إلى وحدات الأسرة الطويلة العريضة ، بمختلف أجيال متعايشة ، لا يفرق بينها أو ينتقص من وفرتها ، إلا هادم الملذات ومفرق الجماعات .

مشاعر تغيير حال بحال ، هادرة في صمت مطبق ، تعمر كل خاطر في جوف الحاوية ، وإحساس قوي بأنها ساعات معدودة محدودة فاصلة في هذا الشأن ، ليتراقص فجأة شعاع حاد متجول على السطوح المعدنية لداخل الحاوية ، سرعان ما تتلوه أشعة مماثلة منبعثة من مواقع متقاربة ، تتقاطع متساقطة أضواؤها على السحنات المتطلعة ، أشعلوا جميعاً مصابيحهم الصغيرة المسموح بها في الرحلة ، دون أي من أجهزة الاتصال بالطبع ، بلا أمتعة عدا ما لا يكاد يتسع لشيء سوى كسرة خبر وقنينة ماء ، من قبيل محفظة صغيرة أو كُرْز يعلق بالكتف أو العنق ، تتقاطع الأضواء في مساقطها على كوم الأجسام والأمتعة والوجوه ، تمسح كلا في موقعه ووضعه ، تسعة هم أو سبعة ، ربما بزيادة أو نقصان فرد أو فردين ؛ لا يهم ، فالصمت ضارب محكم ، وإن كانت

مساقط الأضواء من بعضهم على بعض ، تنسج ما يشبه الحديث الصامت ، لتنطلق معها بعد برهة أصوات هامسة متتالية . . . ماونادو من واغادوغو ، بوركينا . . . . سامان من أكرا ، غانا . . . ممادو صو من موندو ، تشاد . . . محماد من تزنيت ، المغرب . . . وانتو من باماكو ، مالي . . . هوري من كانكان ، غينيا . . . لتتوقف الحركة فترة يتلوها صوتان نسويان : أوا من داكار ، السنغال . . . بوتو نغورا من إكو ، نيجريا . . .

رسائل تعارف برقية عفوية ، أعلام أشخاص ومدن ، حمالة حكايا وقصص مكتومة متشابهة ، مكتوبة على سحنات موشومة بالتعب والقلق ، حبلى بالترقب والأمل ؛ ساعات محدودة معدودة ، وتنتهي أقصر رحلة إلى الضفة الأخرى ، التي تطؤها القدم فعلا لأول مرة ، تلمس تربتها وتتحسس أنفاس ناسها ، إشارات وعبارات عن قرب احتكاك بهم حيث هم وكما هم ، لا كما تتطلع إليها من بعيد أو قريب ، ضفة مجللة بالغمام ، أو متجلية في هدأة صفاء نهاري ، وأنت على هضبة أو مرتفع قرب طنجة أو مشارف الميناء المتوسطي ، إذ ذاك تكون النظرة منك مولدة أحاسيس تطلع واشتياق على بعد يبدو لا نهائياً ، ولا تنس نظرتك الأولى المتطلعة إلى هذه الضفة ، بمجرد خطوك الأول على أديم أقرب بلد إفريقي إلى الضفة الشمالية ، إذ ذاك يبدو لك لأول وهلة ، كأن الحلم البعيد الأبعد ، قريب أقرب إلى التحقيق ، أو هو ممكن على الأقل ، ولكم يبدو لك العالم صغيراً فعلا ، وأناس هنا سعداء فعلا ، يجب أن يكونوا سعداء ، أو أقرب إلى ذلك ، لمجرد أنهم بطبيعة وجودهم هكذا عفواً ودون أي جهد منهم ، على هذا القرب من جنات عدن على الضفة الشمالية الموعودة ، هنا قبالتهم على مدى

الرؤية بالعين المجردة ؛ عجباً أي عجب ، كيف يصطبر هؤلاء هنا ، ولا يلقون بأنفسهم كلهم دفعة واحدة في البحيرة الفاصلة ، حتى ليعبر بعضهم على أجساد بعض ، وصولا ووصلا ممتداً لأجسادهم بالضفة الشمالية الموعودة ، إلا أن تكون جنتهم هنا مماثلة ، عجباً عجباً . . .أي عجب . . .

الآن ، شيء آخر ، حال آخر ، ووراء الظهر تبقى تلك التطلعات كصور من الماضي القريب ، وهي إنما تحل في النفوس لإشعار بالحال ، حال غير الحال ، هنا الآن في أمان جوف حاوية آمنة مأمونة ، لتحط بك على أديم ضفة الشوق تلك ؛ حقاً وصدقاً لولا ما يتبقى في النفس ، ليتمنى المرء أن يوافيه الأجل ، تلك اللحظة الواصلة بين قدميه وسطح الضفة الموعودة ، على الأقل أو الأكثر ، ذاك حدث وحال استثنائي عندما يزف ، يستحق أن يسجل بكيفية ما ، ولو بموافاة الأجل ؛ هذه في الواقع ليست أمنية حقيقية ، إنما خاطرة طائرة تطفو ، لشعور ما بين تربة وتربة ، تربة تلفظك وهذه تحفظك ، وفي الواقع أيضاً أن ما يُحكى عن سجونهم في هذه الضفة الموعودة ، شيء لا يصدق ، إلا أنهم لا يكذبون ؛ وماذا يمكن أن تتصور أحسن ، من أنك تكون سجيناً بفراش وغطاء وحمام وأكل ، مع ما تشاء من عناية طبيب ودواء؟ أليست جنة ، وهي هنا الآن ، على بعد خطوات ، لحظات؟

خواطر متقاطعة كأشعة مصابيحهم اليدوية ، التي أطفئت بعدما تشبعوا بسحنات بعضهم بعضاً ، وما ترووْا به من بعضهم البعض ، مما وراء الملامح من تعابير ورسوم ، في بلاغة صمتها المبين ؛ يعمهم إحساس بحركة تشعر باهتزاز الحاوية ، تشي بحمل أو نقل متأنٍ لا يكاد يحس ، أثيري على متن هواء ، يحط ببالغ أناة حيث يراد له ، على

سعة سطح أو انفتاح بطن باخرة حاضنة حضن أم رؤوم ؛ لا خوف من شيء ، كل شيء بأمان في أمان ، وبكامل هدوء ، لا تكاد تستشعر معه حساً ، حتى ولا هدير موج أو محرك ، كل شيء هنا ، أُصْمتَ عنك بأكثر من واق وعازل ، حتى دوار البحر ، ذاك الذي من شأن مبحر مبتدئ ، لم يألف في حياته ، غير برية أرض صلدة لافظة تحت قدميه ، أن يضرب له ألف حساب ، يبدو لا شأن له برحلة الأمان هذه ، مع أنس سحنات متشابهة ، منحوتة بوسم القهر والفقر .

تتوالى اللحظات الآن في إحساس بالغ بسرعة انسياب ، كل لحظة تطلع واشتياق ، تسلمك إلى مثيلة لها ، لا تقل عنها امتلاء وسلاسة ، متدانية تكاد ترتسم لك في الظلام على الجدران المعدنية للغرفة الحاوية ، أنواراً باهرة تستقبلك فرحاً بك ، كما أنت فرح بلقياها ، ووجوه نيرة مستبشرة ، لا تكن لك انتقاصاً ولا غلا ، وإنما أنت وسعدك وساعدك ، والكل سواء في الكد والرزق ؛ تتوالى اللحظات وهي الآن في نهايتها المرجوة أو تكاد ، حتى ليبدو وكأن الزمان يقترب من مبتغاه ، ليتوقف شيئاً فشيئاً ، ببالغ تأن وتدريج . . . طبعاً هي البواخر في نقط رسوها ، لا تؤرجح أو تتأرجح بكابح ، وإنما هي على رفق وسادة اليم ، تنساب عليها حركة السير ، كسكون الإرساء ، في هوادة كاملة وطوع شامل ؛ فعلا يبدو أن السكون يتعاظم ، والزمن يبدو في أتم توقف وارتياح ، وهم هنا بتمام أمن جوف الحاوية ، يمتلئون شعوراً بنقطة الوصول إلى ضفتهم الموعودة ، الساعات المقدرة للرحلة اكتملت وتجاوزت بعض الشيء ، إنما الأمور تتطلب ترتيبات بلا أدنى شك ، ولا خوف من شيء كما يؤكد ذلك الوسيط رشيد ، وكل يتأهب منذ اللحظة ، للسير في اتجاهه وحسب قصده ، وكل هنا ، ينتظر لحظة فارقة ، عندما ينفتح

مدخل الحاوية عن انبلاج أفق زاهٍ حاضن محتضن ؛ اللحظة تلك ، ما أقربها وأبهاها ، أُمُّ اللحظات منذ اليوم ، أم التاريخ والكون برمته ، كل شيء إليها ينتهي ومنها يبدأ ، اللحظة تلك . . . ويبدو فعلا أن حركة خارج الحاوية عن قرب ، احتكاك محسوس بمعدن الجدران الخارجية للحاوية ، إنها اللحظة بلا أدنى شك ، والتوجس يعمر جوف الحاوية ، ضيق أنفاس وصم جدران ومسام ، فعلا يتحرك مصراع المدخل بكامل بطء وتؤدة ، بما يبدو معه أن يداً أمينة وقلباً وفياً ، يديران مزلاجه الخارجي ، للإفراج عن ميلاد لحظة هي أم التاريخ ، نقطة بدئه منذ اليوم . . . فعلا . . . فعلا . . . يبدو أن المزلاج أزيح عن عروة إغلاقه ، وحتى المصراع أعرب عن انفراج ملتقيات مسداته ، في انتظار أن ينفتح كل شيء على زهو الأفق الجديد برحابته وترحابه ؛ فعلا يتفاعل التوجس ممالئاً هنيهات الانتظار ، انتظار ، انتظار ، يطول بعض الشيء انتظار ، فعلا يطول ويبدأ يتمدد كما يتمدد طي الجوانح ركام قلق و . . .؟ طبيعي جداً أن تتفاعل في الدواخل أمواج التطلع ، في ثنايا انتظار يطول يكاد يثقل ، لا بأس من تحمل ، وماذا بقي بعد كل ما أصبح وراء الظهر من وقائع ، هي اللحظة الأخيرة ، الآن ، بعد قليل ، بعد ، بعد . . . تطاول زمني ، تتطاول معه في ظلام جوف الحاوية ، يد بلا متن ولا جسد ، لا لأحد البتة ، لكنها بتوجه الكل ، يد تدفع بكامل تردد ، وفي تمام شعور بمغامرة غير محسوبة أو . . . تدفع بتلكؤ متباطئ مصراع المدخل ، قيراطاً تدفع ، لتتوقف متجمدة معها الأنفاس ، لحظة تمضي ومثيلاتها حبلى تردد ، دون أي شيء ، لتعود اليد ، تلك التي هي للكل وليست من أحد ، تدفع مزيد قيراط ينفرج منه شق إضاءة ، يتلو ذلك انتظار ولا شيء ، لتدفع من جديد بالقيراط تلو

القيراط . . . لا شيء ، وإنما ينفرج الكون عن رحابة ، ويعم باهت ضوء جوف الحاوية ، تتجاوب في الدواخل آهات الصعداء ، وانفتاح الصدور على مداها لامتصاص أنفاس جديدة من ضفة موعودة جديدة ، أخيراً ، نعم . . . إنما لا شيء غير الهدوء ، لا حركة ولا حس ، طبعاً هي الأمور في حاجة إلى ترتيب ، لبعض الوقت ، وماذا في ذاك كله ، وقد تحقق الوصول الآمن المأمول؟ لم لا بعض انتظار آخر وآخر ، قد لا يخلو من فائدة ، ليتيح على الأقل فرصة استرداد الأنفاس والتشبع بأنسام الضفة ، قبل أن يجرف ما لا يدري أحد من مشاغل؟ نعم ولكن لا أحد هنا ، ينأم أو يشي بحياة .

يتطلع عنق بكل الأعناق لا ينتمي لأحد ، يتطلع ذات اليمين وذات الشمال ، متمدداً إلى أقصى مداه ، على حدود ما تتيحه الرؤية في شبه ضوء وعتمة ، من هدي مصابيح تبدو متنائية في اتجاهات مختلفة ، لا شيء ولا بأس في ذلك ، لا خوف من أي شيء ؛ ولتذهب ما تشاء الظنون الخبيثة : هب أن مرشدهم المساعد هنا ، دليلهم للخروج من الميناء ، يتأخر لا لسبب من الأسباب ، ولا حتى أنه آت آت آت ؛ فماذا يمكن أن يقع؟ أسوأ ما يحصل أن يتبينوا أين هم ، ويعملوا على التسرب إلى الخارج بكيفية أو أخرى ، وحتى لو لم ينجحوا كلهم في ذلك ، فبعضهم سوف يواتيه الحظ ، إن لم يواتهم جميعاً ، وحتى لو كان نصيب بعض منهم السجن ، فالسجن هنا بطعم يغري بالتذوق . . . وفوق هذا وذاك ، هذه كلها صور وأفكار شيطانية لا داعي لها ، والعياذ بالله منها ، ولا خوف من شيء ، سيأتي المساعد الدليل في الوقت المناسب وكفى هذراً وخسة عقول .

صحيح هذا هو الرأي الصحيح ، الصبر بعض الصبر ، بعض

التحمل والانتظار القليل . . . صحيح ، ولكن قدمين تتقدمان إلى خارج الحاوية ، قدمان لا يدري أحد لمن هما منهم ، ولا الكيان الواقف عليهما لمن وممن هو ، وإن كانت القدمان والواقف عليهما منهم لهم جميعاً ؛ الكائن منهم هذا ، من حظه السعيد ، أنه يطأ أرض الضفة ، أول من يطأها منهم لهم جميعاً ، فعلا ينحني على الأرض يلمسها بكفيه ، ربما يقبلها ، يقبلها فعلا بقلبه إن لم لم يكن بشفتيه . . . نعم يلمس الأرض ويقوم على قدميه ، يضغط بهما في موقعه ، كأنه يتأكد من أنها الأرض فعلا ، وليست ماء ولا سماء ، فما الماء وسماء ارتحلوا ، وإنما لأرض حاضنة محتضنة لا تلفظك ، و لا تغوص بك أو تنخفس تحت قدميك ، هذه هي الأرض المنشودة ، لدرجة يبدو معها شبح الواقف عليها ، في هيئة الواثق المطمئن ، ترتسم على ملامحه غير المرئية لأحد في هذا الموقف ، علائم السعد والبشرى . . . نعم ، لتقفز قدمان أخريان ، ثم أقدام متتالية تحمل كيانات أصبحت في حركة رقص ، تفحص بها حقيقة الأرض ، وتسري بها الدماء في أوصالها المتصلبة ، من أوضاع دهر تجمُدي في جوف الحاوية . . . نعم نعم وأين نحن؟ نعم؟ لا لا شيء . أين إذن؟ لا . كيف؟

تتحرك كيانات في مواقعها حول نفسها ، حول الأشياء من حولها . . . أشياء كالمألوف تبدو ؛ يبدأ التثبت ، تلك المصابيح هناك وذاك المنطفئ منها ، وتلك الرافعة البعيدة ، ولم لا لولا الظلام لتبينت صومعة مألوفة هناك؟ إذن . . . هنا كنا ، في المغرب ، موضعنا الأول هو هذا . . . ميرد . . .كنا هنا بقينا هنا . . . تفو . . . صالوبار . . . فولور . . . سرقونا ، ضحكوا علينا . . . فلوسنا . . . ميرد . . . كلاب . . . . لا رحلة ولا يحزنون . . .

يتفرقون، يتجمعون، يدورون . . . بعضهم يرفس، يتوعد، يلعن؛ منهم من يرتمي كيفما اتفق متقلباً على الأرض؛ ومن يسدد الضربات في غيظ إلى معدن الحاوية الرابضة بأمن وأمان حيث هي، ومن يغرق في نحيب هستيري، ومن يبلع خيبته في صمت عميق .

منبطح سامان على بطنه، وجهه وكفاه على الأرض، كأنما يبث بلواه الثرى أو يحتضن؛ وكما لو أشرق الصباح على نائم، يغير سامان من وضع منبطحه ليولي ظهره الأرض، يتأمل بناظر الشرود، نجوماً باهتة في سمائها خلف ساتر من ضباب وغيوم، يتقلب على جنبيه يميناً وشمالا، مصابيح أعالي طنجة، تبدو هالات نقط ضوئية صغيرة، يجللها الغموض، أنوار الميناء على رؤوس أعمدتها، تبعث فضالات ضوء، تُبين عن بعض هياكل الأشياء من حولها، دون تفاصيل؛ يدير سامان رأسه متبيناً ما حوله؛ لا شيء . انفرط جمعهم، تفرقوا بلا وجهة في كل اتجاه، منطوين مطويين على خيباتهم، يضلعون منحنين أو ينطون مثقلين؛ مع كل خطوة منهم، فجوة دهرية، ما بين رجاء معقود وأمل مفقود .

يستجمع سامان خائر عزيمة ليقف، يعمل على أن يحرك قدميه، يخطو بلا وجهة، لتتعثر قدمه المتثاقلة في خطوها، تتحسس عائقاً في طريقها، يعيد سامان نظرته إلى الأرض تحت قدميه، يحدق بعينين معتمتين، إلى ما يعترض، لينحني على هيكل مكوم، كيان بشري، يقلبه ليواجه ملامح امرأة لن تكون إلا منهم ضمن زمرتهم، لعله يستطيع أن يذكر تقاسيم سحنتها من تقاطع انعكاسات المصابيح الصغيرة على وجوههم في جوف الحاوية، لا يستطيع التأكيد، لكنها لن تكون غير واحدة من الاثنتين باسمين وبلدين .

يجثو سامان على ركبتيه ، يقلب الجسد الأنثوي المرتخي ، يتحسس جنب المرأة والمعصم ، يسند كيانها إلى صدره ، يربت على خديها ، يستثير حركتها ، تستجيب ببضع نأمات تُشعر بالحياة ، ينزع سامان جاكته ، يلملمه جاعلا منه وسادة تحت رأس المرأة ، ليقوم باتجاه مدخل الحاوية ، يعود بقنينة بها بقية ماء ، يرفع رأس المرأة يسندها إليه ، يساعدها لتشرب . . . هه . . . تستجيب المرأة بتنهيدة عميقة .

- سامان ، أكرا

يلفظها سامان مشيراً لذاته ، مبيناً اسمه مؤكداً أنه من مدينة أكرا . . . غانا . . . سامان أكرا

بدورها تلفظ اسمها وبلدها بصوت واهن متعب :

- بوتو نغورا ، من إكو ، نيجريا

آه . بوتو يتذكر اسمها الآن ، كما لفظته مع تقاطع مساقط الأضواء في الحاوية ، غنة صوتها الآن ، مختلفة عن رنته ببعض حيوية إذ ذاك . . . بوتو نعم . جميل ، لا بأس ؛ يعمل سامان على تعديل وضع المرأة ، يرفع رأسها قليلا على ركبته ، تتمتم المرأة ببالغ وهن ، شاكرة بإيماءة وعبارة ميرْسي ؛ يربت سامان على وجنتيها ، يمرر كفه على جبهتها ، يمسدها برفق ، تلوح عليها بسمة امتنان مكررة عبارة الشكر ، بصوت خافت ؛ يبتسم لها سامان مشجعاً ، يناولها من جديد قنينة الماء الصغيرة ، تشرب قليلا مكررة عبارات الشكر ، يعاودها بعض انتعاش ، تحرك يدها باتجاه صدرها متلمسة متحسسة ، بحركة أصابع متعثرة وأكثر إلحاحاً في تلمسها ، يضيء سامان مصباحه الصغير ، يأخذ بأصابع بوتو المتلمسة المتعثرة ، لتمسك بخيط رقيق حول رقبتها ، تتتبعه أصابعها برفق ، لتعثر على واسطته المغيبة جانبياً حذو الأذن ، بفعل توسدة

الرأس ، تمسك واسطة الخيط بأطراف أناملها ، حيث شبه ناب عاجي معقوف ، يخترقه الخيط العاطل إلا من واسطته الوحيدة هذه ، عبر ثقب في طرفه ، تبدو على المرأة معالم ثقة وطمأنينة ، تلثم الواسطة العاجية مراراً ، تمررها برفق على صدرها بآهة ارتياح دفينة ، كأنما تجرعت بلسماً ، أو أدت واجباً مقدساً ؛ يتابع سامان حركاتها الطقوسية المنتظمة ، يرنو إلى تمسك كفها بالناب العاجي المعقوف ، كما لو كانت معلقة في حالق متمسكة بحبل نجاة أو في غياهب بئر ؛ تعويذة أو رقية لها مفعول سحر بما تثيره من فوح ذكر أو عبق روح ، هو بدوره سامان كان له شيء من ذلك ، تميمة من إمام الشعبانية ، زودوه بها ولم يحسن الحفاظ عليها .

تحرك المرأة رأسها فيما حولها ببطء ، تبدو في حالة تأهب للنهوض ، تعمل على أن تستجمع قواها ، يساعدها سامان على الوقوف ، لتنتصب معتمدة عليه ، وجُمع يدها على واسطة الخيط حول رقبتها ؛ يظلان في موقفهما برهة ، لتتحرك بوتو بمهل مطأطئة الرأس ، تتبين موقع قدميها ، كأنما تتأكد من ثباتهما على الأرض ، أو من قدرتها على الخطو ؛ يتحرك معها سامان بجانبها ، حاضناً كتفيها بذراعه ، يسيران معاً متساندين ، في شبه عتمة وضوء ، مما تشيعه رؤوس الأعمدة من مصابيح متنائية ، تجللها هالة غيم وضباب ؛ خطوات متئدة في شبه قيد ، ما تفتأ تسترد من طلاقتها شيئا فشيئاً ، بقدر ما تتقدم باتجاه أنوار المدينة ، في إطلالتها على الميناء .

أحبك ، أين منها سحر الكلمة ، تنشقها بفوح الورد والمسك والياسمين؟ أحبك : أين منها وردية حروف الكلمة ، تتملاها ندية متلألئة بأحاسيس وجد ووجدان ، ترسمها فراشات ، عرائس نحل ، عنادل تغريد على ظليل أفنان ، تلفها أنس وحدة ، دفء فراش ، تلمها تلفها تلتف بها ، تتغذى وتغذي بها توق ليلتها المعهودة المنشودة . . . أين منها كل ذلك؟ تنبهر صفية ، لهيئة فؤاد وهو ينحاز بها جانباً تجاه أصدقائه ، في ركن الصالة الكبرى التي شهدت عقد قرانهما ، خطبة ورواحاً في آن ، يده في يدها : هاهي!

تنبهر لعبارته وهيئته الاستعراضية وهو يتقدم بها تجاه أقرانه ، كأنما يعرض فوزاً كاسحاً على خصم غريم ، لا بأس إن كان فخوراً بها : ها هي! لكن اللهجة تستدعي في ذهنها عرض بضاعة : هاهي ؛ تنبهر كأن الأمر يعني رهاناً ، فوزاً في رهان . . . هاهي . . . هاهي . . . لتصدر عن لمة أصدقائه إيماءات الرضى والتسليم ، كأنما يسجلون له الفوز بالرهان ؛ تنبهر ، تنصدم حقاً ، حين يؤكد فؤاد ذلك ، منتشياً بفعل مشروبه وفوزه في الرهان بها ، عليها .

حقاً يقول ، حضوره بثانوية الماردي نيابة عن والده الحاج أوناصر ، حفل نهاية السنة الدراسية ، يجعله ينتبه إلى أداء مدرّسة متمرنة ، معتزة بتقديم مسرحية مدرسية ، من إنجاز مشترك لها مع التلميذات والتلاميذ ، حيث تقوم هذه المدرّسة صفية ، بتشخيص دور الفتاة الراشدة المتعقلة ، والطموحة لتحقيق الأحلام وكسر ما يكبل من

تقاليد ؛ معتزة كانت تبدو ، وفخورة متماهية مع الدور والأداء ، مثيرة من حولها الإعجاب ، بمستوى تشخيص وتقمص من جانبها كان في غاية التميز ، ينبئ عن إيمانها بمحتواه ومراميه ، لدرجة تجعل شلة فؤاد ورفقته ، تنخرط في تعاليق ونقاشات ، إن كانت مثل هاته النماذج وبمثل هذه الأفكار والحماسة ، تؤسس لزواج ناجح؟ تصلح للزواج؟ من يتزوجها؟ قل هل ترضى هي برجل زوج؟ لم لا ، كلهن إناث؟ كثيرات من هذا النوع ، لا يعبأن إلا بما يحملن في الأدمغة من قضايا ، أما الزواج ، المسؤولية اليومية ، الأسرة والأطفال و . . . و . . . فلا جواب . ولا تسأل . . . كأنهن فوق الطبيعة أو قل هن من طبيعة اخرى .

حسناً إذن ، يرفضن الزواج؟ هذه مثلا ، معلمتهن زعيمتهن الراشدة المدافعة . . . ترفض الزواج؟ طبعاً وأكثر! لا . أبداً . بالعكس ، كله تمثيل ، كلام أفلام ودروس ومدارس ؛ أول إشارة ، أي طلب ، وتنصاع لتدخل الحظيرة! صحيح؟ أبداً . نعم . حسناً ، نجرب إذن . من يراهن؟ لم لا؟

أحبك ، تلك الكلمة الحالمة المسكرة المتوارية ، أين هي من صفية الرهان؟ الأمر رهان إذن ، مجرد رهان في حلبة ، وهاهي ! يزدهي فؤاد بفوزه ونشوة سكره ، وهو يهذي تجاهها بعفوية كاملة ، إنه أخسأهم جميعاً ، حالفه حظه وهو الرابح ، وهاهي!

أترين؟ انظري . . . تتملى زينب ، تتأنى ، تقلب بين يديها وتعيد نموذج بطاقة الدعوة المزهوة بالألوان ، براقة الأحرف منمنمة الحواشي ، ذبجتها أنامل حذق ورِقّة ذائقة ، تنم عن ولَه العريس بعروسه ؛ تتأنى ، تتملى زينب متلمظة ، كأنما تتمصص رحيق الحروف ، نسغ الكلمات بين شفتيها ، تستسيغه رحيقاً في حلقها .

– شوفي صفية ، سرّحي عينك ، فتحي مخك . . .

تقول زينب ، وهي تواجه صفية إذ ذاك ، بالبطاقة مؤكدة أنها مجرد البداية ؛ يا للطف ويا للتواضع . . . الحاج أوناصر بقده وقامته ، بالجاه والمال وقوة الكلمة ، يقترح نموذج بطاقة الدعوة للعرس . . . تصوري . . . يقترح؟ ماذا يقترح؟ صيغة الدعوة ، من أي معدن لطف وتواضع مثل هؤلاء؟ أين يوجدون ، وفي أي عالم يقطنون؟

بجوارح غبطة تعربد زينب متحركة في كل اتجاه ، أمام أختها صفية العروس ، تؤكد لها أنها أحسنت الاختيار ، وأجادت بما لا فوق فوقه ، وأنها مرضية الوالدين ، خطبَها الحظ السعيد وسعت إليها النعمة تجرر أذيالها . . . والحب؟ أحبك؟ تلك الكلمة التي يهفو لها القلب تعمر الوجدان ويرتعش لغُنّتها الكيان؟ يضطرب السؤال في الباطن ، يعلق في عمق الحلق ؛ وترد زينب بملامح تعجب . . . عن الحب؟ دعيكِ يا عزيزتي من هذر كلام وحكايات ؛ الحب ياعزيزتي يطير ولو كان من قزدير ، هذا ما نعرفه ، ما تعلمناه منذ الصغر وتؤكده التجربة ؛ أكانت رْحومة الوالدة قبل الارتباط ، تحب الحسوني الوالد ، زوجها الخالد وزوجته إلى يوم الدين؟ دعينا من خربقة وتخراف ؛ والحب يتولد من عشْرة ، العشرة وحدها وتوالي الأيام ما يولد التعلق والارتباط ، حتى لو كانت تجاه ، كلب ، عصفور أو حتى حائط أو شجرة ؛ ماذا تعلمنا؟ يقولون الله لا يطيّح حبك على حَجْرة ، أرأيت كيف أن الحب يمكن أن ينصب على صخر؟ حَجْرة حقيقية صخرية جمادية أو آدمية بشرية حية؟ لا يهم ، وكله يتولد بالألفة والعشرة ؛ الحب يساوي عشْرة طويلة ، والعشْرة هي الحب ، . . . وعشرة من ومع من؟

– يا خْتي بنت مّي فيقي ، حلّي عينيك وشوفي مزيان . . . هذا

فؤاد ولد أوناصر عريسك الآن ، وهذا الحاج أوناصر ، بقده وقامته ، بماله وجاهه ، يقترح عليك ، على الوالد الحسوني ، الضعيف رقيق الحال ، صيغة الدعوة ، شوفي اللطف والكرم والتواضع .

تقرأ زينب متمهلة عبارات الدعوة الجميلة : « . . . للحفل الميمون ، بزفاف النجل البار الكريم فؤاد الحاج أو ناصر ، للدرة المصونة والجوهرة المكنونة ، الآنسة صفية الحسوني . . . دامت لكم الأفراح والمسرات . . .»

أطلنتيك موكادور ، أفخم الفنادق حيث يختار الحاج أوناصر إقامة احتفالية الزفاف ، لا حيث كل شيء رهن إشارته وفق إرادته ، في قاعة البلدية في قلب مدينة الصويرة ، حيث يتسارع الكل لخدمته ويرونها تشريفاً لهم أي تشريف ، ولا حتى في إحدى مبانيه وعماراته على طول البلاد وعرضها ، أو بقصره الفخم الشاسع بالضيعة جوار المدينة نفسها ؛ وإنما هو أطلنتيك موكادور بخدماته العالمية ، بقاعاته الفارهة ومتنزهاته الغناء ، مع جناح خاص بالعروسين ورفاقهما من أزواج وغير أزواج . . . أطلنتيك موكادور!

ياخْتي يابنت مّي ، أختك عزيزتك زينب ، جاءها الدفوع على عربة كارو ، يجرها هيكل عظمي على أربع ، وزفت إلى شقة من غرفتين ، وفرخت بمعدل ما شاءت لها الطبيعة المعطاء أن تفرخ من زوجها عياد . . . الحب؟ اسأليني ، اسمعيني وافهمي : جاءك السعد قاصداً لا يطرق ولا يستأذن ، فكوني المرحبة السعيدة ؛ هي مرة واحدة في العمر ، مرة واحدة لا أكثر ، يصادف فيها السعد إذا واتت ، أما إذا لم . . . فأنت ترين حال أختك ، أين هو ذاك عياد المحب الذي كان زوجاً؟ هل أفلح الحب المتبادل ، أو ما كان يبدو كذلك في إنبات

السعادة مع قلة ذات اليد؟ ماذا يفعل الحب المزعوم مع إنجاب أربعة فراخ، كلها رغبات واحتياج لكل شئ؛ والمحبوب ذاك الزوج الأب، رب الأسرة المحب، وهو في غياب دائم بإيطاليا، يبعث بين الفينة والأخرى، بحفنة نقد لا تكاد تكفي أو تفي بشيء، سوى مع الشد والتقتير . . . ماذا بقي ويبقى من الحب مع فراق الشهور والدهور؟ أينتظر الزوج الوفي الأمين، ذاك عياد المحب، لحظة عودته، ما بين سنة وسنتين، ليرتوي ويروي من حياض حبه الأسري الأول، أم أنه هناك مجلّلٌ غارق في أنماط حب أخرى؟ وهل له خيار؟ امرحي واسعدي يا بنت مّي، فتّحي مخك وعيونك وقلوبك وأحضانك كلها، لحظك السعيد.

لا تنبس بنأمة صفية، إنما الكلمات مترادفة منحبسة في عمق صمتها المطبق؛ تتملى زينب حال أختها بحنو وإشفاق، منتظرة رداً تريده كما تريد، ولا تريد غيره؛ وهل من رد أو جواب، غير الاقتناع والقبول وفي تمام مرح وانشراح؟ تميل زينب باتجاه أختها، تضمها إليها مقبّلة معانقة، قبل أن تقوم لتلتقي نظرتها بملامح الوالدة رْحومة، المتابعة عن قرب لما يجري، قبل أن تنسحب بدورها مطمئنة راضية.

تتداخل الأصوات مع الحركة وألوان المساء : أبواق سيارات ، زحمة راجلين ومتسوقين ، حمية بائعين ؛ أفواح طبيخ تعبق عن قرب وبعد ، من محلات مطاعم ومقاه على جنبات الساحة الشعبية والشوارع المتفرعة عنها ، لافظة أبخرة تشيع في الفضاء الطلق عارم الرغبة والاشتهاء ، لا بالضرورة عن جودة ما تقدم ، بقدر ما هي عن فوحه ونكهته الجذابة ؛ ألوان المساء ليست مجرد أرجوانية أفق يتهادى انكسار أشعة شمسه الخافتة ، في انحدارها المتسارع نحو المغيب ، وإنما هو أيضاً ، لوحات مزيج متحركة على أجساد بشرية متداخلة ، ما بين زركشة عراقية مراكشية ، ونيلية دراعة عيونية صحراوية ، ونصاعة بياض مالية تمبوكتية ، ويانع خضرة دغلية سنغالية ؛ أو فاقع صفرة بابايا غانية ، أو حمرة في دكنة كاوكاو نيجيريانية .

تتآلف ألوان وتختلف ، تتصل وتنفصل ، عبر تجاور بشري متحرك رجراج ، ما بين انحناء وخطو ووقوف ، بينما تتجمع كل الألوان دفعة واحدة وبين الفينة وأخرى ، على وحدات من قامات نسوية ، تشكل كل منها لوحة فريدة متميزة ، بفصاحة ناصع ألوان افريقية فطرية ، متنافرة متآلفة ، على أجساد من قائم استواء ، ومن مكتنز مليئ ونحيف دقيق ، ومن غير ذلك ؛ دون أن تعدم بين هذه جميعاً ، ما يبدو عديم لون مهما كان لونه ، في فضاء مسائي ، كله زركشة وزواق ، على أجساد من الجنسين ومن كل الأعمار وكل الألبسة : تي شرت ، قميص ، جاكيت ، دجين . . .

فضاء باب الحد بمدينة الرباط ، يتحول بما عهد فيه ، من تجمع عربات بائعي الفواكه ، إلى مجمع كل شيء عدا ذلك من سلع وبضائع ، يقتعد باعته الأرض ، متربعين وقرفصاء أو وقوفاً على منتوجاتهم ، بما يفترشون لها دون الأرض ، أو يعرضونها دون ذلك حسب طبيعتها ؛ تتتابع متداخلة أصواتهم ، بلكنات مختلفة ، تتخللها كلمات مغربية ملحونة أو فرنسية محرفة ، مع ترداد عبارة مونامي مناداة لأي كان ، بل إن الفضاء نفسه أصبح يحمل اسم سوق مونامي أو العزْوة ، كما يطلقها آخرون إشارة ملطفة إلى سمرة الأجساد الإفريقية ، المشكلة لغالبية هؤلاء الباعة ، يمارسون تجارة حرة ، عشوائية بلا نظام ولا تنظيم ، إلا ما يفرضه قانون التسابق والتنافس ، بلا ضوابط من سجلات أو محلات ، يكفي لمزاولتها مجرد حيز مهما كان ، عبر الزحمة والتزاحم ، يتسع لوقفة أو حتى لمجرد مد ذراع ، ليضع البائع الفرّاش على الأرض ، ما يمكن أن يفترش لبضاعة محمولة على كتفه ، مخبأة في ثنايا جيوبه ، وملوية حول رقبته من مختلف متاع ، يعرضها للبيع ، متراوحاً ما بين منتوج إفريقي أو يزعم أنه كذلك ، وما هو مغربي ، أو مصنع عالمي شرعي أو مهرب في معظم الأحيان ، مع تصاعد أنسام بخور جالبة زبائن المشمومات ، من مختلف أنماط العطور والبخور .

يخطر سامان كغيره في زحمة السوق مونامي ، يدافع بكتف حيناً وينحرف بها حيناً آخر ، يتملى ويتأمل المعروضات ، لا بقصد الشراء بالضروة ، وإن كان هذا يحصل ، ولكن لمتعة لقاء ولو بالمشاهدة وحتى باللمس والتحسس ، إن لم يكن بالتذوق أحياناً ، حسب البضاعة المعروضة ؛ منتوجات عزيزة ، لكنها تبقى بعيدة المنال ، منقطعة الصلة

به وبأمثاله ، في بلد الغربة وفاصل المسافة ، مما يجعل الجولة في زحمة مونامي ، لسامان وأمثاله ، هي لقاء حي وحقيقي بالذات وبالأهل ، عبر منتوجات بمختلف أنماطها ، وتنوع مذاقاتها ومجالاتها ، إن لم تُلبِّ في المغتربين حاجة آنية محسوسة ، فهي بالتأكيد تثير فيهم عوارم ذكر وذكريات ، بقدر ما تثير من شجن وحزن ، فهي رغم كل ذلك ، تغذي وتنعش .

ينحني سامان على بضع أكسسوارات وآليات مختلفة ، مصفوفة أمام صاحبها مباشرة على الأرض ، يعرض عليه البائع نماذج ساعات يدوية يطوق بعضها ساعده ، وأخرى يسحبها من جيوبه ، مشيراً إلى جودتها ومزاياها ، بخليط عبارات تحبيذ وتمجيد لا يعيرها سامان انتباهاً ، واهتمامه منصرف إلى مصباح كهربائي يدوي ، سرعان ما يسحبه متفحصاً مجرباً زر تشغيله ، ليساوم عليه البائع الذي يظهر علامات التساهل مع المشتري ، ليحوز سامان مصباحه أخيراً ، ويتحرك في زحمة السوق ولغطه .

تجارة فرضت نفسها تحت يافطة الفرّاشة ، لا تشكل بالضرورة نشاطاً آمناً ماموناً من المضايقة التي تبقى افتراضاً قائماً ، متمثلا في رجال شرطة وأعوان حكوميين ، قد يداهمون في أية لحظة مثل هذه الأسواق المنتشرة على طول البلاد وعرضها ، لا من قبل الأفارقة وحدهم بالضرورة ، فهم ليسوا أكثر من تابعين لمألوف نشاط معيشي جارٍ به العمل في البلد كله ؛ بيد أن هذه المداهمات الفرضية التي نادراً ما تحدث إلا على فترات ، وكأنها لمجرد إعلان أن السلطة هنا ، والتي ما تفتا وتيرتها أن تتقلص وتتباعد حد التلاشي ، مراعاة لظروف وأحوال الفرّاشة من مهاجرين ومواطنين على السواء ، ليست وحدها ما

يمكن أن يضايق نشاط الفراشة ، بل إن المضايقة الجدية مأتاها من أرباب المحلات التجارية أنفسهم ، بدوافع من منافسة ومحاسدة ، وأمام ما يعتبرونه إغماض عين السلطة عن الظاهرة المستفحلة المهددة لأرزاقهم من وجهة نظرهم ، لذلك سرعان ما تتفتق قرائحهم الكسبية ، عن مسايرة التيار والانضمام إليه في وجهته المربحة ، ليصبحوا بدورهم فرّاشة إضافة إلى محلاتهم الرسمية ، وذلك بجعل صبيان لهم أو مساعدين ، يعمدون إلى إخراج بضائعهم وعرضها على الأرض والأرصفة ، ضمن سائر الفرّاشة ، والأهم من ذلك انخراط الأفارقة في هذه االعملية ، حسب الأحوال والظروف ، بتولي بعضهم ، عبر شراكة واتفاق ، مهمة عرض منتوجات ذوي المحلات التجارية ، ضمن بضائع وسلع الفرّاشة .

يتحرك سامان ، تفغم أنفه روائح بخور وعطور ، يستشف منها نكهة أدغال خضرة إفريقية ، وعيناه تجوبان المعروضات متفحصتين مختلف السلع على الجانبين ، من ثمار كاكاو مكتنزة مُكمَّنة في أليافها الطبيعية ، وأخرى مشطورة إلى نصفين ، مفصحة عن ناصع بياض لُحمة ، وصفاء رحيق متلألئ . . . أوه . . . باوباب ، يردد صوت نسوي ، باوباب . . . باوباب . . . ينجذب سامان صوب الصوت . . . دقيق الباوباب ، غذاء وقوة وعلاج ، شجرة الحياة تلك ، أشجار الباوباب خميرة كل شيء ومنبع الحياة ، لحاؤها كساء ، فاكهتها غذاء ، جوفها مسكن رحيب ، جذعها خزان ماء هائل ، وصبرها فائق الحد ضد آفات الطبيعة وتقلباتها . . . باوباب ، دقيق باوباب ، أوراق باوباب . . . يردد الصوت النسوي ، وجمهرة مختلطة تحيط بموقع المرأة لا تكاد تترك بصيصاً ينفذ منه إليها ، أفارقة ينتقون من قطع قشور لحائية ، ومجفف

أوراق ، ومسحوق لب أخضر . . . غذاء غني كاف ودواء من كل داء ، جمهرة مواطنين مغاربة يستمعون ويستزيدون من منافع وفوائد شجرة الباوباب ، بعجائبها التي لا تحصى ، لينحنوا بدورهم على اقتناء ما يمكنهم ، لا يساومون أو يفاوضون ، وكأنما هم أمام غنيمة مجانية مستباحة . . . باوباب . . . باوباب ، بعد لأي وجهد ، يجد سامان لنفسه منفذاً إلى مقبع المرأة ، قطب دائرة متكاثفة من المحيطين ، ما بين مشترين ومتطلعين . . . باوباب ، يسترجع سامان نكهة عصيرها المنعش يسري مذاقه ويستمر لأطول فترة في الحلق . . . باوباب . . . يد المرأة في جلسة تربيعتها على مفترش جلدي على الأرض ، تمتد يداها ذات اليمين وذات الشمال ، بلفائف وعلب صغيرة ، تلبية لطلبات المحيطين من رجال ونساء ، عين سامان على ما يمكن أن يأخذ من سحيق ثمرة الباوباب ، متوجساً بأن هذه الزحمة المغلقة حول البضاعة ، لن تترك منها بقية يقتنيها .

تبدو المرأة في عز قوة وشباب ، مع أوج حمية في نشاطها ما بين تسلم وتسليم ، لا يكاد أحد يعبأ بملامح سمرتها الإفريقية الأصيلة ، أو جدائل شعرها المنفتلة المدلاة بفيض على أطراف منديل قصير ، لا يفي بغطاء الرأس بقدر ما يشكل شبه عصابة دائرية حوله ، تلتقي بعقدة أعلى الجبهة ؛ لا أحد يعبأ بشيء من ذلك ، ولا بتشكل الألوان المتآلفة المتنافرة على كيانها المنطوي في جلستها التربيعية ، على المفترش الجلدي ، لا أحد يعبأ في حمية الزحمة والتسابق ، بشيء سوى ما تسلمه المرأة ، أو تتسلمه مقابل ذلك ؛ وما كان لسامان بدوره أن يعبأ بأي تفصيل ، عدا ما يرومه من سحيق ثمرة ، يعشق عصيرها الرائق المنعش ، يسترجع به مذاقاً لم يتلذذه من مدة طويلة ، ولا يراود إلا

كحلم أو حنين لا يتحقق ، وهاهوذا فجأة يتواجه بعرضه أمام نظره في السوق ، وعلى قارعة الطريق ، كأي قارعة طريق أو سوق في حي شعبي بأكرا ، دكار ، باماكو . . .

المرأة في حمية ما هي فيه ، تنحني على ما لديها من منتوج ، تنتقي وتأخذ بالعد والمقدار ، ملتفتة إلى يسار وإلى يمين ، تمد بكلتا يديها تسلم وتستلم ، متطاولة باتجاهها الأيدي ، منحنية حولها القامات والرقاب ؛ يمد سامان يده منحنياً في زحمة محيطه ، مشيراً معرباً عن مطلوبه ، في تداخل ما حوله من أصوات ولغات .

شيء ما يسترعي انتباه سامان ، شيء ما يلوح متحركاً يتأرجح بندولياً أمام ناظره ، يتراقص جيئة وذهاباً . . . لمحة برق خاطف . . . أي شيء هو؟ يتراقص فيما بين عتمة وضياء؟ أين وكيف وما . . .؟ رطوبة غريبة بنكهة بحرية من أين مأتاها ، تفغم الشم تملأ الأحاسيس تسري في الجوارح ؛ أي شيء هذا المتأرجح بندولياً . . . في عتمة وضياء . . . رطب نسمة ووجيف قلب . . . توجس وطعم هول في الأعماق . . . أي شيء هذا ، وما ، وكيف ، وأين؟ . . . معقوف ناب قلادة . . . . أوه ، كيف؟ برق صورة خطف . . . تلك الحاوية . . . تلك الخيبة . . . تلك الليلة وقدمه المتخاذلة تتعثر بكيان المرأة منطرحة على الأرض بخيبة مثل خيبتهم جميعاً . . . تلك الليلة ، وهو على ما به وفيه ، يسند ويسعف ، برق صورة خاطف يأخذه . . . إذن . . .

تنتبه بدورها المرأة إلى حركته تجاهها ونظرته ، تدير رأسها نحوه ، قلادة ناب عاجي معقوف ، تترأجح من رقبتها على صدرها . . . لمحة برق خاطف تبدو معها المرأة تلك الليلة ، وهي على وهن ومنبطح أرض ، قرب حاوية راسخة الكيان في تربتها ، بميناء طنجة ، عقب

رحلة موهومة خادعة في صندوق معدني فسيح ، حاوية بضائع فارغة مهملة رابضة على أرض الميناء ؛ في عتمة ضياء ومحنة خيبة تلك الليلة ، تقبّل المرأة وتعيد قلادة الناب العاجي المعقوف . . .

- بوتو . . .

يهتف سامان بالاسم متردداً ، تركز المرأة بصرها في الرجل برهة ، مقطبة مسترجعة رنة النداء في سمعها ، بنكهة رطوبة ليلة ملؤها وهن ورعب وتوجس . . . بوتو . . .

- سامان . . . سامان . . .

تردد بوتو اسمه هاتفة به في غمرة ذكرى عارمة مفاجئة ، تقوم خفيفة باتجاهه ، يتواجهان ، بغمرة مفاجأة وانبهار . . . بوتو بوتو بو . . . سامان سامان سا . . .

تدفع صفية باب العمارة ، محملة اليدين بقفة حاجيات ورزمة كراريس مدرسية ، تلمح سامان بهمته المعتادة في منعرج السلم الأرضي منهمكاً في التنظيف ؛ يستشعر سامان بدوره الحركة ، وسرعان ما يلتفت ، ليسرع تجاهها محيياً ، يمد يده ليحمل عنها ، تمانع بحركة خفيفة ، ليس أمامها إلا خطوات إلى شقتها ، يلح في أن يأخذ عنها ما تحمل ، تطاوع شاكرة ، لترتسم على محياه معالم ارتياح وابتسامة رضى ، يتقدمها نحو الشقة بثقة تبين عنها حركاته النشيطة في لباس مخفف من قميص وشورت قصير ؛ يتوقف سامان عند باب الشقة ، تدير صفية المفتاح ليدلف أمامها بخفة ، يضع حمله في الصحن ، مستأذناً في أن يرتب الحاجيات في أماكنها ، تشكره صفية مكتفية ، ليستدير محيياً منصرفاً بسرعة .

تشغلها صورته : كم يضاعف هذا الرجل سامان من خدماته وتطوعه ؛ لا يكف عن الحركة والشغل ، لا تراه إلا وهو منهمك في شيء : حارس سيارات ، غاسل ، منظف عمارات ، خادم بيوت ، حمال ، مساعد لكل شخص في كل شيء ، في أي مكان وزمان .

تتخفف صفية من ملابس الخروج ، تغير بعض ما عليها ، مفرغة عليها كندورة منزلية ؛ شاغل هام يملؤها لو تستطيع إنجازه ، تجلس على كرسي إلى طاولة الصحن ، تتناول الورق والقلم ، تخط بضع كلمات ، لتتوقف يدها عن الكتابة كما يحصل في كل مرة ، رسالة إلى أختها زينب لا تسعف ولا تستقيم ، تبدؤها مراراً ، تشرع في تحريرها ، لتكف

آخر الأمر وتؤجل إتمامها ؛ لا تطمع في موافقة أحد على ما فعلت ولا على الطريق الذي سلكت ، لا تقبل من أحد ملاماً ، لا تنتظر من أحد عوناً أو صفحاً وغفراناً ، لا تطلب ذلك من أحد ، إنما أختها زينب ، وهي بدورها كغيرها ، لا يمكن أن توافقها على ما فعلت ، فأحرى أن تحبذ ، لكنها يمكن مع ذلك أن تفهم ؛ زينب ستفهم بالتأكيد ، فما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد من قبل صفية ، فما المعنى والفائدة من الوقوف في وجهه ومعارضته من قبل أي كان؟ تلك زينب كما تفكر الآن في الموضوع ، وكما تعرفها أختها صفية ؛ وفي عمق الأعماق ربما تحبذ زينب ذلك ، حتى وإن لم تظهره أو تعبر عنه ، وقد تتمنى ذلك لنفسها ، لو أمكن . . . لو كانت مكان صفية ، لو . . . لو . . . تلك زينب ، كما تعرفها صفية .

ببعض عصبية ، تحرك صفية القلم في يدها ، يسكنها هوس الكتابة إلى أختها ، ليمنعها أكثر من هاجس ؛ وماذا تريد من زنيب أو غيرها؟ ليست مشتاقة لأحد ، لا نادمة على شيء ، ولا ناقمة على أحد ، إلا أن يكون على نفسها هي ، على مشاعرها بالذات وهي تفاجئها بهذا اليوم ، تعلنه لها ، أنه يوم ميلادها الذي يحضر محايداً لأول مرة في زمنه ، وبدورها صفية ، تستقبله بحياد لأول مرة في حياتها ، لا تملك أن تعلنه لأحد ، ولا أحد يملك أن يعلنه عنها ؛ لمن تعلنه؟ ولماذا؟ تكاد تنكره ، تنكر حضوره المباغت ليشوش من خواطرها المهوشة المشوشة أصلا ؛ منذ باكر هذا اليوم ، بل منذ أيام قبل ذلك ، يراودها حضور هذا اليوم ، كأنما تنتظرها مفاجأة ودية غالية ، كذات مساء . . .

ذات مساء كان ، مفاجأة بعيدة تراود من مساء ذلك اليوم البعيد

من حياتها ، لكنه يظل ساكن القرب عمق أعماقها . . . مساء ذات يوم وهو يحل إذ ذاك بطعم طمأنينة وسكينة تستشعرها صفية غير مألوفة ، تحس بها طمأنينة عجائبية غرائبية إذا صح التعبير ، وصفية تدلف إذ ذاك إلى مطعم مأواهن في المركز التربوي ، لتجده خالياً تماماً ، كل شيء معد للعشاء ، السفرة الجماعية كالعادة ، لكن ولا واحدة من الزميلات النزيلات .

عمَلة المطعم والمناولون ، في مواقعهم المعتادة مستعدون جاهزون ، يبشون لها كالمألوف منهم في وجوه الطالبات ، لكن ولا واحدة غيرها ، لدرجة أن صفية تنظر حواليها وإلى ساعتها تتأكد من المكان والزمان ، بينما تقبل عليها إحدى المناولات بصحن الحساء مقدمة لوجبة العشاء ؛ لا ليست مبكرة في الحضور ولا متأخرة ، لذلك تسأل ولا جواب . . . ربما . . . ربما . . . ربما واجب تربوي عملي غاب عن بال صفية أو أُحْدث بغير علمها ، وهو ما دعا لغياب الجميع . . . ربما . . . ولا تملك صفية إلا أن تُقبل مفردة على الأكل بدون رغبة حقيقية ولا قابلية .

ببالغ تردد ترنو إلى آنية الحساء ، وما تكاد تلامس أول ملعقة حتى تلعلع زغاريد ، ويُغزى فضاء المطعم بفوج الطالبات ، كلهن كوكبة واحدة مغردة بعيد ميلادها السعيد ، تتقدمهن حاملة الحلوى مزينة بشميعاتها الملونة المعدودة ، متراقصة من حولها شُريرات نارية متسامية متقطعة .

آه ، طعم مساء ذات يوم ، نكهة ذلك المساء ، تقتحمها اليوم في وحدتها ، في فراغ ما فيها وما حولها الآن ، بلا لون ولا طعم ولا نكهة ؛ تستشعر صفية بالغ ارتخاء يشملها ، تقوم إلى غرفة الجلوس ، ساحبة

معها كناشة الورق والقلم ، تتكئ على المخدة وراء ظهرها ، تنشر ذراعيها في امتدادهما على السداري ، تتنفس بعمق ، يعمها بعض انشراح مكتوم ، مخايل ابتسامة ذاتية غائمة ، كأنما تلك الصور تتحرك فعلا في أعماقها ، تنبض حية في أحشائها ، تتفاعل فيها مثيرة فائرة ، من ذاتها في ذاتها ، خارجاً عن إرادتها .

هكذا ، ببساطة وعفوية بالغة ، كأن ما يعجز عنه الظاهر ، تنجزه من ذاتها الجوانح والأعماق ؛ تزف ذكرى ميلادها اليوم ، باكتمال عام مضى عن حلوله ، وهي إذ ذاك في كنف عشرة زوجية ، هي إذن ذكرى ميلادها ما يجعلها أكثر انشغالا بالغير ، هذا اليوم بالذات ، وبأختها زينب على وجه الخصوص ، هي الذكرى إذن تدعوها بإلحاح إلى ضرورة إتمام رسالة زينب ، أو بدئها على الأقل .

تمد صفية يدها ، تقرب إليها المائدة الواطئة المستديرة ، من جديد تتناول الورق والقلم ، لتخط عبارات التحية ، تستشعرها كلمات متجمدة في اللسان ، مستعصية في سن القلم ، تضغط برأس القلم على الورق ، تحركه في موقعه ، كأنما ليفرغ ما في جوفه دون جدوى ؛ لن تقول الكثير أو تكتب الكثير ، رسالة تبعثها غفلا بلا مرجعية من ضمان وصل أو عنوان مرسِل أو ترجّي خبر أو جواب ، حتى وهي تسأل بما يملؤها حرقة عن محنة زينب مع بكرها ، وفي عذاب طول انتظار بلا نهاية ، ليتيسر لها أمر اللحاق مع الأطفال بزوجها الغائب عياد . . . والو والو . . . لا شيء ، تكرر كالعادة حرقةُ زينب في محنة انتظارها الطويل وتعب الأولاد ؛ لن تتلقى صفية جواباً من أختها ولا تريد ذلك ؛ كله مجرد إشعار بوجود ، دون أي أثر من مكان وزمان ، وإلا لاستعملت هاتفها النقال .

«أختي العزيزة زينب . . .» تتبعثر المعاني في ذهنها، تتطاير الكلمات من يدها متناثرة الحروف .

تغمض صفية عينيها لمزيد تركيز بلا جدوى ، تستعصي الكلمات في الإغماض ، بينما تتراءى عبره صور ومشاهد من عشرة زوجية بلا نكهة ولا طعم ، وتبدو صفية في غرفة النوم ، وقد غمرها في الإغماض فجأة ، إحساس بباهر نور يعمها وغرفة النوم من حولها ، لتفتح عينيها على مداهما ، ويرتسم أمامها في وضح الضوء الغامر ، شبح فؤاد ، يرمي عنه ملابسه في كل اتجاه . . . إذن تكون قد أخذتْها غفوة إذ ذاك ، غفوة رغم استعصاء نومها طيلة الليلة في انتظار رواح فؤاد إلى البيت ، لم تستشعر عودته المألوفة على عتبة الصبح ، لكنها بالتأكيد ظلت ساهرة تنتظر أوبته ، واليوم إذ ذاك كان يوم ميلادها ، كما تحدثا فيه قبل حلوله منذ أيام ، وتراقصُ صور الاحتفاء المتوقع تنعش جوارحها ؛ منذ أيام قبل حلول يوم ميلادها إذ ذاك ، وبالقرب منها فؤاد في غمرة حركة ونشاط . . . آلو آلو . . . ينهي فؤاد مكالمة قصيرة هي أقرب ما تكون إلى همهمة ، ليلتفت إلى صفية منهياً إليها في حمية ، أن الفندق محجوز منذ الآن لحفل ميلادها ، بحضور فرق غنائية شعبية وعصرية ، كل شيء سيكون جاهزاً ، في موعده المضبوط ، وعلى أحسن وجه .

كانا آخر من يفطر من عائلة أوناصر ذلك اليوم ، أو أنه فؤاد على الأصح من يفطر حوالي منتصف النهار ، بينما لا تزيد صفية على مجالسته في هذا الوقت المتأخر من الصباح ، ولتجدها فرصة تذكير عابر بيوم ميلادها . . . صافي . . . خلاص . . . صافي . . . كلشي جاهز موجود من اليوم . . . يكرر فؤاد على مسمعها مكالمة جديدة في

الموضوع ، مؤكداً الأجواق والفرق والموائد والمشروبات ، كلشي . . . كلشي . . . يغلظ قليلا من لهجته لمن يتلقى طلباته وأوامره عبر الهاتف كالمتوعد ، لينهي ذلك بعبارات ودية وضحكات ، إنما يؤكد باختصار لمحدثه ، أنها ستكون ليلة باذخة بكل ما فيها . . . إيييه إيييه إيييه حفلة عيد ميلاد . . . العائلة كلها والأصدقاء والأحباب . . . كلشي . . . حتى القطط والعصافير . . . وحتى القمر . . .إيييه إيييه . . . القمر حتى هو مدعو ، لا بد يحضر بكماله وتمامه . . .

وتنهال المكالمات على صفية والأسئلة ، من بداية اليوم : أين هو فؤاد؟ يريدون التأكد والتأكيد على الطلبات والتجهيزات . . . كلشي كلشي . . .حتى الحماة ، الحاجّة الكبيرة ، والدة فؤاد ، تسأل محتارة أين يكون فؤاد؟ متى يظهر؟ بحلول المساء ، يهمد كل شيء من حولها ، تقل الاتصالات والأسئلة ، كل شيء يهمد من حولها ويسكن ، وتظل وحدها ساهرة ، لا تملك كعادتها إلا أن تنتظر وتنظر محدقة في لا شيء ، بغريب حياد تام ، بلا أدنى انفعال ، بانعدام قدرة شامل مُشِل عن إتيان أدنى حركة .

غفوة تكون قد أخذتها إذ ذاك بلا شك ، ربما هي غفوة بعد طول انتظار لعودة فؤاد ، ليفاجئها باهر النور ذاك ، وهي في إغماضتها ، تنتفض في فراشها مفتحة العينين ، يرتسم في وضح الغرفة شخص فؤاد ، وهو يرمي ملابسه حيثما ما اتفق ، تسمعه مدمدماً بعبارات متداخلة ياربي ياربي؟ ياربي اشنو نسيت هذا النهار؟ تستشعره يعتصر جبهته بيده ، مستحثاً ما يذكره بما نسي في يومه هذا . . . ياربي ياربي . . .اشنو نسيت؟ ماذا نسي ذاك اليوم بالذات ، يوم ميلادها المعلوم؟ لا . . . لعله لم ينس شيئاً ، لا . لا . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تغمم رأسها تحت الغطاء، تحس بانطفاء النور، تستشعره يندس معها في الفراش إذ ذاك، وما تلبث أن تأخذها قشعريرة، يقلص جوارحها زحْفُ ملاسة على الكيان، تتعرق، يتندى الجسد... لهاث ثقيل يضج في السمع ونحيب في الصدر... نعومة لمسات ملساء مرعبة تشي ببطون زواحف تتلوى حولها، ملاسة بطون زاحفية منزلقة يغذيها تعرُّق الجسد، تتلوى بها، تُمايِلها تتقلب بها، تلامسها حرشفية ظهرها القشرية... أوه... مجفلة، شبه عارية تقفز من فراشها، تشعل النور، جاحظة محدقة حولها في الغرفة، فؤاد وحده في الفراش حيث كانت، منتصب بتمام عريه، محدقاً حوله بمنتهى يقظة وعجب...

أوف... تحرك صفية رأسها، كأنما تنفض عنها ما يتراءى من مشاهد وصور، لتعود إلى ما هي فيه من كتابة رسالة...

«أختي العزيزة زينب...» سن القلم منضغطة على الورق دون ظل أو حرف... تستشعر صفية توتراً يضاعف استعصاء الكلمات، تستحضر إرادتها للكتابة، ستكتب يجب أن تكتب إلى أختها، حتى إنها لتود أن تترك كل ما يرد عفواً لتسطره، مهما كانت طبيعته وموضوعه، المهم أن تعلم أختها زينب على الخصوص، أنها في مكان ما، تتنفس كبقية الخلق على قيد الحياة، فقط لا غير، بدون عنوان مرجعي، وبدون انتظار رد أو جواب.

إذن لنبدأ، لتبدأْ صفية، وكل ما يرد عليها تخطه بحذافيره وكما هو، حتى ولو بدون رابط، ولماذا الربط والرابط؟ أكان طريقها وما يجري فيه بربط ورابط؟ هل من شيء معقول مما هي فيه، وتسير باتجاهه؟

لا جدوى، تعتصر تنتظر، تشدد ما فيها وترخي، لا جدوى؛

ترمي القلم جانباً ، تعمل على أن تسترخي كلية ، تحاول الإغماض قليلا ، لتتراجع مفتحة العينين على مداهما ، خشية أن تداهمها تلك الصور والمشاهد في الإغماض من جديد .

يتناهى لسمعها طرق خفيف متردد على الباب . . . نعم؟ تقوم باتجاه الباب ، تجده مفتوحاً وسامان يقف معتذراً متسائلا . . . آه ، نسيتْ صفية فعلا أن تغلق وراءها باب الشقة ، ليبقى مواربا . . . آه ، لا بأس ، شكراً شكراً . . . تغلق عليها الباب ، وتدلف مشوشة البال باتجاه المطبخ .

غريرة كانت بوتو ، يافعة وغريرة إلى أبعد حد كانت ، وأكثر من واثقة كانت في نفسها وفي كل شيء من حولها ، حتى الأرض التي تقف عليها والسماء التي تظلها ، لتدرك في النهاية أنها تقف على فراغ ، مقذوفة لا فوقها فوق ، ولا تحتها تحت ، لتكتشف أنها لا شيء ، ولا شيء حولها ؛ يافعة كانت ، وأكثر من حالمة بقدرة ومستقبل ؛ تتقافز طيشاً حتى وهي واقفة ، قاعدة ، ونائمة ، حتى لتقول لها وعنها أستاذتها في الإعدادية أنت يا بوتو ، لا يمكن أن تكوني قد مكثت شهور الحمل المعلومة كلها وبتمامها ، في بطن أمك ، وأي بطن يحتملك أو تحتملين السكون فيه للفترة للازمة؟ تسعة أشهر كاملة؟ لا يمكن ؛ لا بد أن تكوني ترنحت أكثر من مرة في بطن أمك ، وانزلقت قبل الأوان .

أكثر من مرة ، والأستاذة تكلفهم في الفصل ، بإنجاز تمرين آني في حيز زمني معلوم ، نصف ساعة أو أقل أو أكثر ، لتستدرك في ابتسامة غامضة تقول في اتجاه بوتو أنت؟ لتعين لها نصف المدة فقط . . . ولماذا أستاذة؟ أو لا تعرفين؟ لا تعترفين حقاً؟

وحينئذ تعتمل دواخل بوتو بكامل حياد ؛ م تغضب أو تبتئس؟ هي هكذا . . . تصفها الأستاذة بأسرع وأخف ما يمكن . . . أنت برق ، أسرع من برق ، تقول لها الأستاذة ، أو تسميها فائق سرعة الصوت .

تتقافز بوتو وحدها أو مع غيرها من أترابِ المدرسة من الجنسين ، في طرقات متربة أو شبه معبدة ، باتجاه المدرسة ذهاباً وإياباً ، يتفنن

الذكور في التباري للظفر باستحسان البنات ، بعضهم يتطاول ، بعضهم يتشاعر ، يتغنى ، بعضهم يتعارك ، ومنهم العملي المغامر ، يفاجئ الفتيات بحشو كُرزه وجيوبه وملء يديه ، بثمار ما اجتنى عنوة من حدائق وأغراس مجاورة ، من فواكه موسمية ، بسطو قطف وقفز ، يفاخر غيره ويتقرب بهداياه إلى الفتيات ، رغم أن بعضهم لا يعود أحياناً خاوي الوفاض فحسب ، وإنما بعلامات رد فعل غير مريح ، ترتسم معالم خدش أو لكْم على ظاهر كيانه ، أو تمزقات ثياب أو أي شيء عدا ذلك ، ينبئ عن سيقان ريح ، منجية إلى بر أمان ، من معركة غير مجيدة ولا متكافئة .

وحدها بوتو ، كانت بحيث تقتنص لها بين حين وآخر ، فرصة تنافسية فتيانية ، تعود معها ببعض خيرات ثمار إلى زميلاتها بالدرجة الأولى ، مثنية بعدها بالفتيان ، تذوِّقهم من جنى يديها ومردود جسارتها مهما نزر وقل ، بل مؤثرة هؤلاء على نفسها ، غير مبالية بما قد لا يتبقى لها ، مكتفية باعتزاز يعمر ويغمر ، لتهز كتفيها في حركة لا مبالاة فتيانية ، منطلقة في شأن أو اتجاه غير ما كانت فيه .

كالهمس يسري ، قل دبيب هو ، مثلما تحس شبه خدر أو قشعريرة ، لا تدري لها سبباً ولا موجباً ، لا مريحة ولا مزعجة ، لا تثير اهتماماً منك ، كشيء لغيرك لا دخل لك فيه تماماً ، إنما السمع ليس عيناً تغلقها أو شفة تزمها ، هوذا السمع في غير اهتمام ولا تركيز ، تمر به أشياء مر نسيم عابر ، إنما يتبقى بعض الأثر ، يُسترجع من ذاته بعد حين لسبب ما . . . آهاه . . . ما المعنى وكيف؟ إذن . . . تلتقط بوتو الموضوع الآن ، لا لأنها تسترجعه ، ولكن لأن هناك من يقصدها هي بالذات ، متسائلا بما يراودها من خاطر : وبعد؟ ماذا بعد ، حتى لو تم

الحصول على الشهادة الدراسية وأختها وأخت أختها . . . ماذا؟ لا يجيب الهمس ولا الدبيب ، وإنما يظل السؤال معلقاً في الحلق ، كما يظل معلقاً برقبتها ، خيطاً يخترق ناباً عاجياً مقعوفاً ، تذكاراً لا تدري لأي من الجدات يعود . . . تتلمس بوتو جيدها بآلية وتلقائية ، تتحسس الواسطة العاجية بأصابعها ، كأنما تحكها على كفها ، لترفعها إلى شفتيها تلثمها لثماً متتابعاً متقطعاً . . . ماذا بعد؟ كأنما يسري إليها السؤال من خفي تيار وموصول لثم . . . ماذا بعد؟

يتئد خطو بوتو مخففاً تسارعه إلى حد كبير ، يتحسس خطواً مماثلا بقربه ، كما تستشعر ظلا يمسحك ، تنتظر أن يمر ويعبر ، لكنه يبدو كما لو كان يتحرك على قدك ومقاسك ، لا يتجاوز ولا ينتقص ؛ لم يكن ظلا وإنما خطواً مسايراً ، تلتفت بوتو تجاهه لينتصب قامة نسوية ؛ تقول بوتو ذلك ، لأن القامة تلك ، لم تكن لواحدة من رفيقاتها بالمدرسة ، ولا هي لمن تكون في سن دراسة ، لكنها قامة نسوية في شيء من العنفوان الواضح وفي تمام النضج ، وهي تخطو وما تفتأ تبش وتبتسم ، إزاء تطلع بوتو المتسائل في حياد حذر وصمت ؛ لا عليها من شيء .

تربت المرأة على كتف بوتو برفق وحنو ، لتأخذ برأس الأنامل قماش الوزرة المدرسية على كيان بوتو ، كما لو كانت تفحص قماشها ، مع ابتسامة تزداد اتساعاً . . . جميل ، تقول المرأة ، تتساءل بوتو في شيء من لا مبالاة وعدم فهم ، منصرفاً ذهنها إلى نوعية القماش ، إن كانت المرأة مهتمة بقماش وزرته المدرسية؟ لا . وإنما تزداد ابتسامة المرأة اتساعاً ، مع غمزة خفيفة بطرف عين ، لتقول أنت!

يتوقف الخطو ، تتجمد بوتو مستفهمة بصمت ، بينما تتجاوزها المرأة خطوة ، لكنها تمد يدها جانبياً باتجاه بوتو ، تضع يدها على كتفها

بتحبب ، تسحبها برفق لمسايرتها ؛ أزعجتْ المرأة؟ قالت شيئاً لا يليق؟ تعتذر إذن ، عذراً عذراً عذراً لكنك جميلة . . . قدّ ، قامة ، قوة وشباب . . . تبتسم بوتو ، يزايلها التوتر والمرأة تعدد محاسنها لولا . . . لولا . . . الوزرة المدرسية ، لتضحك المرأة من عمق حلقها ضحكة خفيفة مسموعة ، وتقترب من سمع بوتو كالهمس في أذنها . . . الوزرة لا بأس ، لكنها لا تناسب ، لا تليق بها .

تتوقف المرأة محدقة في ملامح بوتو بضحكة عريضة وغمزة طرف .

- صديقتك ماري ، أختك الكبيرة

تلفظ ماري اسمها لبوتو ، وتخطو مبتعدة . . . باي . . .حركة وداع مع تدوير السبابة ، في إشارة إلى لقاء مقبل ؛ تتابعها بوتو وهي تخطو بقوة وعزيمة ، تتابعها نظرات بوتو من الخلف وهي تبتعد في خطو متأن منتظم ، يتمايل معه قوامها الرشيق بالقميص ذهبي الصفرة ، مطرز الحواشي ، يلتقي بتنورة زرقاء سماوية ، توائم لفة غطاء الرأس . . . فعلا ذائقة رفيعة هذه المرأة ، الصديقة الأخت الكبيرة ماري ، وبادية الوسامة والعناية بملامحها ؛ حقاً ، أول ما أُخذت به بوتو منذ أول وهلة من لقائها مع ماري ، بشرها ووسامة ملامحها ، مع زينة خفيفة وليست خفية ، لتعود بوتو إلى نفسها ، تمسك بطرفي السبابة والإبهام قماش وزرتها المدرسية ، تتملى حالها قليلا ، لتستأنف سيرها بخطو وخاطر متراخيين

وماذا بعد؟ يصبح سؤال الهمس صاخباً في أعماق بوتو ، من قال إن الأشياء تصبح غيرها بين عشية وضحاها ، قل في لمح البصر ؛ الطريق بما فيه وحوله ، لم يعد يغري بغير رتابة متعبة ، الناس بمعهود ما

هم ، تستحيل ملامحهم إلى تقاسيم مربكة مرعبة ، أصوات ليست أكثر من نعيق مزعج بلا معنى ولا انتظام ، لترفع الأستاذة معلمة بوتو عقيرتها ، منبهة إلى العجب العجاب ، من برق خاطف يستحيل جماداً بشديد وزن وثقل ، جلمود صخر لا يتحرك ، مشيرة بسبابتيها معاً إلى بوتو وانقلاب حالها ، لتصبح الغائبة الحاضرة باستمرار . . . أهه؟ نعم؟ سبحان مغير الأحوال ، تستفيق بوتو من غيبتها ، بفعل إلحاح الأستاذة وتهامس الماحوْل ، والْماجَنْب بقُرْبها ، لا تعرف عن أي سؤال تجيب ، ولا في أي مفصل من الدرس هم؟

لقاء ثان وثالث . . . و . . . تتوخاه ماري في الموقع نفسه ، بالخطو ذاته ، لا تدري بوتو كيف تنبثق صديقتها أختها ماري ، لتنتصب جنبها ، تمْثل كالعهد بها ، بالملامح ذاتها ، بابتسامة العطف والود ، في تمام أناقة وانسجام هندام ، يوحي بشيء من وقار ، لا يخفي اتزان عناية ، بلا بذخ ولا ابتذال ؛ وما ذا بعد ، حتى لو حصلت بوتو على الشهادة المدرسية؟ لم تعد ماري بحاجة إلى تلميح الحال ، عبر الإمساك بطرف الوزرة المدرسية لبوتو ، فهذه أصبحت من ذاتها تفسخ الوزرة عن كيانها ، بمجرد العتبة الخارجية لمدرستها ، بل تتحسس يداها بآلية تامة فتح أزرارها ، بمجرد انتهاء الدرس أو عند عتبة الفصل .

تتحدث ماري عن عالم آخر ، عوالم أخرى عديدة بساحر ألوان ، وبأنماط حياة من نوع مختلف وراق جداً ، لا يُتصور ؛ سيارات ، فنادق وقصور ، مراكب ويخوت ، سهرات باذخة ، طائرات وسفريات بمستويات ضيافة وخدمات بما فوق الرغبة والطلب ، قولي حسب الاشتهاء والتمني . . . أيُصدق هذا ، بمعنى أن يُحصل ويُدرك؟ بمعنى أقرب : هل فعلا هي بوتو في حكم من يحصل لها مثل هذا يوماً؟

غريرة ، غريرة بوتو إلى أبعد حد ، ويد ماري تربت على كتفها مبتسمة بسخرية من سذاجة الفتاة ؛ حقاً ولا عجب ، فمثلها كثير ، لم تفتح أعينهن على غير معالم الرثاثة في محيطها وأحيائها الهامشية ، ولا تلقّت أسماعهن خبراً عن بديل غير ما هن فيه من خصاصة وهشاشة حال ، إلا أن يكون بديل ذلك ، اقتطافهن رهائن دانية لبوكو حرام ، كابوس أحلامهن المقدور .

الآن تلفظها ماري صريحة واضحة في وجه بوتو : ماذا تنتظر وأي مصير؟ أن يختطفوها يوماً ، تزف عروساً تُفترس أنوثتها يافعة نيئة؟ لها ذلك إذا أرادت . . .أما عالم آخر وحياة بشرية حقيقية بعز وكرامة ، فأمر واقع لمن تخطو باتجاهه ، الخطوات نفسها باتجاه المدرسة ، بل بأقل تكلفة ، بمجرد التفاتة ، ويبقى الخيار لمن بيدها الخيار ؛ ليكن ، لا إجبار على شيء ، وماري نفسها في يفاعتها ، ترددت بل تخوفت ، خافت حقيقة وارتعبت ، والأمر يعود إلى عقود من الآن ، كانت ماري إذ ذاك في سن بوتو الآن ، بل أقل من ذلك بكثير ، ليسوقها الحظ شغالة عادية مبتذلة في أبوجا ، وهناك جاءتها الفرصة من ذهب ، وكادت تفلتها ، لتقضي العمر كناسة زبالة تغسل قاذورات الصغار ، كان الأمر تماماً مثل ما يحصل الآن مع بوتو ؛ تقول ماري وتؤكد أنها في نهاية الأمر ، تشجعت ، قبلت العرض ؛ قالت في نفسها ببساطة ، لا خير فيما تعرفه وتعيشه في وضعها الحالي إذ ذاك ، لا أسوأ منه على كل حال ، ويبقى الخير فيما لا تعرفه ؛ وقالت أيضاً ماذا تخسر أكثر مما هي فيه ، وذلك في وقت لم يكن فيه من يترصد الفتيات ، مثل ما هو بوكو حرام أو غيره اليوم .

فرصة سانحة فعلا أمام بوتو ، تنفتح أمامها بانفتاح أبواب ماري

لها ، تدعوها لمنزلها ، هنا في فستاك تاون الراقي ، لم تكن فعلا بوتو ، لتتصور وجود حي راق من مستوى فستاك تاون أو حتى دونه ، فأحرى أن تجده عالماً مغرياً لمطمعها ساحراً جاذباً لمثلها ؛ أين هي في أحلامها وتصوراتها المألوفة المتواضعة عن الرفاهية والرخاء ، من واقع حي محسوس ملموس ، لفسحة مسكن ماري ، ينفتح مدخله على حديقة غناء ، خضرة عشب ، ظلال أغصان ، زينة ثمار يانعة مدلاة لا مقطوفة ولا ممنوعة ، رقرقة مياه في السمع وأقواس رشاشاتها متعانقة في الفضاء ، زقزقة عصافير تحوم وتحط بمنتهى مرح وانطلاق . . . أين هي بوتو ، من مقاليع صبيان حيهم الهامشي وشباكهم ، يتصيدون أدنى غفلة من طير ، في أرض أو سماء ، ليقنصوه أو يصيبوه ، لحاجة أو لمجرد عبث وتصريف وقت وجهد ، أين هي من صف طويل وانتظار أطول ، بقصد ملء صفيحة ماء من أنبوب ساقية عمومية ، قبل أوان إقفالها في ساعة محددة ، وإلى اليوم الموالي . . . أين وأين وأين؟

ترنو ماري إلى انبهار بوتو المتعجب المتسائل ، حتى لتبدو متعثرة الخطو ، حائرة الرؤية ، تتنقل عيناها ، تتخاطفها الأشياء والمشاهد ، لا تكادان تقفان عند شيء بعينه أو تتبينان كنه ما تمران عليه ، سوى بالغ دهشة وانبهار ؛ وتقودها ماري برفق إلى داخل المبنى ، تخترق بها مقصوراته وأبهاءه ، تخطر معها متأنية ، متوقفة بها عند عجائبه الزخرفية ، أفرشته ، أثاثه ، نصُبه الجامدة الحية تكاد تنطق ، وتحفه الأرضية والمعلقة ، تخطو بها عبر الأبهاء الفسيحة ، باتجاه مجلس في الحديقة الداخلية الخلفية للمبنى الحافل ، فضاء أرائك ومناضد ، على حافة مسبح تترقرق زرقة سطحه الصافية . . . أين هي؟

وتقول ماري عما تراه يبهر بوتو ، إنه ثمرة فترة قصيرة من شغلها

في السويد ، بوظيفة حاضنة في مدرسة للصغار ، لتنبهها إلى فارق هناك ، هو خلاف ما عندهم هنا ، في بلدهم تماماً : عندما يقال هناك عن واحد أو واحدة ، إنها حاضنة صغار أو مربية أو معلمة ، فذاك يعني رتبة عالية ، وظيفة وقيمة سامية ، بما يقابل ذلك من راتب شهري فيه الأساسي والتكميلي ، عدا الضمان الصحي و . . .و . . . حتى التنقل هناك مضمن ومرتب ، لا تستعمل المربية ماري سيارتها إلا لأغراض خاصة ، خارج أوقات العمل ، وماري الآن في عطلة ، تعود بعدها لشقتها بستوكهلم ، آه كم تحب تلك المدينة الرائعة بهندستها المريحة ، وأهلها بلطفهم وترحابهم بالأجنبي ، ولا سيما الأفارقة ، والإفريقيات بوجه خاص ، علماً بأن لفظ الأجنبي لا يستعمل هناك ، ولا معنى له عندهم في هذه الحال ، الكل عندهم أبناء الأرض وكلهم سواء .

تتحدث ماري ، كأنما تتملى لوحة تعجز عن التعبير عن مشاعرها إزاءها ، لتلمس خد بوتو برفق وتودد ، مؤكدة لها أن هذه البشرة الأبنوسية الأصيلة الرائعة ، محبوبة جداً هناك . . . لا لا لاعنصرية لا تمييز ، لا يعدو الأمر مثل ما عندنا نحن ، من ميل إلى الأوروبي الأشقر من الجنسين ؛ أو إذا كان من تمييز - وهو غير موجود أصلا - فهو أفضلية لصالح السحنة الإفريقية ، رجلا كان أو امرأة ؛ في نهاية الأمر ، ماذا لو لم تقتنص ماري لحظتها ، أين تكون بالنسبة لما هي عليه الآن؟ الأمر ينطبق على بوتو ، كما على غيرها من اليافعات اليانعات ؛ الآن ، فرصة جاهزة ؛ كيف إذن تصبح بوتو بعد سنة واحدة من الآن ، في حالة ما إذا اقتنصت لحظتها أو ضيعتها؟

تبدو ماري كغير معنية بما تستقر عليه بوتو ، كمن أخلت ذمتها بما أفصحت وأوضحت ؛ أكثر من ذلك ، لا تبدو راغبة في التأكيد على

موعد آخر مع بوتو ، أو مجرد التعبير بأي شكل ومن قبيل المجاملة ، أن بابها مفتوح لصديقتها أختها بوتو ؛ لا شيء من ذلك حتى ليبدو عند انتهاء الزيارة ، وهما على باب منزل ماري للافتراق ، وكأنه وداع نهائي ، لدرجة أن بوتو تبدو مترددة ، كأنما تريد أن تسأل عن شيء ، أو تنتظر شيئاً من صديقتها . . . لا شيء . . .

ليلتها الأولى وهاهي . . . رهان إذن هي ؛ لم تكن صفية إلا ذلك ؛ واللهاث . . . والفراش أمام ناظرها مصبوب منصوب بساط ثليج سوي ، فساحة بياض أفقي بلا حد ولا منعطف ، بلا منخفض ولا مرتفع ، واللهاث فحيح يدب على بطن أملس ، زاحفاً ببطء أبدي على أربع خواشن ، متسلقاً قامتها في وقفتها الجمدة المرتعبة أمام رحابة البياضً الثلجي القطبي ، تهزها رجفة وارتعاد من أخمص إلى قمة ، تتقلص في ذاتها ، تنكمش ، تتداخل أطرافها ، ترتخي منزلقة بظهرها على الجدار ، مقابل البياض اللامتناهي في امتداده الثلجي الأسطوري أمام ناظرها ، تستقر مقرفصة محزومة مصرورة الكيان على ذاتها ، ورتابة الفحيح والزحف الأبدي البطيء يلفها والخواشن الحراشف الأربع . . .

- لا

تنتفض واقفة مرتعدة ، ينتصب فؤاد بمواجهتها مبهوتاً تتطاير سكرته . . . ماذا وما الأمر؟ يتساءل في وجهها ، تغيب في الصمت ، تغالب قشعريرتها متقلصة الجوارح ، وهو يمد يده ملامساً برفق خدها ، ممسداً على شعرها باتجاه كتفيها ، متسائلا بلا لفظ ؛ لا تجيب وإنما الزحف البطيء الأملس والخواشن الحراشف الأربع الملتوية على الكيان المقرفص وغليظ الفحيح في عمق السمع ، جوف الذات . . . ما الأمر؟ يتساءل فؤاد بعينين محدقتين . . .

- لا .

تنتفض بحركة رفض قوية ، وهو يحاول إنهاضها باتجاه الفراش ،

تتجمد متخشبة في قرفصائها دون كلمة ، يحاول احتضانها ، يعمل على جذبها ، يلقاه منها تشنج قوي ، يتبين لا جدوى حركته ، ليتوقف قليلا ، يشعل سيجارة يمتصها بعمق نافثاً دخانها بمهل ويغادر الغرفة ، بينما تظل صفية حيث هي ، متجمدة فاقدة كل إحساس بما حولها ، ليعود فؤاد بعد فترة ، يجلس بمواجهتها ، مسلحاً بزاد شرابه ونار غيظه أو صبره ؛ نديمان على غير خط ولا إيقاع ، إلى متى؟

هاهي!

مجرد رهان كان ذلك ، وهاهي . . . مجرد رهان كانت هي ؛ وكذلك تبقى ، سراب توقها الخفي ، كل التوق لدفء كلمة منشودة . . .أحبك .

ليلتها تلك . . . وما هي إلا برهة ، حتى يُطرق باب الغرفة ، منفرجاً عن لمة من رفاق العرس ، ملبين دعوة فؤاد ، متبادلين العناق والأشواق ، في هرج ومرج ، كأنما هي دهور فرقت ما كان من أنسهم منذ وقت وجيز ، يتقبلهم فؤاد بكامل بشر وترحاب ، ليأخذوا مجالسهم على الأرائك حول طاولة واطئة في الصالون المرفق ، ليتلوهم نادل يدفع مائدة متحركة حافلة بأشكال وألوان ، مما لم تر له صفية لوناً ، غير اغتمام عميق غامق ثقيل ، يملأ عمق جوفها والصدر ، تشعر به مضايقاً حد الاختناق ، معتماً حد الغشية ، تتباعد به الجدران متحركة حد التوراي ، لتتقارب مقاربة حد الالتحام فيما بينها ، على كيان صفية وعلى كل شيء في الغرفة ؛ والمصابيح من حولها مشاعل تفيض حمماً نارية متطايرة في كل اتجاه ، وأشباح من كل غريب ، من كل عجيب ، بطيئة الحركة في زحفها الأبدي ، تتراءى فاغرة الأشداق على أغوار ، مجنحة هائلة كيان ومنقار ، وأخرى خليقة مكورة مائعة متدحرجة بلا

شكل ولا لون ، مرجرجة شفافة ، تبدو سوائلها داخل الكيان الرجراج الشفاف ، متمايلة متفاعلة بما تحدثه الحركة المتدحرجة من ضغط متبادل ، تتدانى ببطء أبدي ، متضخمة بقدر ما تقترب ، حتى لتوشك أن تملأ فضاء الغرفة في حركتها المتدحرجة بقصد واضح ، في اتجاه صفية التي ما تفتأ تنصرّ ، منكمشة متقلصة في ذاتها ، كأنما تروم في وضعها المتكوم ، اختراق الجدار وراء ظهرها ؛ تتقدم الميوعة المتكورة متدحرجة لتغشى الرؤية والكيان من صفية حد الاختناق ، تحتويها الرجرجة وصفيق غشاء ميوعتها الأملس ، تحسه صفية دافئاً ، تعمل على دفعه بكفيها فلا تزيد ليونته المرعبة ، عن أن تنضغط عند موقع الكفين ، متضخمة في كل اتجاه ، تحتوي كيان صفية المقرفص المتكوم ، حتى تغشى الرخاوة المميعة الوجه موشكة أن تخنق ، تمعن صفية في جهد الدفع بكفين تغوصان في الرخاوة بلا جدوى ، حد الخشية من خرق غشاء الميوعة الزاحفة ؛ فعْلا ينخرق الغشاء الصفيق ، ليعم فيض اللزوجة السائلة ، يغمر كل شيء فيها ، يخنق الأنفاس ثقلا ونتانة ، ليفور من عمق جوفها بركان و . . . هع . . . هع . . . هع . . .

تتباعد الرؤية ، يتناءى الحس ، يغيب كل شيء . . .

باسم الله عليك يا بنيتي

تفتح صفية عينيها بمهل ، تديرهما ببطء ، ثقل شامل يملؤها حد اللاإحساس ، تتراقص ظلال ، تتناهى همهمات متداخلة عن قرب ، مقاطع بسملات وتعاويذ وفوح تباخير ؛ تركز صفية لتبين ما حولها وأين وماذا؟ باسم الله عليك يا بنيتي . . . تتراءى مغيمة كما لو عن بعد ، معالم شبحية لامرأة منحنية عليها ، تحيط كتفيها بذراعها بين الرقبة والمخدة ، كما لو كانت تسعفها ، محاولة رفعها بعض الشيء في

فراشها ، لتستقيم في شبه اتكاءة . . . باسم الله وقول الله عليك يا بنيتي ، ويخزي عين إبليس عليك ، ومن شر حاسد . . . تهولْنا عليك آ العزيزة الحبيبة . . .

رويداً رويداً تبدأ المعالم تتضح ، ملامح النكّافة منحنية على صفية ، تحيط ذراعها بكتفيها ، تسندها في اتكاءة على فراشها . . . أين هي؟ تدير صفية نظرات تساؤل ودهشة ؛ أين هي ، وماذا وقع؟ تلمح شبح والدتها رْحومة تكسو وجهها غمة كآبة وحزن ، مجمدة التقاسيم ، تشي بمظهر تماسك وشبه حياد عن عزيمة وقصد ، كأنما تخشى أن تخونها حركة أو ملمح دال على حال ، قبل أن ينجلي الأمر . . . باسم الله وقول الله عليك آالحبيبة . . . تكرر النكافة تعاويذها مربتة على كتفي وخدي عروسها صفية .

تتضح الرؤية وتتيمز معالم الأشياء ، الفراش غير الفراش ، الغرفة كلها غير ما عهدت في ليلة عرسها ؛ نعم ، تذكر صفية وتعي ، ما وكيف وأين كانت ؛ وكل ما حولها هنا ، ما يحيط بها من كل جانب ، يشي بغير ما عليه أجواء أطلنتيك موكادور ، ولا الحال كما هو عندما غادرتها النكّافة . . . غادرتهما معاً ، وحيدين منفردين في ليلتهما صفية وفؤاد ، تاركة إياهما لليلتهما الأولى في أطلنتيك . . . أم هي . . . في . . .في؟ . . . مستشفى؟ لا . الأثاث يبدو مغايراً لذلك ، له خصوصية . . . الزينات ، ستائر النوافذ ، خزائن ، مرايا . . . والمرآة الدائرية قبالة الفراش مباشرة ، تعكس صورة صفية وحاضنتها النكّافة الملتحمة بها ، وطرفاً من جلسة رْحومة الواجمة ؛ غرفة خاصة إذن في جناح أطلنتيك . . .؟ أين هي؟

تساؤل كالصراخ ، تنتفض له رْحومة جزعة ، تقوم من جلستها

لتمسك بكتف صفية ، بجانب النكّافة ، عاملتين معاً على تهدئتها . . . آ الحبيبة العزيزة أنت في دار عزك ، دار زوجك ، دارك ؛ تدير صفية ناظريها متطلعة إلى كل شيء حولها ، ملامح النكّافة المحتضنة تبدو بابتسامة عريضة مشجعة مرحبة ، سحنة رْحومة في تخشب هلع متجمد ، الزينات والمرايا والستائر والخزانات و . . . أكثر من ذلك : ثوب العرس الذي كانت ترتديه العروس صفية ، مستو ممدد بكمل عناية على أريكة ، قفطان آخِر لبسة من ليلة عرسها ، سابع لبسة كان بلونه القُمري وتطريزه الأخاذ ، كانت تطوف به على ضيوف نهاية الحفل ، تنثر وعريسها عليهم باقات ابتسام وآيات شكر وامتنان ، ملوحيْن بيديهما ذات اليمين وذات الشمال ، تحية اعتزاز وعرفان ، مترددة من حولهما تصفيقات وزغاريد ، صادحة حولهما إيقاعات وأنغام ، تحف بمسارهما من الجانبين أصص ورود ، باقات أزهار بكل فوح ولون ، ليمضيا باتجاه جناحهما ، يلجان أخيراً جناحهما الخاص .

تذكر صفية ذلك ، تذكره بكل مشاعرها الصريحة الصارخة والمضمرة ، بمشاهدها الحية والموهومة . . . تذكر . . . حتى . . . لا . . .لا . . . تلك الكلمة الرافضة التي صدرت عنها دون أن تصدر ، مرقت منها انطلاق سهم ، دون حس أو أثر ، إلا ما يترسب من الأعماق في الأعماق ، أعماقهما ، أعماق عروسين ، صفية وفؤاد .

ليلتها وتذكر أنها لفظت لا ، ذلك الحرف المزدوج الملتوي ، تلك الكلمة الوحيدة الفريدة الحمالة ، قالتها قاطعة جافة نافرة ، وتذكر حمولة مشاعرها الدفينة المرافقة ، تذكر ملامح فؤاد المنبهر بعكس كل ما كان يتوقعه طبيعياً من عروسه تجاهه كعريس ، أن يسلسا القياد معاً نحو الفراش ، بمجرد إيماءة ، إشارة ، برغبة واحدة متبادلة .

قالتها : لا . تذكر رافضة نافية ، وتذكر ردة فعله . . . تذكر حتى شلة الرفاق وهم يلجون عليهما الجناح بدعوة من العريس ، ربما أراد بها فؤاد ردة فعل لامبالية ، بديلا عن أي من ردات فعل أخرى كانت ممكنة ؛ وتذكر صفية قوة ما تفاعل فيها من مشاعر ، حتى إحساس الزحف الأملس بالخواشن الأربع ، وذاك المترجرج المائع الشفاف السابح في ميوعته نحوها بلا شكل ولا لون . . . و . . . ثم . . .ثم . . . ماذا؟

تتوقف صفية محدقة في ابتسامة النكّافة العريضة ، وتجمد سحنة زْحومة . . . آ حبيبتنا عزيزتنا حصل خير ، ما حصل إلا الخير ، ولا يكون إلا الخير ؛ ببساطة ، ماذا حصل ، وتريد صفية الآن أن تعرف تفاصيله؟ كله خير والحمد لله يابنتي . . . ومن شر حاسد . . . وكيدهم في نحرهم ، هذا هو ما في الأمر . . . إبليس لعنه الله ، قال أخزاه الله : لا يمكن أن تمضي الأمور هكذا بطواعية ومحبة بين الجميع ، هذا عرس مثالي ، ما العمل لإبطاله؟ لكنه أخزاه الله خاب في مسعاه اللئيم ، فلم يحصل أكثر من غثيان يغشي العروس للاّصفية ، مع غيبوبة خفيفة سليمة والحمد لله . . . الحمد لله لأننا لا نعرف أقصى ما كان يريده إبليس أن يحصل ، أو أننا نعرف . . . نعم على الأقل كان إبليس ، وكل حسود يود أن لا ينتهي العرس كما انتهى وكما بدأ ، ربما الحسود يقدر أشياء أخرى تفسد كل شيء ليلة العرس ، اللهم لطفك ؛ أما ما يلهب الأبالسة والحسودين الغيورين ، يحرقهم ويصلبهم ، يسلخ جلودهم عنهم وهم أحياء يرزقون ، فهو فطانة الحبيب سيدي فؤاد حفظه الله ويخزي عليه عين الحسود ، من كل إنس أو جن ، عندما يستأذن رفاقه في أن ينصرفوا حالا - إذ ذاك - لأن عروسه بها وعكة خفيفة ، مع مناداة نساء عارفات ، وبالخصوص مغادرة أطلنتيك موكادور ؛ وهاهي ذي

عروسه الحبيبة للأصفية أفاقت بخير وعلى خير ، في دارها وبيتها ، دار عزها . . . وهاهوذا كيد الحاسدين والأبالسة يعود إلى نحورهم فليموتوا غماً وغيظاً .

تحكي النكّافة بمرح تفاصيل الليلة ، ما تذكره صفية وما يغيب عنها ، تحكي النكّافة بكامل بشر وخفة ، ملتفتة بين الحين والآخر تجاه زْحومة ، تستشهدها بإشارة وحركة ، مستثيرة همتها لمشاركتها ، لتومئ هذه مجرد إيماء صامت بالإيجاب والتصديق .

ذاك هو ، فقط ، لا غير ؛ ولتسلس صفية بعد ذلك ، تنقاد ، تستسلم . . . تسلمه نفسها ، نعم أخيراً تسلمه نفسها ، ولتعطي من ذاتها كل شيء فيها ، كل ما يريد الزوج فؤاد فيها ومنها على الأصح ؛ نعم ، كل ذلك وبتمام علمها ووعيها ، هكذا بشعور منها كاللامبالاة . وماذا بعد؟

ماذا إذا لم تذعن للأمر الواقع؟ وماذا لو تنقاد وتسلس؟ إلى متى هذا أو ذاك؟ ماذا لو كان هذا أو ذاك من أول وهلة ، أو بعد مدة؟ سيان . ولو أن المنطق ، وليس منطق زينب أو زْحومة وحدهما ، وإنما منطق الكون كله من حول صفية ، يؤكد بالمباشر وغير المباشر ، من حركات وكلمات وحكم وأمثال ، أن الأصل في الأمور الزوجية وليس مجرد الصواب ، ناهيك عن الخطأ ، أن تدخل صفية في العلاقة مع زوجها كبقية الأزواج من خلق الله ، بما يعني وجود الإرادة والرغبة والميل ، بما لا يتحمل أدنى إشعار أو شعور ، برضوخ أو إذعان واستسلام .

أذعنت ، انقادت ، سلمت واستسلمت . . . لم لا تقول : اختارت ، أرادت وقررت؟ لا عن حب أو رغبة بالضرورة ، إنما من أجل الحراشف الخواشن الأربع لذاتها في ذاتها ، من أجل ذاك الزحف

البطني الثقيل البطيء على الفراش ، بين الأغطية ، تحت الوسائد ، طي الأردية والستائر ، في كل ركن وزاوية ، حيثما تفتح صفية عينيها أو تدير وجهها ؛ ذاك التربص الدائم بها . . . أرادت ، قررت أن تقتحم خيالاتها المريضة ، تنهي عذاباتها ، أقدمت على الفراش مغمضة العينين أو شبه ذلك ، كمن يرتمي في المجهول ، غيهب لجة أو عمق فوهة ، لا ليقضي أو يحيا ، ولكن لمجرد أن يحس أو لا يحس ؛ ولم لا يؤخذ الأمر منها على أنها خطة حرب ذاتية ، بينها وبين نفسها ، بما يعني أن خير الدفاع الهجوم ؛ إذن فبدلا من أن تظل أسيرة أوهامها المرعبة من الفراش ، عليها أن تبادر من ذاتها ترتمي في طياته ، تنحشر مغمضة العينين أو مفتحتهما ، لا فرق ، لأن ما يداهم الرؤية والشعور ، لا يوقفه شيء أو يعجزه ، بل يداهم في كل حال من إبصار وإغماض .

هكذا تخترق صفية الفراش بقشعريرة التوجس ، تنضو ما عليها لتنحشر بدون حماية ، عارية كما هي ، مشرعة ذاتها لخبش الخواشن تحيط كيانها ، تدميه حيثما مست أو حضنت بغاية رفقها البغيض الثقيل الأليم ، تُسلم لحركة الزاحف البطني المترجرج فوق بطنها ، تفتح شدقها للسان السوطي اللزج المديد ، يتسلل عابثا بلهاتها ، عمق حلقها ، يتمصص كل ذرة ندى في كيانها ، متغذياً بها . . . لا . لا . لا شيء من ذلك ، وهمية خيالات مريضة تلك ، لا شيء من ذلك ؛ الفراش كما تقتحمه ، تنحشر فيه ، ليس فيه من غير المعهود سوى برودة عادية ، قبل أن تسري فيه حرارة آدمية الجسد ، والجسدين بالأحرى ؛ لا . ولا شيء من خيالاتها تلك ، لا خواشن أربع ولا . . . إنما هي في الواقع نواعم أربع ، أطراف فؤاد تحتويها في غاية نعومة ، وملاسة بطنه على بطنها ، ورضاب برطب لسان ، لا ما يثير ارتعاباً في

الكيان ، أو قشعريرة خوف ، إنما البرودة تتوالد ، تتقوى ، تعم كل كيانها الممدد على الفراش من أخمص قدم ، إلى أخمص رأس ، في وضع أفقي بلا قمة ؛ لا قمة أبداً ولا منحدر ، لا درجة ولا مستوى ، إنما إحساس رتيب كئيب بالغ الكآبة والرتابة ، ببرودة تلحم كيانين آدميين . . . فؤاد في نهاية الأمر ، يتبدى لا عن وحش بمخالب وأنياب ، كما دأبت تلك الصور المركبة الملفقة تعمر رؤيتها لكل فراش ، أو ما يمت إليه بصلة ، ولا عن زاحف بطني تتقلص عضلاته الرخوة متداخلة في بطء حركة أبدية على بشرتها ، مولدة فيها ما تولد من مغص وتقزز . لا . لا شيء من ذلك المتخيل المريض ، لا شيء يرعب في الواقع ، وهي ما تفتأ تقدم وتقتحم ، إنما في كون الموات الكئيب الرتيب ، في برودة تلحم بشرتين ، تلم كيانين ، تلف كائنين متحركين ، إنما بلا أثر من حرارة أو حياة .

حلاقة ثريا ، يتملى سامان واجهة محل الحلاقة ، باللوحة المكتوبة أعلاه بخط ملون عريض ، تزينها من طرفيها صورتان لرأسي امرأتين ، على نحوين من تسريحات شعر نسائية ؛ ينظر إلى العنوان على الورقة في كفه ، يسرح النظر في الشارع العريض من حي المحيط بالرباط ، يعج مساره بحركة السيارات في اتجاه واحد ، كما يعج جانباه بمحلات لمختلف الأنشطة والحرف : مرائب ميكانيكة ، دكاكين غذائية ، صيدليات وعيادات طبية ، معروضات أفرشة ، تجهيزات وأدوات كهربائية منزلية ، مصنوعات خشبية .

ينظر سامان حوله في اتجاه حركة السيارات ، يتريث ثم يخطو قاصداً وجهة محل الحلاقة ، يرفع خيوط الستارة الصدفية المدلاة على الباب المنفتح على الشارع ، يطل ببعض تردد ، تطالعه سحنة بوتو في وزرة بيضاء ، تعالج ترتيب شعر إحدى الزبونات ، تتهلل في وجهه محيية مع عبارة ترحيب ، وهي تومئ باتجاه فتاة منهمكة في إعداد خليط بعض مركبات تجميلية ، كأنما تقدمها له . . .

- مدموزيل ثريا . . .

يبتسم سامان محيياً ، بينما تردف بوتو موضحة أن المدموزيل ثريا هي صاحبة المحل ، لتلتفت باتجاه ثريا تقدمه لها بدوره

- سامان صديق

تهش ثريا في وجهه مومئة بالترحيب ، دون أن تكف عن حركتها

ونظرتها المراقبة لما بين يديها من خليط ، وسرعان ما يبدو أن ما بيديها قد استوى أو أخذ حقه ، لتضعه جانباً على الرف وتأخذ مكان بوتو ، متيحة لها فرصة التفرغ لمحادثة سامان .

بإشارة خفيفة من يدها تشير بوتو لسامان بالانتظار ، متوجهة صوب باب في صدر المحل ، تغسل يديها ، تنشفهما ، ونظرتها على صورتها في المرآة ، لتعود مومئة لثريا بعبارة شكر وامتنان .

ترفع بوتو ستارة القاعة إلى الخارج ، لملاقاة سامان ، يتبادلان قبلتي تحية على الوجنتين ، بظاهر بشر وارتياح ، يمد سامان يده تجاه يد بوتو المداعبة باستمرار ولاوعي ، قلادة الناب العاجي المعقوف المدلاة حول رقبتها وأعلى صدرها ، يبتسم سامان وهو يلمس القلادة ، يمسكها مدنياً إياها منه ، مقبلا لها بدوره ، كما يرى بوتو تفعل ذلك باستمرار ، كأنما يستعيد كل منهما في هذه اللحظة ، وبحركته تلك ، جزءاً من ذاته ، عبر استرجاع ذاكرته بلقاء صاحبه ، باعثاً في الأعطاف فوح نسمات ليلية ، ذكرى خطو متهاون بين متراص آليات وأكداس حاويات رصينة مكينة في جمودها ، عبر فضاء ميناء طنجة ، تجلل أضواءَه المتفرقة الباهتة غلالةُ ضباب يتكاثف . . . أربع سنوات . . . أكثر؟ أكثر . تمضي سنوات على لحظات ذاك اللقاء بلا موعد وإنما بصدفة ، بخيبة رحلة وهمية موهمة وصدمة ، سنوات تنقضي محكومة حاكمة بمقتضى أحوال وتحولات كل منهما ، مفرقة مباعدة بينهما ، كل لشأنه ، لا خاطر لأحدهما عن غيره وما كان ليكون ، ولا من خبر ، حتى ليبدو غير وارد في الحسبان ، لقاء أحدهما بالآخر .

أوه . . . تنتفض بوتو بحركة خفيفة من رأسها ، كأنما تطرد عنها تلك الصور ، أو تعمل على الخروج من إطار ذكرها إلى الحاضر ؛ تكرر

سؤالها عن أحوال سامان بعد كل هذه المدة . . .

- سافا ، سافا . . .

لا بأس ، لا بأس ، هو بأتم خيـر ، يمارس عـدة أشـيـاء منذ ذلك التاريخ ، وأيضاً منذ حلوله بالرباط ، عدة أشغال ومهن ، وهو الآن في شبه عمل دائم مستقر إلى ما يدري من حين ، ما يزال الآن يعمل حارس سيارات ومنازل في ساحة حي التقدم ، يتناوب ما بين ليل ونهار ، مع الحارس بّالعربي وهو صديق أنيس عزيز ، وصديق ظريف ، يمضيان معاً ساعات مسائية أو صباحية مشتركة في البسط والهذر ، عند نهاية نوبة كل منهما ، وبداية الآخر .

نعم ، وبوتو بدورها تنتهي بعد تقلبات عدة ، من بائعة فراشة ، ونادلة في مقهى بالدار البيضاء ، ثم في الرباط أيضاً ، إلى أن تجد ضالتها في هذا المحل ، لتوظف بعض ما أدركت من خبرة بسيطة قديمة التقطتها صدفة في مجال التزيين والحلاقة النسائية ؛ وقد أسعدها الحظ بالمدموزيل ثريا ، صاحبة المحل ، خريجة معهد التكوين في الحلاقة النسائية ، وهي حديثة العهد بالحرفة وبهذا المحل الذي تفتتح به حياتها المهنية والعملية ، ويشجعها خطيبها عادل كثيراً على ذلك .

أوه ، تتوقف بوتو معتذرة على إثر ولوج سيدتين المحل ، تعتذر لسامان ؛ المهم أنه يعرف المحل الآن . . . لا ، الأهم أيضاً أنه يطمئن عليها ، وهي بدورها تطمئن عليه . . . إذن ، إلى اللقاء . . . وعلى اتصال بالتلفون . . . باي . . .

ألا يعلم أنها متزوجة؟ يعني . . .أنها على الأقل ، ما تزال على ذمة رجل كما يقال ؛ طبعاً لن يفهم بعض مشاكلها تبعاً لذلك ، ولا تريد له أن يفهم . . . هي بدورها صفية تشعر بأنها لا تفهم ، وإلا لكانت على طريق آخر ، لا على طريقها الآن ، طريقها . . . ثم هو ما شأنه ، ليعلم من أمرها أو لا يعلم؟ أتكون أخبرته؟ ربما ، بكيفية ما ؛ وربما هي للآمليكة التي لا يخفى عليها شيء ، والتي تدس أنفها في كل شيء ، ولا يبقى في سرها شيء ، تفعل ذلك عن طبيعة غربالية ، وأيضاً عن محبة للكل ؛ أتكون فعلا للآمليكة أخبرته؟ أخبرته إذن ، حتى وإن لم تكن تعلم بالتفاصيل والحيثيات . . . ربما . . . ربما ؛ وقد يكون من ذاته سامان ، خمن وفهم من حالها ما فهم ؛ ولكن ولكن ولكن ولكن على كل حال ، مهما يكن من أمر ، سواء فهم من ذاته أو أخبرته صفية ذاتها تلميحاً ، أو هي للآمليكة من فعل ؛ فلم تكن صفية لتقول له : إنني هنا ، وضعيتي هي كما هي ، أنتظر من يطرق غرفتي ، ويرتمي علي إحساناً منه وامتناناً له . . . أتكون صفية قالت ذلك؟ أتقول ذلك لسامان أو لغيره؟ يمكن ذلك ، يمكن إنما في حال ما تكون قد فقدت كل ما فيها من بقية تمييز ، كل العقل ، كل الكرامة ، كل الخجل ، كل الإحساس . . . يمكن؟ ما كان ذلك ليكون ، وإلا كيف كانت لتغلق بابها عن كل راغب ، وما أكثرهم قبل سامان وبعده ، وغير سامان؟ امرأة تعرض نفسها على مصراعيها ، من لا يستجيب؟ لا .لا . ما كان شيء من ذلك ليكون من قِبَلِها ، لأي أحد مهما يكن ؛ هي

أعلم بأن امرأة بدون زوج ، متزوجة سابقاً ، بغض النظر عن وضعياتها من مطلقة أو معلقة ، هي أم كل المنى والطلب ، لكل من ولدته أمه ذكراً ، وصفية تلقى يومياً من ذلك الكثير ، مما تغض عنه أو تتجاهل أو تتجاوز . . . إذن هو سامان الخدوم ، بما فيه من تطوع وتواضع ، وما هو عليه من حال غربة أهل ووطن ، يمتلك كل هذه الجرأة ، إن لم تكن القحة والوقاحة البالغة التي ما فوقها فوق ولا تحتها تحت ، ليقتحم عليها خلوتها عنوة ؛ الباب . . . باب الشقة تغلقه عليها بالمفتاح ، تديره في القفل دورتين كاملتين ، ضاغطة عليه كعادتها إلى أقصى حد ، وغالباً ما تراجع ذلك بغاية التأكد ، عادتها تلك لا تخلفها ، بل يبلغ بها وسواسها أحياناً ، أن تدير أكرة باب الشقة الوحيدة المجاورة لشقتها ، للتأكد من أنها بدورها مغلقة ، مع علمها مسبقاً ، أن الشقة تلك ، في ملك أسرة مغربية مهاجرة تعيش في أوربا ، ولا تعمرها إلا حين عودتها في عطلة صيفة سنوية ؛ وتذكر دائماً حركتها الآلية ، لتثبيت المفتاح في مسمار الرافعة المسمرة على الجدار جوار المطبخ ، حركة آلية منها يمكن أن تأتيها مغمضة العينين ، مرتبطة بذكرى زميلة كانت طالبة معها بالمركز التربوي ، أوصتهن بتجنب الخطأ المميت ، بترك المفتاح في القفل الموصد ؛ أبداً لا يجوز ترك المفتاح في قفله ، بزعم أن الإقفال من الداخل على هذا النحو ، مع ترك المفتاح في القفل ، يشكل عائقاً فعلياً وإضافياً ضد الاقتحام ؛ لأن أياً كان من المقتحمين العارفين المهرة ، يمكنه من الخارج أن يدير بحذق بالغ ، المفتاح في قفله الموصد.

لا تستشعر صفية في موقفها خوفاً ، ليست مرتعبة ، أبداً ، ربما هذا عجيب منها في موقف تهديد كهذا ، نعم هذا ما تتعجب منه ، من نفسها ، رغم ما يحصل ، وما هي فيه من موقف ، ليست أبداً خائفة ،

على الإطلاق ، ولا هي مرتعبة أو تشعر بانخذال ما في ذاتها ظاهراً وباطناً ، بقدر ما هي حائرة وإلى حدما قلقة ؛ لذلك لا تملك إلا أن تجمع الغطاء الخفيف حولها ، تلف كل جسدها ، بعد انتعاشة حمام مسائي مريحة ، حازتها قبل توجهها للفراش ، تجعلها أكثر استرخاء وأوفر راحة في نومها .

إحساسُها الآن قوي بالغ اليقين ، بأنه يقطع الصحن بخطوات حذرة ، ويتقدم نحو غرفتها ؛ هكذا يفعلها إذن سامان ، ولا يكون إلا قد استنسخ المفتاح في غفلة عنها ، بل بتيسير منها دون وعي وبتمام غفلة وبالغ ثقة في الغير ، وهي التي طالما سلمته المفتاح لإنجاز شيء ، أو أداء خدمة في غيابها أو حضورها ، بل وتذكر أنها أكثر من مرة ، قد هاتفته في حاجة لها . . . والمفتاح؟ إنه هناك ياسامان ، هناك ؛ وتُعْلِمُه ببساطة ، قل ببلاهة ، أن المفتاح تحت قاعدة المزهرية الكبيرة الجافة بمدخل العمارة ، تركته هناك لأجله بقصد أن ينجز لها ما ينجز ، وأن يترك لها بدوره المفتاح حيث يجده ؛ فعلها إذن سامان ، وكل ما تفعله صفية الآن ، ما ستفعله في موقفها الحالي ، وهو يقتحم خلوتها ، وهي في تمام وعي وصحو ، وفي أوج قدرة على فعل ما تريده ويستحقه هو على فعلته الشنعاء ، أن تنتظر بغاية هدوء ، حيث هي وكما هي ، بدون أدنى حركة أو حس ، حتى آخر المطاف ، لترى وتتأكد مما لا يحتاج إلى تأكيد ، لتقوم حينئذ وبلا أدنى تردد لتضرب بقوة ، وبما يمليه الوضع ، نعم ودون تردد أو أي حساب مهما يكن ، إلا أن تثبت كرامتها ، وتثبت خطأ الحسابات الذكورية اللصوصية الفجة ، في عقول كل من هو سامان على وجه الأرض . . . بضاعة هي؟ سهلة المنال؟ يا للهول ، ياهول حسابات ذكورية بئيسة ؛ وحتى لو وقع ما لا يمكن أن يقع ، ما لن

يكون حتى من غيرها من النساء - أي أن أمرأة تعرض نفسها لأي راغب - فأحرى منها هي بالذات، فآخر من يكون لها به شأن، هو هذا، سامان بالذات . . . لماذا؟ هي حرة، وعلى كل حال، ليس ذلك للونه أو غربته أو قلة ذات يده، وليكن حتى لشيء من ذلك أو لذلك كله مجتمعاً في هذه اللحظة؛ أليست حرة في ذاتها وما تفعل؟ هي حرة، ولو أرادته فعلا ورغبت فيه فعلا، لأرادته للونه بالذات، ولفقره بالذات، ولغربته . . . لماذا؟ هي حرة . . . وفوق ذلك ألمْ تُنقش في وجدانها عبارتهم المألوفة، يرددونها في أسماعهم منذ الصغر: أسود من جلده، أبيض من قلبه؟ وفوق ذلك كله، هذا الهراء الموسوس في دماغها الآن كله، كله، إنما هي تسايره مجرد مسايرة، وإلا فهي حاسمة فيما ترى: هي متعلمة، معلمة أستاذة ومؤمنة، لا فرق إلا بالتقوى والإنسانية، لا فرق، لا فرق . . . وإذا كان من فرق، فهذا سامان وسيم، قوي وجميل . . .هراء، هراء؛ إنها الآن تهرف، ويذهب بها هراء الخرف إلى شفا هاوية، في لحظة حرجة من ليلها ووحدانيتها في بيتها، ومع واقعة اقتحام جارية لحرمتها وكرامتها، إلى أن تتناسى أنه هو الآن سامان الوقح، يتلمس طريقه إليها، لماذا؟ وكيف؟ لن يكون ذلك لخير منه تجاهها، أو تطوع لخدمة يؤديها لها بأجر أو بغير أجر، في هذا الوقت من ليل وساعة من غامق نوم، وبطريقة تلصصية تلبسية . . . لا . أبداً أبداً . . . لا خير فما يقع ويجري الآن؛ سنرى، سترى، عليها أن ترى وبجد الجد .

على كل حال، لن تتساهل معه في هذه، رغم كل عطفها تجاهه، وهو يستحق فعلا كل العطف، لجاهزيته في أداء كل شيء لصالح الحي والعمارة وساكنتها والناس أجمعين؛ لكن . . . إذن هاهوذا . . .

تستشعره يتقدم ، سيشعل النور أو هي التي ستفاجئه به من الزر المحاذي عند رأسها ، إنما تترك له الفرصة ، مستشعرة أنها في أتم حال للرد بالفعل المناسب في اللحظة المناسبة ؛ يبدو كالمتردد في إشعال الضوء ، تشعر منه بذلك ، يخشى أن تستيقظ بأدنى حركة غير محسوبة منه ، لكنها تتحسس نأماته الخفية ونواياه المبيتة ، يحسبها في عمق سابع نومة ، إنما لِتبقَ في حالها ، مظهرة أنها في أعمق نومة كما يريد ويعتقد ؛ هي أيضاً تستشعر متعة ما ستفاجئه به ، من أنها قوية وأقوى مما يتصور .

تبدو أنفاسه كما لو تقطعت بلا أثر ، فهي لم تعد تتحسسها ، رغم أنها يجب أن تكون أوضح في الحس والسمع ما دام يتحرك مقترباً باتجاهها ، إلا أن يكون قرر الانسحاب ، ولن تترك له هذه الفرصة أيضاً ، ستفاجىء حركة انسحابه بقفزة يقظة ترعبه وتشله ؛ بيد أنها تستشعر حركة واهنة معها في الغطاء ، كأنما هواء يتسلل إليها ، هو إذن لم يندس معها في الفراش ، وإنما يحاول ذلك ببالغ الحذر ؛ الآن تتحرك بقوة ، تتحفز ، لكنها مشلولة كلية بقبضتي ذراعيه حولها ، وهو يمسح بشفتيه كل جسدها ، مشلولة بعناقه ، ومتمسكة به كما هو متمسك بها ، رغم ما فيها من قوة رغبة بعيدة في أعماقها ، لتزيحه بعيداً عنها ، دون أن تستطيع إلا مزيد التحام به . . . دفء بشرة منه ، قوة احتوائه ، حرارة أنفاسه تلهب جوانحها ؛ يلثم ، يمسح ، يشهق ، ينثر في سمعها كلمات غريبة من أدغال عوالمه ، لا تتبين ما يتسرب في كيانها من عبارات أغواره ، لكنها تترسب فيها بإيقاعات مقطعية أحـ . . . بـ . . . ك أحبـ . . . ك يلثم ، يمسح ، يشهق ، أحبك أحبك . . . تلثم بدورها ، تشهق أحبك أحبك . . . يلمس يلثم يلهث . . . ورخو ملاسة

يحتويها ، دبيب ملاسة بطنية وجفاف يلمها ، لا تملك رغماً عن إرادتها ، إلا أن تلمه بدورها ، تضمه إليها بقوة ما يضمها ، لتلمس ظهراً حرشفياً قشرياً على أديمها ، تتلمس . . . لا . . . تقفز قاعدة في الفراش . . . يشع النور ، تتلفت حواليها ، تحدق في كل شيء ، ملامح فؤاد معها في فراشها ، تحيط بها حيثما التفتت . . . لا . لا . لا شيء . . . لا شيء . . .

تمسح عنها عرقها المتصبب بطرف الغطاء ، تجيل نظرتها فيما حولها متأكدة من وحدتها التامة في غرفة نومها المغلقة ، كيف تتسرب الصور إلى الدماغ ، ما الذي يحركها ، يركبها بعضاً على بعض ، دون اعتبار للتنافي والتعارض؟ ما الذي يدعوها بلا رغبة ولا استئذان ، أو لا يدعوها أصلا . . . أم هي تقطن الجوف ، تعمر القلب والدماغ؟ ألا يختار القلب إذن ما يريح ، دون غيره مما يزعج ويرعب؟

تمرر لـمّة الغطاء حول رقبتها ووجهها بقوة ، كأنما تمسح من خاطرها في الآن نفسه ، صور كابوسها المرعب الجميل ، تتجول بنظرة متفحصة حواليها . . . لا شيء . . . تجلس على حافة الفراش ، تلتقط أنفاسها المضطربة المتلاحقة ، تتحسس رقبتها المبتلة عرقاً ، وحلقها الناشف ؛ تنهض تنشد قطرة ماء .

وحده الطريق كان دائماً يسير ، تركبه بوتو لأنها توجد فيه وحده أصلاً ، لا في غيره من مسلك وطريق ، تطويه ، أو ينبسط ويطوى لها ، إنه ليلتوي تحت قدميها مباشرة حيناً ، وتحت عجلات عربة تحملها حيناً آخر ؛ صوت ماري يظل يسكنها ، يعمر أعماقها ، كالهمس القوي في سمعها منذ عرفتها ، كالصدى الخفي ما يفتأ يتردد بين جوانحها ، إذ هما الاثنتان على عتبة منزل ماري عقب زيارة بوتو الأولى لها ، في لحظة افتراق ، وداع . . .

وداع إذن بلا لاحق ، نعم وداع . . . إنما ، إنما . . . آه ، شيء نافل ، ثانوي جداً ، وبلا أية أهمية تذكره ماري ، وهو يخصها شخصياً . . . شخصياً تماماً ؛ عندما قررت ماري اقتناص لحظتها ، كانت حازمة حاسمة وصارمة حتى مع نفسها ، فهي لم تخبر أحداً ، بما يجول في ذهنها وما تهيئ له ، ولا أعلمت أحداً بيوم أو لحظة رحلتها ، لا أقارب ولا أهل ولا أصدقاء ، حتى أبويها . . . قررت فقط ونفذت فقط ؛ قدرت أنهم سيتألمون ، وهم يفتقدونها فجأة دون سابق علم أو إنذار ، والأكثر من ذلك أنهم لا يعرفون عنها وجهة ولا وضعاً أو مصيراً ؛ وقدرت ألمهم الأكبر ، وهو أنهم غير عالمين ولا متيقنين بسبب اختفائها ، أما أن يخطر ببالهم أنها رحلت بتدبير ورغبة منها ، فهذا بعيد وأبعد ما يكون عن الاحتمال في أذهانهم ، سيتألمون وينعونها نعياً في جهل تام بمصيرها ؛ لكنها لم تضعف أمام كل هذه التصورات ، وأخلصت لعزمها وعزيمتها ، فقط ؛ أنصتت لصوت مصلحتها ومستقبلها كما تريده هي ، لا كما

يريدونه لها ؛ إنما بعد ما وطئت ماري الضفة الأخرى واستقر حالها واطمأنت ، بعثت رسالة مطمئنة ، رسالة في ذلك الوقت كانت تتطلب وقتاً ، وليس كالآن وبالوسائط المتاحة للاتصال حالياً ، ثم بعد شهور تبعث ماري المال والهدايا للأهل ، لتعود بعد سنتها الأولى ، في عطلتها محملة بما يسر ويبهج الجميع . . . آه . تظهر على بوتو إيماءة خفيفة تلتقطها ماري

- نعم؟ هه؟

تبدو بوتو متراجعة مترددة ، إيماءتُها كانت كما لو تهم بمقاطعة حديث ماري بتعليق أو استفسار ، تتساءل ماري عما تخفيه أو تتخفى عنه بوتو التي تظل محتمية بالتردد . . . لا لا ماذا؟ يجب الوضوح في كل شيء . . . أختك صديقتك ماري . . . هه؟ ماذا؟ لا شيء ، لا شيء لدى بوتو . . . مجرد خاطر ، فكرة طارئة ، طائرة أو حتى طائشة ، وفي غير وقتها على كل حال ؛ تلح ماري لتعرف ، لا مجال للتخفي أو الإخفاء ، يجب إفشاء كل ما يخطر بالبال ، كل شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً ؛ ولكل مشكلة حل ، إن كانت هناك من مشاكل ، لا بد من تمام الوضوح منذ البداية ؛ من يطرق الباب ، لا يعدم الجواب . السؤال في وقته ، قد يكون مشكلة في حد ذاته أو يطرح التباساً ، لكن طرحه ضروري للسير والتقدم ، والجواب هو مفتاح المشاكل كلها ؛ هيا قولي . . .

لا لا شيء ذو أهمية . تحرك بوتو رأسها يميناً وشمالا ، نفياً لأن تكون لديها أية مشكلة ، لا . لا . لا شيء ذو أهمية ، إنما بمناسبة ذكر ماري إرسال المال والهدايا لأهلها من . . . من . . .

- ستوكهلم . . . السويد؟

تردد بوتو اسم المدينة والبلد كما تسمعه من ماري ، لتستأنف أن

هناك بالفعل سؤالا أو فكرة ، تراود بال بوتو ، تتعلق بالمال اللازم للوصول إلى . . . هناك السويد مثلا؟ آه . الرحلة والمصاريف؟ لا ليست فوق الطاقة ، طبعاً مكلفة بعض الشيء لمن لا يستطيع . . . مثلا حالة بوتو وهي ما تزال بدون وظيفة ولا دخل . . . لا بأس ، توجد دائماً مفاتيح ، هناك تسهيلات ؛ بوتو إذا رغبت ومتى عزمت ، ليست الأولى في هذا الباب ، ولن تكون الأخيرة ، وإلا لماذا تكون ماري أختاً وصديقة؟ ما نفع الأخت والصديقة إذن؟ لا مشكلة أبداً . وداع . وداع .

آه . وداع إذن . . .

ويبقى أمر تافه عالق بذهن بوتو مرة أخرى ، لكن ذلك يخصها وحدها ، فيما بينها وبين نفسها ، وحدها لذاتها ، أمر تافه هو ولا أهمية له إطلاقاً ، لكنه يراود ويظل ملحاحاً شاغلا بال بوتو ، ولو جانبياً بعض الشئ ؛ إذن طبعاً ، لو أن الأخت والصديقة ماري في بداية أمرها ، وكما لمحت بذلك دون أن تقصد شيئاً من ورائه ، أو أن بوتو في الواقع أو على الأصح كما هي الآن ، هي بذاتها بوتو التي فهمت من كلام صديقتها أختها ماري ذلك المقصد ، وهو المتمثل في أن ماري ، سواء في بداية أمرها ، أو في أية مرحلة من شأنها ، لو أعلمت أحداً بقرارها ، لأفسدت كل شيء ، لن يتركوها تذهب ، يحبونها طبعاً وتحبهم ، أهلها الأقارب والأصدقاء ؛ هذا يجب أن يكون له معنى لدى بوتو ، وهو ما يشغل بالها الآن حقاً ، حتى وإن لم تكن ماري تقصد شيئاً منه لا تلميحاً ولا تصريحاً ؛ كانت محقة ماري فيما فعلت ، وإلا ما كانت لتنجح . . . ذاك له معنى ؛ طبعاً ، بالكتمان بالعزيمة والحسم وبتمام السرية ، تُقضى وتنجح الخطط والمشاريع .

وداع . . . وداع . . .

لم يكن لبوتو بدورها أن تُعلم أحداً أيضاً ، هذا هو المعنى ، وإلا كانوا ليثبطوا همتها ، وإلا ما كانت لتتسلل منفردة عن زميلاتها والزملاء في الإعدادية ، مستعجلة متطلعة للقاء ماري ، حيث كانت تجدها في نقطة معينة بالذات ، كأنما تنتظرها قبل الميعاد وعلى ميعاد ، بينما هي في الواقع كانت تنبت فجأة ، تنبثق من فضاء أو تنشق عنها أرض ، أو كأنما تتنزل إسقاط لحظة من سماء ، إنما كانت تنتصب خطواً ، ظلا وشخصاً ، هنا تماماً في هذه النقطة ، حيث تتطلع بوتو إلى أعلى وأسفل ، وإلى كل اتجاه دون جدوى ، ولأكثر من مرة ، حتى لتتخلف بوتو عن مدرستها ، وتقضي كل الوقت في انتظار ظهور أو حضور صديقتها أختها ماري ؛ إذن تكون بوتو أخطأت ، تأخرت في الاستجابة ، كان عليها أن تقول نعم ، وتكون جاهزة مستعدة حازمة وحامدة شاكرة منذ سنحت الفرصة ، لا أن تسمع كل شيء ، وتذهب لحالها دون تبيان شيء من قبول ، بل من تشبث بفرصتها المواتية ، كأنما ستفكر في الموضوع ، كأنما الفرصة السانحة تحتمل تفكيراً في موضوع ؛ طيب . . . فكّري ، فكّري يا بوتو الغالية ما شئت ، لكن الغير لا ينتظر ، فكّري أنت يا بوتو وعندما تحزمين أمرك ، فالفرصة والسعد والحظ في انتظارك . . . يا سلام . . . والغير؟ من لا يضيعون وقتاً في التردد والتفكير ، ويفضلون القطار الطائر ، لا الأسرع ولا السريع . . . ألا تكون فرصتك اقتنصها غيرك ، وأنت في حمأة التردد والتفكير؟ فكّري إذن ، على مهلك ، خذي كامل وقتك وراحتك في التردد والتفكير ، وماري بلا شك وجدت ضالتها في غيرك ، وانتهى الأمر ، أو وجد الغير ضالته فيها على الأصح ، حتى مصاريف الرحلة يسّرتها ماري ، وتترددين؟ قالت لا مشكلة في المصاريف ، قالت بالحرف : المصاريف مشكلة ولها

حل ، لكل مشكلة حل ، هذا كل شيء ؛ إذن ضاعت الفرصة ، من يرفض عرضاً كهذا ، رحلة وشغلا مضموناً؟ وقالت ماري إنها هي نفسها ، لم يكن معها في بداية أمرها مصاريف الرحلة و . . . لكن هناك من يساعد . . . قرض يعني؟ فليكن . ليكن أي شيء ، الشغل هو الأساس ، الرحلة . . . لتكن حاضنة أطفال مثل ماري مثلا ، في بدايتها هناك في . . . في تلك المدينة ، وهو الشغل المتوافر والمطلوب أكثر من غيره هناك ، في السويد ؛ نعم هو البلد الذي ذكرت ، وفي غيره من بلدان تلك الضفة ، البلدان هناك تغلي بالشغل ، لا وقت فيه لأحد كي يرعى أطفاله ، إن كان له وقت لإنجابهم .

طبعاً ما كان لبوتو أن تتردد أكثر ، ولا لتُعلم أحداً بما قررت ، ولم يكن لها إلا الإشفاق من نفسها ، بل الهلع على ذاتها ، إذ لم تجد ماري في طريقها ، في نقطة لقائهما المعتادة ، وإلا ما كانت لتأتي الآن من ذاتها بذاتها ، تطرق منزل ماري غير مصدقة أنها ستجدها ، بعد أن فرطت فيها ، وضيعت فرصتها . . .

آه أنت؟ تبدو ماري متهللة برؤية بوتو ، لكن ببعض حياد واضح ، هل معناه . . .؟ تتطلع بوتو بإشفاق إلى شفتي ماري ، كمتهم معلق المصير بلفظة حكم . . . نعم؟ لا بأس ، تنفرج شفتا ماري عن ابتسامة خفيفة .

يُطوى الطريق من ذاته تحت قدمي بوتو ، مغمورة حتى الركبتين وما فوق الركبتين ، في طمي أحواض وبحيرات حيناً ، محمولة على خشبة مركب ومجداف حيناً آخر ، أو منقولة على عجلات عربة معطوبة ، مشياً ، قفزاً ، تستراً وتخفياً ، ليلا نهاراً . . . إنما لا توقف ، هو الطريق من ذاته ، يسير بها كيفما اتفق ، وهي على الطريق تسير كيفما اتفق .

لم ترافقها ماري كما كانت تقدر ، لكنها ضبطت لها الموعد مع من ينتظرها ويأخذ بيدها ، وستجد مثل ذلك في كل محطة من رحلتها الملتوية الشاقة الطويلة ، حتى الوصول إلى طنجة ، وهناك توصيها ماري بتأكيد خاص ، لتحرص على أن تقابل رايبلي شخصياً ، يجب كل التفطن والانتباه ، رايبلي بذاته ، لا أياً آخر غيره . . .

- رايبلي؟

تسأل عن رايبلي بالذات ، هذا ما عليها فعله بمجرد الوصول ، رايبلي هذا هو كل شيء وأهم شيء ، هو الرحلة من أولها لآخرها ، هو الشغل ، هو المال ، هو البحر ، هو السماء والمطر والشجر . . . كل . . . كل . . . هذا هو رايبلي ، ولا ما أو من يعادله ، أو يقدر عليه في العالم بأسره ، الكلام عن رايبلي هذا واقع وحقيقة ، وليس مبالغة وبلا أية زيادة ؛ هو كل شيء ، ومعه يسهل كل شيء ، بل يأتي من ذاته ، وينساق يسراً على يديه وبقدرته ، كل شيء ؛ إنما تؤكد ماري ، يجب مقابلة الرجل شخصياً ، لا شبيهه ولا غيره ، حتى لو كان من كان . . . تقول ماري ذلك ، لعلمها وليكون في علم بوتو أيضاً ، أن هناك من يدعي أنه وسيطه ، أو شريكه ، أو ينتحل صفته بالمرة ، ويكفي بوتو عند ذاك ، أن تذكر له كلمة مارينج ليعرف المرجع والمقصد . . . مارينج ، لا يجوز أن يُنسى اللفظ ، كما لا يجوز أن يُكتب أو يلفظ لأحد إلا في زمنه ومكانه . . . مارينج ومثله رايبلي هذه أسماء وألفاظ تحفظ فقط ، ولا تذكر على طرف لسان ، إلا للاستعمال عند الحاجة وفي الوقت المناسب ، وفي الظروف المحددة ؛ تقول ماري ذلك ، منبهة بحركة شبه لولبية من سبابتها تجاه دماغها ، مؤكدة ضرورة الفطنة والتيقظ ، وأن لا مجال هنا أبداً لغفلة أو سهو أو . . .

الحب . أحبك . هذا الشعور الذي يبعث في حناياك دفق دفء وحماية ، لأن طرفاً أنت منه ، يحبك . . . هذا الشعور الذي تمتلئ به لهفة ورغبة ، تجاه من هو في غياب أو حضور ، لأنه منك ، تحبه ؛ هذا المنشود المفقود من حال ومآل ، كيف لك ألا تجده ، وهو كل ما يعنيك دون ما عداه ، وما عداه كثير : رغد عيش ، متاع وضياعٌ وأتباع .

زْحومة غارقة في وجومها ، مقطبة الجبين ، يزداد جُمْع يدها ضغطاً على أسفل وجهها ، كأنما تمنع به عصيان لسان وتمرد أنفاس ، واجمة مجمدة الملامح ، لم تبد يوماً ، ولن تبدو أبداً ، على صلة بما تفيض فيه صفية من هذر ، تكرر وتعيد ما لا ينتج من كلام ، ولا يحتاج إلى كلام . . . ماذا أكثر من أن امرأة ، أية امرأة ، كيفما كانت وتكون ، هي سهم رجل ؛ والرجل أياً كان ويكون ، سهم امرأة؟ لا أكثر من ذلك ، لا أقل .

زينب وهي الأكثر الأقرب ، تؤكد أن كل شيء يولد بالعشرة ، مع العشرة . . . صحيح؟ طيب ، وها نحن في العشرة ، في عز العشرة تماماً ، وصفية تسلم كل ما عندها ، أو ما يمكنها أن تسلم ، في انتظار ما يأتي ولا يأتي ، ليقول فؤاد في خلوة لهما ، على فراش خلا من مشاعر الزحف الأبدي البطيء للأربع الخواشن ، صافياً من تقزز الذات إزاء المتميع الشفاف الرجراج بلا شكل ولا لون ، في حركة تدحرجه المتكورة لا يُتبين له من خلالها معلم ، حتى ولا ظهر من بطن .

الفراش الآن خال وفي تمام صفاء ، مما كان يخالط الكيان الأنثوي

من تقلص وارتعاب ، مما يتململ فيه بين الأغطية والوسائد ، أو يتحرك باتجاهه على البلاط والبساط ، من دبيب مسوخ خلائق مائعة متميعة بلا أشكال ، كائنات محرشفة متقشرة ، يبعث مرآها إحساس الخشونة يسري على أديمك ؛ الآن نعومة حريرية فراش عِشرة ، مخملي متداخل اللون بنكهة الهادئ المريح . . . لتقفز زينب بطيش طفلة مرتمية إلى أعلى ما تستطيع ، متساقطة بثقل وارتخاء فوق السرير الناعم النابض ، متمرغة في سعته ، تنشق بلهفة عبير آثار عطر وبخور ، مستلقية على ظهرها ، مفرجة كامل أطرافها على سعتها ، مشيرة إلى أختها صفية في غامر بهجة وانشراح ، مغرية لها بالارتماء في أحضانها ، منادية بهمس صدق وحرقة نصح . . . عيشي حياتك وما أعطاك ربك يا صفية ، تقولها زينب في شغب مرح هستيري ، مثَنّية متحسرة بتأوه ، أن لو لم تكن أختها العزيزة صفية ، من تنعم بحظها السعيد هذا ، لأكلها الغبن والحسد ؛ والدنيا كلها أرزاق وحظوظ ، وأنت صفية هذا حظك جاءك ، وتستحقين ، كلك الخير والبركة ؛ الوالد الحسوني والوالدة ، كل يذكر كيف كان ميلادك مطلع بركة على الجميع من صغار وكبار . . . عيشي حياتك .

وتتطلع زينب إلى صفية ، مستجمعة نفسها على طرف السرير ، لتنزل عنه في هيئة من تستعد لحديث جد ، متجهة إلى أختها في غامر سكونها وصمتها ، لتحيطها بذراعيها ، مقبلة خدها مراراً ، تسألها في بالغ تؤدة ومودة ، إن كان فؤاد وفياً بوعده وعند كلمته ، مردفة أنها لا تشك في أنه دار كبيرة وولد الناس ، لا يخلف وعداً ولا موعداً .

نعم . تسأل زينب بقصد وإلحاح ، عن تعهد فؤاد بأداء المرتب الشهري المعلوم لصفية ، نظير توقفها عن وظيفتها ، كما وعد به والتزم ؛

لا تشك زينب في ذلك ، وعندما تومئ صفية مؤكدة بالإيجاب ، تغمرها قبلات زينب وهي تغبطها على سعدها ، لتقوم بخفة صوب خزانة الملابس ، تنتقي ما تراه مناسباً وأكثر إثارة ، متفحصة متدبرة ، لتشير على أختها بارتدائه ، مع الإشارة إلى طاولة الزينة هناك ، لتقصدها بدورها ، مجربة بذاتها على نفسها ، ما على سفرتها من رفيع مزينات وعطور . . . عيشي عيشي . . .

عيشي يا بلادي عيشي ، عيشي يا بلادي عيشي

عيشي يا بلادي يا عز البلدان . . .

تدندن زينب بكامل ارتياح ، تردد وترقص متمايلة أمام المرآة على إيقاع الأغنية الشهيرة ، عيشي ، عيشي . . . عيشي ياختي عيشي . . . عيشي ياعز الخوات . . .

ذاك كل شيء . ها نحن في العشرة يا زينب . وتستطيع صفية الآن أن تسخر من تلك الصور والخيالات التي سكنتها وغشيت رؤيتها ، لكل ما حولها في فراش عشرة زوجية ؛ صفية الآن ، تقتحم مجاهيل الفراش مغمضة العينين بعزم وتصميم ، لتنغمر في المخملي الناعم المريح ، ماذا أفاد ذلك؟ ماذا أفادت من ذلك؟ برودة قاسية في الحنايا والتنايا في الذات والفراش على السواء ، برودة قارسة حد التجمد في الكيان ، كالحة حتى السواد في الرؤية ، مصمتة صلدة ، حد الموات في السمع .

يعود فؤاد إلى البيت دائماً في أي وقت متأخر من ليل أو باكر صباح يوم موالٍ ، لا بأس من أن تنتظر أوبته ، متسلية بمشاهد تلفاز لا ترى ما تعرض شاشته ، بقدر ما تخطر فيها متراقصة خواطرُها ، وهي تمضي الوقت متعللة بلعبة ورق ، لا تعرف مدارها ولا أسرارها ، متلهية

بعبث خياطة أو تطريز بلا إمتاع ولا جدوى ، متصفحة كتاباً مختلط المعالم والسطور ، لا تنفذ من تداخل اختلاطاته ، إلا لعوالمها الدفينة ؛ ماذا تعشق من ذلك كله أو تهوى؟ ذلك كله لا لشيء يتحقق ، لا لغير تزجية وقت يبدو ثقيلا متباطئاً ، حتى تنخذل قواها في النهاية ، لتندس في الفراش دون أدنى حس برغبة فيه أو عزوف عنه ، عدا أنه كل ما يمكن أن تفعل .

ولا تدري صفية كم يدوم بها ذلك أو يكلفها من دهر زمني ثقيل ، لتحس به يصل الغرفة ، فؤاد يدخل ببعض بلبلة من حركة وصوت ، لا بقصد إزعاجها على كل حال ، لعلمه أنها مستيقظة متابعة حركاته ، ولرغبته أيضاً في أن تكون كذلك ؛ تشعر به يرمي محفظته تحدث وقعها على الأريكة ، يغير ملابسه ، يتجه إلى الحمام ، ليعود إلى الغرفة ، يشعل سيجارة ويصب لنفسه مشروباً تعرف أنه إضافة إضافة ، فوق الحاجة والإضافة ، ليسود هدوء كحركة ساعة توقفت ، كأنما هو في عمق تأمل أو غياب ، لتستشعره إلى جانبها يحتل الفراش ، لا يتسلل رفقاً ، وإنما بحركة عادية لا تخلو من قصد ، يحركها تجاهه ، ينال حقه . . . لا تشعر ولم تشعر بأكثر من ذلك أو غيره : أنها حقه ، أو أن له عليها حقاً على الأقل ؛ ألم يقلها بمنتهى فخر : هاهي! كسب رهان . هي حقه إذن بكل شيء ، وبهذا الجسد بالذات ، وهو أيضاً لها ، وإن لم ترغب أو تشعر برغبة ، حتى وهو يحترّ ويفور على أديمها ، تعمل على أن تخلق فيها رغبة ما دون جدوى ، وصوت زينب من داخلها ، منبعث يدعوها أن تتصنع الرغبة ، لتولدها في ذاتها بالتحام معه . . . البداية ، مجرد البداية تكفي لتحريك الإثارة ، وحتى إذا لم يفلح ذلك مرة ، فالتظاهر بأنه أفلح ، يجعله يفلح في مرات تالية ؛ مجاراة في البداية ،

مسايرة عند اللزوم، صنع كأي صنع، ثم تترسخ العادة، ويأخذ كل شيء مجراه، هكذا لا أقل ولا أكثر.

فاقدة الإحساس تظل صفية، أبداً لم تسعد أو تتمتع، وحتى إحساس الألم أمنية تخذلها على الدوام؛ وكم تغيب عنها متوارية في البعد والعدم، كذكرى نائية لرعشة عميقة خاطفة تحت فراش طفولة مشترك، كانوا أسرة في زيارة قرابة عائلية، لا تذكر تفاصيل الأشياء، ولا سنها الذي قد لا يتعدى الثامنة بأية حال إذ ذاك، لكنهم كانوا في غرفة نوم واحدة، الخالة والوالدة زْحومة، كل على سداري مستطيل، صبيان أو ثلاثة في ركن على سداري مقابل، بينما في الوسط تحت غطاء على فراش أرضي، تنام صفية وإحدى بنات الخالة، الكل قرناء أو في سن متقاربة؛ لعله تعب شقاوة النهار، أو هو واقع معتاد إذ ذاك مع سن يفاعة، أن تغوص صفية كغيرها في إغراق نوم عميق، بمجرد غمرة الفراش، حتى قبل إطفاء الضوء، إذ تبدأ أحاديث المرأتين التي لا تتوقف، تتناءى في سمع الصغار وهم ينحدرون في وهدة النوم؛ هكذا تذكر صفية، لأنها في العادة كانت تستحلي وهي على عتبة النوم، أن تظل نأمات حديث الغير تخالج سمعها، حتى تتواهن في وقعها لتغيب كلية، وتغيب معها صفية في هناء متعة نومها العميق... كالعادة، لكنها لا تدري إن كانت في يقظة أو حلم، وهي تستشعر احتكاكاً ممتعاً لطيفاً رفيقاً بكيانها، حلم بلاشك تعي متعته وقوة رعشة غريبة تهز منها كل الكيان، لتنتبه من حلمها إلى التحام حقيقي منكتم اللهاث بسرتها، تفتح عينيها في الظلام على أكثر من حقيقة، وهي مسحوبة التبان في التحام لاهث بسرتها، تستحلي ما يجري، تستحلي دون أدنى حركة منها... لتملأ الأجواء حمحمة متكررة

وسعلات متتابعة قوية ، من شأنها أن تنبه من لا ينتبه ، إن كان القصد ذلك أو غيره ، لتتلوها حركة محسوسة متباطئة بحثاً عن زر الإضاءة ، كمن يفلت موقع الزر مرات قبل أن يصادفه ، ليعم النور ؛ وإذا صفية مغطاة بالكامل حتى قمة الرأس ، مكورة على نفسها ، غائبة في أعماق نومها ، كغيرها ؛ بينما يُستشعر وقع شبه صفع خافت ، مع حس لسع وقرص مسلط على أحد ما ، في غنة غضب وغيظ مكتوم ، عقاب ليل صامت ، يقابله تحمل وتألم في صمت مماثل ، لينجلي الصبح عن بقايا وآثار ما ، مرتسمة على خد أحد ابني الخالة ؛ دون أي شيء مما عدا ذلك ، ولا حتى إيماءة لأي شيء ، من أي أحد .

ملتحم بأديمها فؤاد ، حقه ذاك ولا من ينكره عليه ، إنما الرعشة الغامرة تلك ، متعتها الخاطفة الغابرة في ثنايا ذكر ويفاعة ، أين؟ لمَ تطفو الآن ذكراها الغابرة؟

صفية إذن مجرد قسمة وحقوق ؛ هي كذلك ، ولم تشعر يوماً من نفسها بغير هذا الإحساس ، من أولها لآخرها ، من أسفلها لأعلاها ، لا شيء منها لها ، لينال كل نصيبه منها بحساب وترتيب أو بدونه ، ودون أي اعتبار : حق الوالد الحسوني والوالدة رْحومة ، وهو حق البر والسمع والطاعة ، حق الأخت المجربة زينب ، بصب واجب إسداء النصح والتعقل ، حقوق من يُنعت شيخها الحاج أوناصار ، والحماة الموقرة زوجته وأم فؤاد ، كل بدرجة ومقام واحترام ، وبملزم استحياء وضروب تحملات ومجاملات .

تطرق عزيزة ببعض تهيب ، تنتظر لحظة ، تفتح الباب ، تضع يدها على ظهر بوتو ، تدفعها بلطف لتدلف إلى الداخل ، تغلق دونها الباب وتنصرف ؛ تلتفت بوتو بآلية إلى الباب الموصد خلفها ، تنظر حولها ، تملؤها رهبة المكان ، يشملها السكون وشعور الرتابة والنظام ، قاعة تبدو في ذهنها أشبه ما تكون ببهو انتظار عمومي ، في محطة مسافرين خلت من مرتاديها ، مع الفارق : الهدوء الشامل هنا ، يملؤك إحساساً بموت لم تجربه لأنك لم تمت أبداً ، لكن شيئاً غير محسوس ، يملأ شمك بريح الموت معطرة من حولك ، تغمرك كأنها فيك أو منك ، الفضاء صالة حقيقية فسيحة بأرائك وكنبات مختلفة ، موزعة على شكل مجموعات متفرقة ، كما لو كانت معدة لمجالس ، تتوسط كلا منها طاولات متنوعة تتناسب بكيفية ما ، لونا أو شكلا ، أو حجماً مع ما حولها من معدات مجلس .

تظل بوتو متجمدة قرب الباب الموصد خلف ظهرها ، تجيل بصرها بتوجس ورجفة فيما حولها ، لتقفز مستفَزة في موقعها ، على حس باب ينفتح فجأة ، من الضلع الأقصى للقاعة ، ويظل الباب منفتحاً دون أن يظهر أحد ، أو يبين عمن فتحه من الداخل ، وكأنما فُتح من ذاته ؛ تتمدد اللحظات ، تستطيل ، تستعرض ، وتظل بوتو أبصارُها عيونُها مفتحة مسمرة على فراغ الباب المفتوح ، دواخلها نهب حيرة وارتعاب ؛ مفتوح من ذاته الباب أم بفعل فاعل ، ولم؟ ما العمل؟ دعوة هي . . . إليها لتلج عبر الباب ذاك؟ تدلف إذن ، أم . . .؟ لا تملك إلا أن تكبح

فضولا يراود، في غير المناسب من زمان ومكان، لتحس بنفسها وكأنما بإرادة منها تزيد من انغراس وقفتها في عمق المفارش الثمينة الثخينة على الأرض تحت قدميها؛ لا عليها إذن من باب ينفتح أو ينغلق من ذاته، بريح، بانفلات مزلاج، بفاعل ما... لا يهم، لا عليها من ذلك، وإنما التماسك يخونها ووضوح ما تريد، أو يراد بها على الأصح... مارينج هذا ما تذكر ويجب أن يظل حاضراً في البال، لفظ لا يُكتب أبداً، لا ينسى أبداً، لا يُجهر به أبداً، لا يذكر أو يُسمع إلا لمن له ذلك، في إبانه ومكانه؛ وحده التماسك يخونها وملؤها ارتجاف ورهبة.

فجأة يمتلئ فراغ الباب بمن يمر عبره ومن يتلوه إلى فضائها، إنما لا يتجاوزان جوار فتحة الباب ولو بخطوة، كائنان بشريان، ما شاء الله هيكلا لكل منهما، يتسمران كساريتين على جانبي مصراع الباب، يبدوان كتوأمين تلوح بشرتهما المميزة بسمرة خفيفة، مقدرة بمقدار كقامتيهما وامتلاء كيانيهما، ينتصبان مخلفين أيديهما إلى صدرهما، مبينان عن انفتال عضلات وسامق بنيان، مجمدان في نظرتهما المفتحة عليها، المحدقة فيها تحديداً، والمسددة إلى كل شيء فيها، أو كل لا شيء فيها، بلا نأمة نفس منهما أو رفة جفن.

كالواقفة تبدو، يملؤها خواء يعم الكيان مركزاً في الركبتين، شبه دوخة تراود، وربما نذر غثيان... هنا؟ ليكن الموت أولى من ذلك وأحق، ذاك الذي تشممتْ ريحه حين ولوجها، دون أن تكون قد ماتت من قبل، أو قاربت جسد احتضار؛ فجأة ينصرّ هيكلا الكائنين البشريين في تحفز وتأهب، كدابة مستنفر كيانها، تنتصب أذناها استشعاراً لطارئ أو خطر مداهم؛ برهة ويملأ ثغرة الباب، شبح شخص

يتوقف في موقعه عند فتحة الباب لا يتعداها ، يتملى هيئة بوتو من موقعه أو هكذا يبدو ، يتملى على مسافة وبصمت كامل ؛ يبدو أشقر ، وضاح البشرة ، نحيفاً دقيق الملامح ، حليق الرأس ، تلتمع شقفة رأسه صقيلة تحت الضوء ؛ وما يلبث أن يعود منسحباً إلى الداخل ، ليتحرك الكائنان البشريان معاً بحركة آلية موحدة منهما ، يشيران إلى بوتو بالتقدم ، تتردد ، تتعثر ؛ الإشارة الآلية تجاهها بالسبابتين ، تعمل على اقتلاع قدميها من موقعهما على البساط الثخين ، تتحرك باتجاه الإشارة ، لتلج الباب المفتوح ، تشعر بالكائنين البشريين يلجان وراءها ، يوصدان الباب ، يحيطان بها من طرفين على مسافة خطوة أو خطوتين ، يواجهها مباشرة مكتب وسط الغرفة الصغيرة ، يجلس إليه شبح ذاك الأشقر ، مستغرقاً في قراءة أو فحص شيء أمامه ، ليرفع رأسه بعد مدة ، تبدو نظرته الخاوية إلى ما حوله ، أو نظرة الملكيْن الماردين البشريين له ، إيذاناً لهما بالانصراف ، لتستشعر بوتو حركة ذهابهما ، ويعود الصمت والسكون بعودة الأشقر إلى ما كان يستغرقه من قراءة أو فحص شيء على مكتبه .

رايلي ، تحدث بوتو نفسها ، لن يكون غيره ، وهو ما كانت تنشد ، ألم تطلب ذلك وتلح في الطلب؟ وصية صديقتها أختها ماري ، وقد لا يكون هو رايلي حقيقة ، كما قالت ماري وأوضحت ؛ شددتْ عليها في ذلك ، أكدتْ ماري على أن يكون رايلي الحقيقي ، لا غيره ، مهما يكن من أخ له أو صديق أو قريب له أو أي دعي وشبيه ، وما أكثرهم كما تقول في توصيتها ماري . . . إذن . . . رايلي . . . رايلي . . .

يرفع الأشقر رأسه أخيراً تجاه بوتو ، يشير إليها بالسبابة لتقترب ؛ تخطو مترددة لتصبح على بعد خطوة من المكتب ، تبدو بجانبه وأمامه

بضعة ملفات وأوراق ، بينما هو يزاوج النظر ما بين أوراقه وهيئة بوتو الماثلة أمامه ، كأنما يقارن ، ليشير إليها بسبابته إشارة حركية لا تفهمها ، وتظل ساكنة لا تستجيب ، لكنه يكرر إشارته لتعمل بوتو بمقتضى حركة سبابته الدائرية ، مستديرة بكيانها في تردد وبطء ، يشير برأسه إيجاباً أن هذا هو المطلوب ، تكمل استدارة كيانها حتى تعود لمواجهته .

مارينج . . . تهمس بوتو بالعبارة في توجس ، يبدو كمن يتوقف عن انهماكه فيما هو فيه ، ليرفع بصره تجاهها . . . مارينج ، تتردد العبارة في حلقها ولا يتكرر الهمس بها ، ينظر إليها ملياً ، ليقف بغاية سكينة وهدوء ، بعض أوراقه بين يديه ، يقترب منها ، يحاذيها ، يتحرك حولها ، على نحو يوحي بأنه يتفحصها ، تتابعه مدققة في ملامحه الحادة عن قرب ، تلمح صفحة مما بيده ، تشهق بقوة ، واضعة كفاً على فمها وشبه صفعة بكفها الأخرى على خدها ، تحدق فيما ترى بين يديه . . . صورتها ، صورها ، جملة صور لها . . . عارية ، عارية ، عارية تماماً ، ومن زوايا مختلفة ، كل الزوايا . . . الحمام . . .آه لحظات الحمام ، لقطاتها وهي تستحم بكل الحركات والزوايا ؛ لا يبدو الأشقر عابئاً بحالها ، وهو يتصفح الصور أمامها ، واحدة تلو أخرى بتأمل واستغراق ، يتلمس دقائق جسدها في الصورة ، يتحسس حلمتي نهديها لدرجة تجعلها تتخشب ، تضع يديها على صدرها ، كأنما تحتمي مما يجري على أملس الصورة ، يمعن الأشقر بكامل التؤدة في تمرير أنامله الدقيقة الحاذقة ، على عري صورها ، بطناً وظهراً وإبطاً . . . أنامل متمرسة متمسسة تستشعرها بوتو متنائية متناهية الخفوت ، تنمُّلٌ ناعم يناوش بشرتها ، لا تملك له إلا أن تتقلص وتقلص من ذاتها ، في تمام عجز عن صرفه بأدنى حركة أو مس ؛ يبدو الأشقر منشق الجفنين

بنصف إغماض ، غائباً أو شبه غائب ، بعيداً عما يُرى ويُلمس ، كأنما يطارد عبر برارٍ وآفاق ، صوراً وراء الصور ، عرياً وراء عري ، ليظل متجمد الحركة في وقفة جانبية إزاء بوتو ، تتوقف معها حركة تصفحه الصور ، كما لو ألصق بعضها ببعض مجمدة بين أنامله ؛ بوتو بدورها مجمدة متخشبة في وضعها حيث هي ، لا يكاد يرف لها جفن أو تصدر نأمة . . . لوحة ثنائية تمثالية لكائنين بلونين متعارضين يلمهما لون صمت مطبق عميق ، ما يلبث أن ينتفض عبره الأشقر مستفيقاً من غياب أو شبه غياب ، محمحماً مهمهماً ، ليدور باتجاه مكتبه ، يلتقط بغير ترتيب ما عليه من ملف وأوراق ، مع ما بيده من صور ، ويمضي لحاله لا يلوي على شيء ، دون كلمة أو إشارة .

تشعر صفية بما لا طعم له . تملؤها صورة ما لا لون له ولا شكل ولا طعم ، كطريقها ؛ لتغزوها الصور متتالية بلا رغبة منها ولا استئذان ، كأنما تنفلت منفرطة من عقد أو تندلق من فوهة جِوال ؛ خزان صورها في المركز التربوي وهي تعرض على أطفال صغار أكواباً يتذوقون طعم سوائلها . . . هذا حلو سْتاذة . . . وهذا؟ هذا مُرّ سْتاذة . . . هذا مالح . . . وهذا؟ تعرض صفية الكوب على الثلاثة من تلاميذها الصغار ، الماثلين أمام زملائهم على المنصة في مقدمة الفصل ، جوار طاولة تجارب ، عليها أوان زجاجية مختلفة الألوان والأشكال ، مع أكواب وسوائل متنوعة . . . مالح . . . مُر . . . حامض . . . وهذا؟ يتذوق حميد ، يتلمظ قليلا دون إجابة . . . وأنت؟ تتذوق عائشة لتغرق في التردد . . . وعلاء؟ دون جدوى ؛ تتجه صفية بالكوب إلى بعض الجلوس من تلاميذها . . . هذه وذاك والآخر . . . يترددون في الجواب ، لا يعرفون كيف يعبرون عما يتذوقون . . . والسائل هو هو نفسه ، من يعرفه؟ تتقاطع أصوات الأجوبة بلا استئذان ، ولا ترتيب ، كلهم يعرفونه ، سائل حيوي ، لكنه في حالته الطبيعية بدون طعم . . . ماء الشرب ؛ الماء . . . وتتوالى صفات أخرى لا لون ، لا شكل . وينتهي على حسن وجه ، درسها النموذجي بالمركز التربوي .

أين هي الآن؟ تتساءل صفية؟ كيف كانت وأصبحت؟ لا تفهم ولا تشعر بشيء ؛ لا تتذوق ، لا لا تشم ، لا تسمع ولا ترى . . . معطلة الحس ، محاصرة بصور لا داعي لها ، محصورة فيها باستمرار ، دون

رغبـة منهـا أو دعـوة أو توجـه ، وبلا طعم ولا لون ولا . . . كـالماء ، ذاك السائل الحيوي ، لولا أنه يستساغ ، بينما هي صفية ، وكل ما فيها ، عكس ذلك .

خلل ما أو حلقة مفقودة لا تتبينها ؛ ألم يقلها أستاذهم ويكررها مراراً : ابحثوا عن الحلقة المفقودة ، منطقة الفراغ ، عند اضطراب السلوك أو شذوذه؟ سلامة الفرد تقتضي أن يعيش مراحل حياته كلها ، في إبانها واحدة واحدة ، بلا اختزال لأي منها ، أو قفز على إحداها ؛ ولو رآها أو علم بها أستاذها في حالتها وما هي عليه الآن ، لما تردد في أن يستنتج بمحض نظرة ويكتشف ، أن شيئاً ما فيها ، ليس على ما يرام ، فراغاً في أعماقها ، أو حلقة مفقودة ، رغم كل الجهود والمظاهر ؛ لم تحضرها الآن ، صورة الأساتذة وأجواء طلبة بمركز التكوين التربوي ، وهي أبعد ما تكون شأناً عن ذلك؟

مشاعر قنوط ثقيلة غامرة تعتريها ، دون تحسس بأدنى بارقة من أمل تراود ، عدا ما ينبعث تلقائياً ، من حنين ملتبس ملحاح ، إلى زوايا الماضي ، يبعثها حيوية مستساغة كطعم الماء بلونه وشكله ، إن كان لماضيها شيء من ذلك .

مرحلة التعلم أحلى ما في الحياة ، وتبقى خزان الذكريات العزيزة الجميلة ؛ الصوت من داخلها ينبعث ، لكنه ليس صوتها ولا الحكمة حكمتها ، بل الأستاذ في المركز التربوي ، وهو يفيض بحمية واضحة ، تخالطها رعشات حنين ، أو هكذا كان يخيل لصفية ، وهي مصروفة الوجدان تجاهه ، أن علينا أن نستمتع بمرحلة التعلم وطلب المعرفة ، استمتعوا واغتنموا ، يقول الأستاذ ، فهي لا تتكرر ، يؤكد علينا أن نعي ذلك جيداً ونبتهج به ، مهما كان الحال : خصاصة الطالب وفقره ،

التعب والإرهاق، سهر الواجبات والفروض، ضنك البحث والتنقيب، حتى مُرّ ما يجرح ويؤلم . . . كله يغدو سائغاً، كله وغيره مشروع ومنشود، وهو شرط المرحلة في طلب العلم، وبه تتوفر حرية الطالب . . . أنتم الآن أحرار، متحررون، يؤكد الأستذ ويلخص، قبل أن تدرككم، وتصرفكم عن أنفسكم، إكراهات وواجبات الحياة اليومية .

ذاك ما تتذوقه صفية الآن، مستعيدة لحظاتها، لحظات سائغة حقاً . . . حتى مُرّ ما يجرح منها ويؤلم؛ مثلا . . . مثلا واقعة الدرس النموذجي تلك، تبقى ذات طعم خاص، ومعها نعيم؛ لم ذلك الآن؟ كانت صفية إذ ذاك متحمسة، وفي تمام زهوها، وهي تجد نفسها مرشحة لتقديم درس نموذجي، أمام الطلبة المتدربين وبمحضر لجنة أساتذة مشرفة؛ لتستعد بكل جد، وكان من حظها، أو اختارو لها على الأصح، صغار تلاميذ بداية الابتدائية، وموضوع الدرس يدور حول الماء وخصائصه . . . كل شيء يمضي في طريقه المرسوم، لتحوز المتمرنة صفية كثيراً من التنويه أثناء المناقشة، مع ملاحظات ثانوية لا بد منها ولا ضرورة لها، ولا ترقى على كل حال إلى مؤاخذات، بل تُستشعر على أنها من باب التحفيز، أكثر مما هي ملاحظات سلبية؛ بمعنى أنها كما تفهم صفية من ضرورات وجود مناقشة وإلا فلا . . .

معتزة كانت، وفي أوج إحساس بالتألق والتفوق، والمناقشة في طريقها الإيجابي المنشود، ويكاد كل شيء ينتهي على أحسن وجه، لتأتي الكلمة في اللحظات الأخيرة، لآخر متدخل في المناقشة، إنه نعيم طالب متدرب، وهو يبدو متردداً في طرح ملاحظته، بما ينبئ كما فهمتْ صفية، أنه يتناول الكلمة لمجرد الحديث، تلك الظاهرة العادية

المعروفة ، إذ كثير من الطلبة المتدربين ، ذكوراً وإناثاً ، إنما يفعلون لمجرد المشاركة ، إرضاء للذات وأيضاً بلا شك ، لتسجيل موقع إيجابي يحسب لهم بمحضر لجنة الأساتذة في درس تجريبي نموذجي ، يراد له أن يكون محطة في التكوين ، ونقطة امتياز لصاحبه .

بتردد كبير ومظاهر تلعثم ، يصوغ نعيم ملاحظته متمثلة في الكوب الواحد ، الذي يتناوب الأطفال على تذوقه ، واحداً تلو الآخر . . . يتوقف نعيم . . وبعد؟ ما الأمر؟ يظل نعيم في تردد يبعث على الشفقة . . . ماذا في ذلك؟ يسود صمت مقلق ، يبدو معه وكأن المتدخل في شرود عن وضعه وما حوله ، لعله نسي ما يريد أن يقول ، بل لم يكن له أصلا ما يقول ، كما تفهم صفية . . . وبعد؟

النظافة . . . العدوى . . . يطلقها نعيم مقاطع كلمات مقطوعة متقطعة ، قل إنها مرتعشة ، كأنما تصدر بين إمساك وانفلات . . . نظافة ، مرض ، عدوى . . . رغم جدية الوضع ، تبدو صفية في موقف حرج تغالب الضحك ، وهي تزيغ بنظرتها عن نعيم فيما يرثى له من حاله ، إنما لم تكن وحدها كذلك فيما يبدو ؛ ملامح الحضور تبدو متماثلة إزاء ما يتعذر التقاطه تاماً مفيداً من تلعثم حروف ومقاطع . . . النظافة ، لا ننسى النظافة ، انتقال الأمراض ، العدوى . . . تقاوم صفية فورة ضحك هستيري توشك أن تتفجر من داخلها . . . إنما . . . ما يحدث مفاجئ فعلا . . . نعم . صحيح . جيد . . . تتردد عبارات الموالاة لما يتعثر به لسان نعيم . . . نعم ، نعم . . . ملاحظة جوهرية ترددها أصوات : كلام معقول ، وفي الصميم . . . هذا ما نغفل عنه في دروسنا ، في حياتنا ، هذا ما نحتاجه في تعليمنا كله !

وكأنما تنفرج عقدة النقاش ، ليفيض الكل في سلاسة وبعض

التفصيل والتوضيح ، مؤكدين كل حسب اجتهاده وبيانه ، على أننا لم نقم بما يلزم للتأكد مسبقاً ، من خلو الأطفال المتناوبين على الكأس الواحد من أمراض معدية ، وأكثر من ذلك وأخطر ، لم نعلّمهم كيف يحتاطون من الشرب المختلط والمتعدد ، من إناء واحد ؛ وعلى الأقل ، كان يجب الاحتياط ، بأن نصب من السائل الواحد في أكواب متعددة ، بحيث يتذوقون كلهم السائل نفسه ، من كؤوس مختلفة ولكل كأسه ؛ تنهال عبارات الاستحسان مع الإضافات والاجتهادات في الاتجاه نفسه ، متجاوزة فيما يبدو أفق نعيم ، الذي يبدو متوارياً عما يروج ، حتى لتصبح القضايا المطروحة ، إنسانية كونية ، تتعلق بثقافة العدوى والوقاية ، وأن التعليم ليس معلومات ، تلقن في ذاتها ، مجردة عن كل ما حولها ، أو غير مرتبطة بشيء حتى لو كانت علمية موضوعية ، بل هو تربية قبل وبعد كل شيء ، وهو ما يعني بالأساس ، الجانب العملي المنفعي والسلوكي من المعرفة ؛ إذن والآن ، لتغرقْ المتمرنة صفية في خجلها وحرج موقفها ، ولتتذوقْ كيف أنها تصبح أكثر إثارة لا للشفقة فحسب ، كما كان شعورها إزاء الغير منذ لحظات ، وإنما للسخرية ، وربما هناك من يغالب الضحك من وضعها وموقفها ، مما لا تملك معه إلا أن تظل جامدة أمام الأنظار ، لا تتحرك ، لا تبين .

طبعاً لا يخلو الأمر في النهاية ، من بعض إشادة وتنويه ، بجهد المتمرنة صفية في درسها النموذجي ، لكنه يأتي بارداً ، وبطعم العزاء أكثر منه معبراً عن حقيقة واقتناع .

يقتلعها الأستاذ من عمق شعور بالعزلة ، وهي تخطو في الساحة بين زميلات وزملاء ، لا تكاد تلتقط شيئاً مما هم فيه من حديث وموضوع ، شبه محبطة وغائبة عما حولها ، يربت الأستاذ على كتفها ،

مشجعاً ؛ والملاحظات تلك ، وسائر النقاش ، إنما هو إضافة لإنجازها ، لا تنقيصاً منه كما يمكن أن تتصور ؛ يؤكد الأستاذ ذلك ، كأنما يدرك أنها لا تكاد تصدق ، أو تأخذ كلامه على أنه مجاملة . . . لا . الأمر حقيقة يؤكد الأستاذ وهو يوقف خطوهما ، وقد بدأ الزملاء من سائر الطلبة يتحلقون حولهما ، يفيض الأستاذ في أن قيمة الإنجاز لأي شيء ، لا تقف عند الناتج المباشر مهما كانت أهميته ، بل فيما يترتب عنه من قضايا ، وما يثيره من أسئلة ، بل وما يصار إليه وعن طريقه ، من كشف واكتشاف .

أخطأت بوتو؟ ربما . . . أخطأت بالتأكيد وإلا . . . وإلا ماذا؟ ماذا كان عليها أن تفعل ولم . . .؟ مارينج؟ ألم يلتقط منها اللفظ وهي تهمس مارينج؟ لم تجهر كفاية ، ربما . . . طبعاً لم تتحرك شفتاها بما يلزم أو يكفي ، وهي تجترّ بين شدقيها الاسم إن كان اسماً لشيء ، أو مجرد كلمة جواز بلا معنى ولا دلالة ترجّع في حلقها لفظه وتعيد ، بخافت هامس راييلي . . . راييلي . . . لا تدري إن كان بدوره هو أو ليس هو ؛ ألهُ الاسم عليه أو لغيره على غيره؟ كيف تدري ، كي تتصرف حسب المنشود ، لتفعل ما كان يجب أن يُفعل لصالحها ، وعلى الوجه الأمثل ، الملائم على الأقل؟

تجيل بوتو النظر حولها حيث غادرها الأشقر المتفحص ، إن كان هو راييلي أو غيره ، يحيط بها الفراغ والسكون ، تعمرها الحيرة والقنوط ؛ ألا تتلمس منفذ الأشقر حيث اختفى ، تلاحقه ، تلحق به ، تمسك بخناقه ليفوه بشئ يخصها؟ هل يمكن ذلك؟ وهل تستطيع؟ الملكان الشبيهان حارساه المنتصبان دوماً على سلامته ، بنظرات نارية ، مع سامق كيان ومفتول عضلات ، لن يتركا لها سانحة باتجاه ما يخامرها ؛ هذا إذا لم يكونا أو أي من زبانية وآليات أخرى ، مقتنصين الآن أو قبل الآن ، خواطرها الدفينة ، دون حتى أدنى إحساس منها ، كما هم مقتنصون ما أرادوا ، بالشكل الذي أرادوا ، من خفايا سريرتها الجسمية ، في تمام عري وانكشاف؟ ألا تكون الآن وقبل الآن ، سريرتها الباطنية بدورها ، في تمام عري وانكشاف؟

طبعاً تمنّت لو تستمر عزيزة بجانبها، وهي العليمة بما يجب ويصير، بل ذاك ما توقعت من عزيزة ابنة الدار الخبيرة بالمجال، وبكل شيء هنا، لتبقى معها تساعد أو تؤنس بحضورها على الأقل؛ لكن عزيزة لا تزيد عن أن تسوق بوتو سوق بهيمة، تقودها بتمام صمت وحياد، تفتح لها باباً سرعان ما تغلقه عليها وتنصرف . . . لماذا؟ كيف لبوتو أن تعرف من ذاتها بذاتها، في كل ما هي فيه من معمّيات، متى وكيف ولمن، تصرف عملتها الذهبية: مارينج . . . رايبلي . . .؟

ماري الصديقة الأخت وكل شيء آخر، رغم كل الخدمات، كانت بخيلة إلى أقصى حد في التوضيح والتفصيل، إلا ما يتعلق بالتهويل والتأكيد على اليقظة والتشدد مع النفس؛ نعم، نعم معقول ومقبول، لكن كيف ومتى وأين؟

رايبلي إن كان ذاك اسمه، أو له دلالة عنده، كان عليه أن يقنص اللفظ من حلقها بصنارة، أو بساحب ملقاط من عمق أنفاسها، ليسمع ويفهم؛ لكنه لم يكن بمواجهتها أكثر من حجر أصم، تمثال آدمي أشقر، فقط لا غير.

أخطأتْ فرصتها معه إذن، تخونها اللحظة إذن، كما أصبحت تخونها أيضاً كل مرة، جرأةُ يفاعتها المعهودة، سرعة بداهتها السلوكية المفقودة؛ ومتى ذلك؟ في الوقت المناسب وحين الحاجة إليها . . . ما الفائدة؟

يحيطها الفراغ في فضاء مغلق، إلا مواربة الباب الذي ظهر منه الأشقر . . . أو رايبلي إذا كان ذاك هو اسمه أو هو غيره، ومنه انصرف؛ يلمها الفراغ من حولها وفي داخلها، لكنها على كل حال تشعر بقدميها أكثر ثباتاً على موطئهما فوق السجاد الرخو، وركبتاها

محتملتان وأقل إشعاراً بالخواء ، ربما بزوال بعض الرهبة والدهشة ، وذاك أقل ما يجب في انتظار ما يمكن ؛ وماذا يمكن أن يقع في نهاية الأمر؟ كل الحيرة في السؤال عن الرجل ، إن كان هو هو؟ رابيلي أم غيره؟ لم توضح لها ماري أي شيء من صفاته لتعرفه ، ولا ماذا يمكنها أن تنتظر منه ، عدا أنه كل شيء ، في كل شيء ، لكل شيء ، وبيده كل شيء ، قادر قادر وفوق القدرة على كل شيء . . . إله يعني؟ . . . كالإله؟ لم تنبس بوتو بالسؤال ، لكنه كان الأوضح الأنسب لارتسام ملامح الدهشة والانبهار على سحنتها ، وإنما ماري التي تلتقط من نفَس بوتو ، ما لا تكاد تهمس به ، لتجيب من غير سؤال مؤيدة مؤكدة ، بإيماءات متتابعة من رأسها إيجاباً . . . نعم تقول ماري ، نعم قوليها إذا شئت ، هو كل شيء وغيره لا شيء ، إله هو ، يصفونه بذلك ، كالإله في شغله وقدراته اللامحدودة ، إمكانات لا تخلف موعداً أو يعجزها شيء . . . هكذا هو رابيلي ، ولا تضيف ماري عن شيء من صفات ، تعرفك على الرجل من لحم ودم هو ، أم من طينة مخالفة مختلفة؟ الأشقر إذن هو ، أم هو غيره؟

أخطأتْ بوتو إذن طريقها ، إن يكن ذلك ، فأين هي منه ، وأين هو هذا الطريق؟ . . . لا . لا . الأهم : منذ متى بدأ طريقها الخطأ؟ عند معْلم صخرة في قاحل الفلاة ، أم عند مشبّك حاجز ، أم منذ خديعة وسيط مرتش على الطريق ، أم لدى إرشاد من دليل مزيف؟ قد يكون ذلك من أول خطوة : وكل أشباه الأدلاء ، والسماسرة والمتربصين على التواءات الرحلة في امتداداتها وتجلياتها ، تخفياً في دغل ، زحفاً على بطن عند خط حدود ، تكوراً في زحمة مركبة معطوبة مكشوفة لعوارض الطبيعة ، ترنحاً على ظهر دابة بأجر مضاعف في فيافي

صحراوية ، غوصاً حتى الحزام وما فوق الحزام ، في لزوجة الطين والصلصال عبر مستنقعات الأحواض النهرية ، هرولة على أقدام شبه حافية أو أنكى . . . ويا للَرّغَد ياللرّفَه عند سريان قطرة ماء تقتنصها عبر جفاف حلقوم متقرح ، ويا لندرة كسرة عيش جافة متيبسة ، يا لسحر مشهدها ، وطيب مذاقها مغموسة في عرق الجوع والحرمان ؛ ثم ما عدا ذلك ، ما عداه وما أشد وأدوم ، مما يستوجبه جُرم أنثوية الجسد الفتي الملازم ، من دائم تحفز لطوارئ كل لحظة ، من يقظة أو نوم ، من ليل أو نهار .

ينفتح بلا مقدمات باب مدخلها الأول ، يظهر عبره شخص عزيزة ، في هيئتها ومعالم حيادها التي أدخلت بها بوتو أول مرة ، وهي تقف عند العتبة ممسكة مصراع الباب الموارب بإحدى يديها ، مشيرة إلى بوتو بيدها الأخرى ، مع إيماءة رأس أن تتقدم باتجاهها ؛ تفهم بوتو أن عليها أن تستجيب ، تراودها رغبة دفينة في أن تعاكس ، مصرة على البقاء هنا ، إلى أن تعرف أين هي ، ومع من كانت ، وتكون؟ تتزاحم في حلقها ترددات صيحة ، تريدها عاتية مدوية ؛ تنظر باتجاه عزيزة المسمرة في موقعها ، يواجهها ارتسام معالم تشدد وقسوة ، ما تفتأ تترسخ متزايدة على ملامح عزيزة ، لتخطو بوتو بكامل الهدوء تجاه المرأة تفسح لها ، وتنصرف بها مغادرتين .

تتهدّأ صفية في أعماقها بعض الشيء ، تنتظم أنفاسها ؛ فعلا ، درسها النموذجي كان فرصة مجددة ، فتحاً لآفاق عمل وفكر ؛ ولتكن فخورة به . نعيم بالذات بملامح تردده المألوفة ، بمعالم ذات التعثر والتلعثم الذي اعتراه عند إبداء ملاحظته ، يتقدم باتجاه صفية متطأطئاً بعض الشيء ، يهنئها بنغمة اعتذار ، ومحاولة شرح وتوضيح .

- والله ما كانت على بالي

لم يكن يقصد . . . أبداً ، ولا كان على باله شيء من إساءة أو أي شيء ، لم يخطر له أي شيء على الإطلاق ، أكثر من ذلك ، كان في ذهنه شيء آخر يريد أن يقوله ، غاب عنه تلك اللحظة ، ليجري لسانه بما اتفق وصادف . . . تخريف ، كان يعرف أنه لا يقول شيئاً ، وإنما يخرف ، وعلى أتم استعداد كان إذ ذاك لتلقي وخز السخرية والتوبيخ و . . . ليفاجأ ، مفاجأة كانت غير متوقعة ولا في الحسبان ولو تصب في صالحه ؛ هكذا ، وكل مدار الحديث والنقاش ترتب هكذا . . . يعني . . . أبداً . . .

تدرك صفية ذلك ، تقدره ؛ تصدق نعيم فيما يقول ، هي الآن في أتم هدوء ، ترى كل شيء بوضوح واتزان ؛ تهز كتفيها أمام ملامح انكسار نعيم واعتذاراته . . . لا بأس ، لا بأس ؛ كل شيء في مجراه الآن ، وكانت فرصة لنقاش جاد ومجتهد كما قال الأستاذ ، يثنّي نعيم على كلامها بملامح ثقة ، صحيح كانت فرصة جيدة ، مفيدة بكل المقاييس ، فرصة أيضاً . . .

صحيح ، فرصة أيضاً كانت ، لتجد صفية نفسها تحتل مقعداً وراء ظهر نعيم ، على الفيسبا دراجته النارية العتيقة المتقادمة ، لا يخلو مظهرها الأصلي من بقايا أناقة شكل بالية ؛ إذ تغادر صفية المركز التربوي نهاية يوم درسها النموذجي ، شبه منعزلة بنفسها ، متهربة من رفقة الزميلات ، لتجد الطالب نعيم واقفاً قرب الباب ، منهمكاً في معالجة شيء في محرك دراجته ، ليخطو نحوها وهو يمسح يديه بخرقة ، محيياً بطافح بشر ، معتذراً عن تلوث يديه ، مشيراً بنصف التفاتة جهة دراجته بعبارات مقتضبة ، أنه الكاربيراتور ، يدعوها عارضاً عليها بغاية تردد أن يوصلها ، ما دام طريقه . . . تبدو مترددة تحاول أن تفهم أو توازن ، ليضيف نعيم ، كأنما يزيل بعض الحرج عن موقفهما

- إذا رضيت

تهمهم :

- طريق . . .؟

- يعني . . . الاتجاه

لا بأس ، تتجه معه صوب الدراجة ، يضغط نعيم بأسفل قدمه على دواسة التشغيل ، بتواز مع ضغط يمينه على مقبض المقود لتغذية المحرك بالبنزين ، يكرر العملية عدة مرات ، تصدر خلالها استجابات متقطعة من المحرك ، مرسلا جرعات دخانية متتابعة ، قبل أن يبدأ إيقاعه في الانتظام ، دون أن تفتر يد نعيم أثناء ذلك ، عن تحريك لولبي لمقبض المقود ، بزيادة ونقص في تغذية محركه حتى يستقيم هديره ، ليومئ لصفية أن تأخذ مقعدها خلفه ، يداها على كتفيه .

يتحركان على متن الفيسبا ، ما بين سرعة وتباطؤ ، يعمل اضطراب الحركة على تماس متقطع لكيانيهما بطناً لظهر ، ليغدو

بالضرورة نهاية الأمر، التصاقاً، يجعل صفية وهي خلف نعيم، تحيطه حاضنة له بذراعيها؛ سألته قبل تشغيل المحرك، وهو يعرض عليها تطوعه لتوصيلها، إن كان طريقهما واحداً، لا هو يجيب بوضوح، ولا هي كانت مصغية كما ينبغي لرده؛ إنما يومئ عن تساؤلها غير المُلح، بحركة وهمهمة أنها الوجهة المقصودة تماماً . . . تماماً . . .

نعم . . . الوجهة، الاتجاه، لكن ليس طريقاً مباشراً بالضرورة؛ تتوالى مشاهد منسابة في الاتجاه المعاكس لحركة الفيسبا براكبيْها، عبر مبان سكنية وصناعية ومرائب ومتاجر، على امتداد جانبي طريق يعج بالسير، عربات من مختلف الأنواع والأحجام عبر حي صناعي ناشئ باتجاه الميناء والكورنيش؛ يخفف نعيم من سرعته، ليتجه جانبياً نحو محطة بنزين، يتوقف مومئاً بحركة خفيفة مستأذناً في لحظة قصيرة، يترجلان ويثبت دراجته بجانب صفية، ويتجه ليغسل يديه .

تتكاثف العربات متباطئة الحركة لحد التوقف بين الحين والآخر، باتجاه مركز المدينة بمحاذاة الميناء، قبل أن تسلس الطريق في خط منحن بموازاة البحر، تتسارع معه حركة السيارات، كما لو أطلقت فجأة من عقالها، تسلس بدورها حركة الفيسبا بإطلاق عنان، صفية ملتصقة بظهر نعيم، يداعب الريح خصلات رقيقة من شعرها، منفلتة من لفة المنديل على رأسها .

- غط ساقك آالزين . . .

صوت مفاجئ خاطف بجانب الفيسبا، بنصف إطلالة صاحبه من زجاج داخل سيارة خفيفة تمرق بغاية سرعة؛ يستوعب نعيم الموقف، ثلة فتيان في غمرة نشاط، ولا سبيل إلى اللحاق بهم . . . كلاب . . . سلاكيط . . . بلا تربية . . . يشتُم نعيم ويلعن، بينما تبدو

صفية كأنما تسوي من وضعها وتغطي من ساقها ما لا يحتالج إلى تسوية أو غطاء ، تحرك قدميها في موقعهما على الموطئ المعدني دون كلمة ؛ بينما نعيم ما يفتأ يفرغ قاموس شتائمه في الفضاء ، منهياً مقاطعه بين فترة وأخرى ، بعبارات توعد . . . لو أمسكهم ، لو يتمكن منهم . . . كلاب . . . سلاكيط . . .

يتوقف نعيم بفسحة تشكل مركناً لمختلف العربات ، تتوسط سلسلة مباني الكورنيش من فنادق ومقاه ومطاعم وملاه ؛ يترجلان ، ليثبت نعيم دراجته ، وعلائم انفعال ما تزال بادية على ملامحه .

يخطوان بتؤدة ، على جانب المحلات بمحاذاة الشاطئ ، بارتفاعها النسبي عن البحر ، يصادفهما صبي يمْثل أمامهما فجأة ، يستجدي مُظْهراً في يده ورقة مقواة ، مكتوب عليها «الله كريم مساعدة لاجئ سوري» ، يأخذهما المشهد .

- سوري؟

تتساءل صفية متأملة هيئة الطفل

- نعم آللاّ ، سوري . . . من حمص

يجيب الصبي مؤكداً ذلك ، بلكنة واضحة غير عادية ، يبدو متجاوزاً العاشرة بقليل ، في غير رثاثة ، مع تواضع حال وملامح خصاصة بادية ، تبحث صفية عما تنفح الصبي ، وفجأة يطير من أمامهما ، يطارده صوت رجل من المارة

- الحرامي مازلت هنا . . .

يخطو الرجل خطوات بيد تهديد وراء الصبي الذي يطمئن إلى بعد المسافة ، بينه وبين مطارده ، فيقف ملتقطاً أنفاسه

- لعنك الله . . .أولاد الحرام

عبارات شتم ووعيد تتوالى من الرجل ، وهو يتوجه إلى صفية ونعيم ، موضحاً أن الصبي ولد البلاد ، مروكي قح ، من منتحلي الحالة السورية ، ظاهرة جديدة في النصب والاحتيال . . . ليتوجه الرجل من جديد بوعيده تجاه الصبي الواقف على مبعدة مريحة منه

- سوري أو ماشي سوري . . . انت مالك؟

يتساءل الصبي بدارجة مغربية سليمة ، مستنكراً بصوت عال ، ليضيف بتحد واضح تجاه الرجل المهدد

- عندك ما تعطي اعْط ، ما عندكش ما تعطي زمْ واسكت

يلوح الرجل بيديه ، يتأهب ليخطو باتجاه الصبي ، لكن هذا يقفز هارباً يسابق الريح ؛ يتابعان المشهد والصبي يختفي عبر زاوية إحدى البنايات ، بينما الرجل على مقربة منهما ، ينظر باتجاههما وإلى كل وجهة حوله ، كأنما يشهد العالم على ما يقع من منكر ، ليصدر شتيمة غليظة تجاه الكل ، بلا تحديد ، وهو يتُفّ حوله بملامح اشمئزاز من الجميع ، حتى من نفسه ، قبل أن يأخذ وجهته .

يسيران فترة ، لينحدرا عبر ممر مؤد إلى البحر ، يهبطان درجاته ، لتواجههما أمواج المحيط متكسرة على الصخر ، أو متهادية في وهن تغالب الرمال حافاتها الرقيقة ، لتمتصها تاركة آثار بلل على السطح .

الرجل على حق ، يعلق نعيم ، كأنما يحدث نفسه ، وهو يرد على وجهة نظر صفية التي تظل تردد متعاطفة مع الصبي أنه مسكين مع ذلك . . . الظروف ، ظروفه لو كانت مريحة ، أو حتى مقبولة على الأقل ، ما كان مضطراً للتسول من أصله ؛ يخطوان في سير متعرج على الرمل ما بين ناشف ومبتل ، وما يفتأ مشهد الصبي المنتحل يشغلهما ، ورأياهما منه على طرفي نقيض ، بينما يؤكد نعيم أنها قلة تربية ، أو

قل انعدامها بالمرة ، وهو يربط بين الانتحال التحايلي للصبي ، وصفاقة فتيان الطريق في نذالتهم سفالتهم وتعديهم الآداب والأصول وكل الحدود ، قحة الصبي وأولئك السفلة الذين . . . كلهم واحد ، تربية واحدة ، بشر واحد ، من الصغير للكبير ، لا أدب لا خوف لا حياء .

يسيران قاصدين مقهى على كثيب رملي مرتفع ، تتوزع على فضاء تحت سقيفته الفسيحة طاولات ومقاعد ، أغلبها فارغ ، والقليل منها يحتله بضعة أشخاص ، من ثلة وأفراد ، في فترة مسائية قبيل الغروب ، من يوم وسطي ، يختلف في نشاطه عن أوقات أخرى ، من نهايات الأسبوع وفترات العطل .

- كلاب . . .

ما يزال نعيم منفعلا من سفالة ثلة الفتيان أولئك ، تحت شعور بالضيم والقصور عن مجاراتهم بما يستحقون ، يغذيه ما رأى للتو من واقعة انتحال واحتيال ، ينعت الجميع بما يجري على لسانه من وليد اللحظة والحال . . . سلاكيط ، لا تربية لا أدب ولا يحزنون . . . هكذا ، بهايم تبزق وربي يرزق ، لا أخلاق ولا مسؤولية .

يجلسان إلى إحدى الطاولات ، يزيحان مقعديهما قليلا بمواجهة لوحة سماوية ما تفتأ ألوانها تتنوع ، متجددة ما بين لحظة وأخرى ، بأشعة شمس متواهنة في ميلها باتجاه المغيب ، تبدو صفية مشدودة إلى حركة تجري في الجزء الموازي لموقع جلستهما من الفضاء الفسيح ، الملحق والمتمم لفضاء المقهى ، حيث يعمل ثلة من عمال ومناولي المقهى ، على تزيينه بالأفرشة والمزهريات والمصابيح الملونة ، مع ترتيب طاولات ومقاعد مغلفة بأقمشة وانتصاب منصة مرتفعة قليلا ، تتوسطها أريكتان وتيرتان ، حيث تبدو صبيتان صغيرتان متقاربتي

السن ، تتقافزان بين الأريكتين ، تتناوبان الجلوس عليهما ، مشتركتين معاً بهيكليهما الصغيرين ، على إحداهما حيناً ، ومنفردة كل منهما بأريكة حيناً آخر ، بحيث يفيض مقعد الأريكة بسعته ، والظهر بارتفاعه ، عن هيكل الكيان المتطفل الصغير .

يقبل النادل على طاولة صفية ونعيم ، لتلقي الطلبات ، يمرر بهمة ونشاط منديلا على الطاولة لا لضرورة ذلك ، بقدر ما هي حركة مهنية آلية ، تتيح للنادل فرصة استطلاع رغبة الزبائن ، وتبين طلباتهم .

ينبه نعيم رفيقته لمحضر النادل كي تعرب عن طلبها ، وهي ساهمة في متابعة مشهد الصبيتين ، تحرك صفية رأسها بلا تحديد ، أي شيء ، أي شيء . . . ليعرب نعيم عن طلبهما ، بينما تعود صفية ، مستغرقة في مشهد التزيين وشغب الطفلتين المتباريتين في أي منهما تملأ حيز أريكتها بالكامل ، وهما تتنافخان ، تتضاخمان ، تستطيلان وتستعرضان جذعاً وأطرافاً ، لملء كل الحيز ، أكبر حيز ، كل منهما على سعة أريكتها ، وكل منهما تجدّ وتجاهد لتبدو في سمت العروس ، أجمل عروس لأجمل عريس .

تتنافس الصبيتان ، كل منهما بعد تعديل وضع بآخر ، ومن حركة لأخرى ، تدير طرفاً خفياً تجاه منافستها ، ترمق وضعها ، تراعي ألا يكون الأحسن ، مستعيرة منها ومستلهمة ما تراه مكملا لوضعها نحو الأمثل والأفضل ؛ تتابع صفية المشهد مأخوذة بحمية الصبيتين ، أيتهما الأشطر ، أيتهما الأجدر الأقدر الأبهر . . . صبيتان مشرقتا الملامح ، باسمتا الثغر ، بدران مكتملان ، تبدوان متحركتين في قشيب مرقش ومزركش ، تخطران هوناً على مائي صقيل ومبثوث ومنفوش ، تتأودان بكامل ثقة وثبات ، لاستقبال وافديْهما العريسين الحبيبين

مغمورين في حلل الوله والشوق ، تتلقيان كل منهما قبلة استحياء على الوجنتين ، تحفهما أنظار أحبة ، رنة حروف ذهبية في السمع ، دافئة في القلب : أحبك . . .أحبك . . . أحبك ، تتلفت صفية بطلق محيا وافترار ثغر ، تحيي جموع المدعوين من حولها لمشاركتها فرحتها ليلتها الأولى عن يمين وشمال ، متأبطاً ذراعها عريسُها الهمام ، في أوج أناقة وحسن هندام ، ملامحه إشراق صبح ، نظرته فيض حب ، يتقدمان بتؤدة ووقار تجاه منصة البرْزة ، وعريسها يحيي مثلها المدعوين عن يمين وشمال ، بحركة يد وإيماءة انحناء ، يهمس في سمع صفية بين لحظة وأخرى ، بين إيماءة تحية وأخرى ، رسالة الشوق : أحبك . . . أحبك . . . دافئة تسري في كيان صفية مقاطع الكلمة . . . أحبك . . . أحبك . . . رقيقة صادقة تتخلل الحنايا ، تبعث في الذات خدراً رفيقاً ممتعا يتأود له الكيان . . . أحبك . . . أنفاس صفية ، بهاؤها إشراقها ، نورانية ليلة عمرها من نورانية الكلمة . . . أحبك . . .أحبك . . .

- نعم آللاّ!

ينبهها نداء نعيم ، تلتفت إليه شبه مجفلة ، كما لو أوقظت من غفوة

- سبحان الله

يلمح إلى غيبتها العميقة ، وسبحان من لا يسهو ولا ينام ، تبتسم . . .فعلا ، ربما سهت بعض الشيء ، لكن . . .

ينتصب النادل بالمطلوب ، يضع كأسي الشاي بغاية مهل على الطاولة ، يرنو بالتفاتة ناظره إلى الركن الآخر ، معلقاً

- عرس . . . الله يبارك

ينطقها النادل من ذاته ، لمجرد استئناس أو إفادة عن سؤال ضمني ،

مضيفاً وهو يتحرك منصرفاً، أنهم يعدون ذلك لنهاية الأسبوع، ليكون جاهزاً عند الطلب . . .

- الله على حلاوة

تعلق صفية مثيرة انتباه نعيم وهو يبدو كغير العابئ بما حوله من مشهد لطيف، لتعود بانتباهها إلى جلستهما، يتناولان الشاي أمام امتداد سطح الماء، تلتمع صفحته الرصاصية الرجراجة، على انعكاس أشعة غروب مائلة؛ وما تلبث صفية أن تسأل عن المشهد كيف يراه نعيم . . .

- غروب جميل

لا، إنما سؤالها عن المشهد الآخر، تقصد ما هما فيه وما حولهما، وهي تدير رأسها فيما يجري على الأريكتين من حركة لا تفتر.

- آه. العرس؟

يرد نعيم في صيغة سؤال بغير اهتمام؛ تومئ صفية بالإيجاب، برغبة بادية في الإفاضة، معلقة أنها مأخوذة بلطف المشهد، شاعري ملهم

يبدو نعيم غير مبال، لا يرد بشيء في الحال، يلوذ بالصمت؛ تتابع صفية ملامحه مستقرئة مستطلعة، تراه ساهماً مستغرقاً في صمته، سابحاً في عالم كأبعد ما يكون عما هما فيه؛ تلمس كأس الشاي، ترفعه وما تلبث أن تضعه دون أن ترشف منه؛ تلتفت تجاه مشهد الطفلتين، تجد الأريكتين خاليتين، كأنما الصبيتين أُشبعتا أعراساً ونالتا فوق كفايتهما أفراحاً، لتنطلقا بكامل حرية، تجريان تتقافزان في فسحة المكان؛ تمعن صفية في متابعة مشهدهما في منتهى خفة ونشاط، لتعود بانتباهها إلى جلستهما من جديد، مولية وجهتها نحو الأفق، منغمرة في دكنته المسائية وفساحة امتداده.

تعلم بوتو الآن أين هي . تعلم ذلك لا تصريحاً واضحاً من أحد ، ولكن بالملموس المحسوس ؛ إنها هنا والآن ، في انتظار نضجها ، في طور أن تتنضّج بعملية احترافية مدروسة ، تماماً كثمرة البابايا بسفوح أوندو ، لا يلتذ مذاقها إلا باستواء نضجها التام ، وذلك لا يتم بالضرورة طبيعياً ، بعفوية من حرارة شمس قد . . . وقد . . . ولا بمستوى فطري ، من رطوبة فيه وفيه . . . وإنما بقسطاس وقيراط معدود محدود ، بمعنى أنك وفاكهة البابايا ما تزال في فجاجتها ، رغم الاكتناز ، تنزعها من محيطها كما هي فجة بالتمام أو شبه ذلك ، لتضعها في شروط إنضاج يتم على القدر والمقاس اللازم ، والمتحكم فيه بداية ونهاية ، عين بصير خبير .

تدفعها عزيزة هوناً ، لتتقدم وتصعد أمامها الدرجات ، بينما تتبعها هي من الخلف ، لتشعر بوتو بالنظرات ملتصقة بكيانها ، تنهبها نهباً من خلف ، مدققة في كل تنية من ضمور أو اكتناز في كيانها ، متحسسة بعين تمرس كل تعرج أو التواء في عضل من حركاتها ، لتشعر صفية أخيراً بكف عزيزة تضرب على عجيزتها من خلف ، ثم تخطو قافزة بعض الدرجات لتحاذي قامة بوتو ، واضعة ذراعها على كتفها في تقرب ، وهي تمسح ما بين كتفيها إلى أسفل ظهرها ، قائلة في عزيمة وشبه همس ، إن عليها أن تشتغل . . . تشتغل وتساعدها طبعاً عزيزة ؛ مفهوم ، مفهوم . . . عليهما معاً أن تشتغلا وبجد ، بمعنى أن موضوع الشغل ومادته ، هي ذاتها بوتو ، ويجب عليها تبعاً لذلك أن تشتغل

على ذاتها ، تساعدها عزيزة في ذلك ، تقود خطواتها ، قل تأمر فيها وتطاع ، تتحكم فيها عزيزة إذا شئت ، إلى أن يتم نضج وإنضاج البابايا . . . مفهوم ، مفهوم ؛ أكان الأشقر هو . . .؟ لا تنبس بوتو بالاسم ، إنما تلفظ السؤال ببالغ رفق : هل الأشقر هو . . .؟ بيد أن عزيزة لا تُحير جواباً ، كأن لم تسمع أو تع شيئاً ؛ إلا أنها ترمي ذراعها على كتف بوتو في تقرب ، وهما تنهيان ارتقاء الدرجات لتنتهيا إلى فساحة بهو علوي ، تحيط به من جهات ثلاثة أبواب غرف متجاورة ، بينما ينفتح صدره على شرفة مطلة على مشهد بحري من شاطئ طنجة البعيد .

تعرف بوتو الآن أين هي ، تعرفه بالممارسة اليومية من جانبها ومن غيرها ؛ الإنضاج بالشغل وللشغل ، لا يمكن ليافعة دون الثامنة عشرة على الأقل ، أن تجد طريقها القانوني الشرعي ، باتجاه الضفة الأخرى ؛ ذاك غير مقبول ، غير مفيد ولا مشرف ، فضلا عن أنه غير قانوني وخطير ، خطير إلى أقصى حد ، ومن كل النواحي ، تلك ليست طريقتنا ، خطتنا معقولة وفي الأمان التام ، كل شيء عندنا مضمون ، كما تقول عزيزة .

طريقتنا؟ أسلوبنا؟ أتقصد أنها خطة رايبلي طريقته ، برنامجه في إبحار زبائنه إلى الضفة الأخرى ، تلك الجنة ، وبعقد وموقع عمل مضمون؟ لا تبين عزيزة عن شيء ، لكن الأمور توحي بأن بوتو أصبحت في دائرة الأشقر رايبلي وفي أمنه وأمانه ؛ إنما النضج اللازم متى؟ إلى متى؟ الضفة الأخرى عالم حقوق ، لا يشتغل فيه اليافعون ، تلك عبودية تعتبر ، ومقابلها عقوبة لكل الأطراف ؛ لا . ليست طريقتنا ، لا هي منا ولا نحن منها .

إلى متى إذن؟

تمسح عزيزة كيان بوتو في عري استحمامها ، بنظرة فاحصة متأنية ، من أسفل إلى أعلى ، مع ابتسامة لينة وغمزة طرف ، تمد يدها تجاه صدر بوتو تمس برفق نافر نهدين يافعين ، مستنفرة حساسية بوتو التي ما تلبث أن تتماسك نفسها وتتهدأ ، لتتسع ابتسامة عزيزة الهادئة ، وهي تستغرق بكامل رفق في مداعبة صدر بوتو بكفها ، متمادية في تلمس سائر الكيان الفتي بتؤدة وهدوء ، قبل رشات الدش . . . يرتسم مشهد الأشقر في شبه غيبوبته ، كما تستشعره بوتو ، وهو يتفحصها عياناً بياناً ، تتحسس أنامله المرهفة معالم النضج واليفاعة ، على أملس سطح صورتها على مملس الورق ، متتبعاً مواقع انثناء وانبساط في الجسد الأنثوي الناهض ، مواطن ضموره وامتلاءاته ، في عري عفوي كامل ، يتم بمنتهى بساطة ، في غفلة تامة عن وعي بوتو به ، لا تستشعره أو تحسب له حساباً ، عري إرادي تحفه شفافية رشات ماء الدش ، تندف رذاذاً تكاد تبتل بلمسه على أملس الصورة ، أنامل الأشقر الخبيرة المتلمسة المتحسسة على مملس الورق ؛ ندى حبات الماء منتثرة على أبنوسية بشرة بوتو ، منعكسة على أملس سطح الصورة ، توشك بدورها أن يتمصص الأشقر بلسانه نثارها المتلألئ ، في شهقات دفينة متتالية من غفوته .

تسحب عزيزة يدها عن كيان بوتو ، كأنما تعود لواقعها وسيماء الجد ترتسم على ملامحها ، أن عليهما أن تشتغلا كما يجب . . . بوتو يجب أن تكون في المستوى المطلوب ؛ لهجة أمر لينة عميقة الخشونة ؛ هو إذن تنبيه ، توجيه بضرورة الانصياع التام ، تحذير إذن من عصيان أو أية مخالفة أو تقصير ، توجيه إلى الصلاح والمصلحة لكل الأطراف بمن

فيهم هي بوتو . . . لا بأس ، لحد الآن لا بأس ، إنما إلى متى . . .؟ ومتى . . .؟

ينكتم السؤال في حلق بوتو ، بينما تنصرف عزيزة ، مشيرة تجاهها بإيماءات اليد وملامح المستبشر الباسم ؛ تعرف بوتو الآن أين وأيان . . . تسخين كيان ، مع حمام بخار وماء ، لِين تمسيد وتدليك ، بخبرة المعلمة الكبيرة المليئة روزا ، بنعومة كفيها الثخينين ، بخطواتها المتأنية تحت ثقل كيانها المترنح على كعب حذاء عال ، لا تنزعه حتى وهي شبه عارية في رطوبة الحمام ؛ وتعلم بوتو بحق أين هي ، مع يدي الشقراء كريستين رقيقة الملامح ، تفك بيد الماهرة المتمرسة ، ضفائر بوتو الدقيقة المفتولة بحذق بالغ ، تعالج جعد شعرها لينسدل ، تلينه بغسيل ومحاليل ، ترشه بخات متنوعة الندى والعبير ؛ وعبر مرآة صدق وصفاء ، تعكس كريستين على ملامح بوتو رسوم زينة مواتية متآلفة اللون مع سمرة الملمح ، تُشْرِع أفق الجبهة على قوس الحاجبين ، لتُسفر على مداها الرؤية ، تَفتح الثغر ، تملأ الشفتين بمقدار ، تصوغ لونهما بمقدار ، ليُصبَّ الجسد أو يفرغ عنه شفاف قميص قصير مقتصر حد الكتفين ، مفتوح الصدر حتى شق مفرق النهدين ، على سروال دجين كانز مكتنز ، صامت معلن ضمور محزم ، بروز ردفين وانسدال ساقين ، على دقيق كعب حذاء عال .

- الزين سيناآ . . .

تقصد كرستين بذلك أن تقول «صناعة» ، الزين صناعة تقولها كريستين ، بمشقة نطق عربي واضحة ، تكررها بمقابلات ألفاظ إنجليزية ، إسبانية وفرنسية ، تقصد أن الجمال ، الزين يصنع صناعة ، فن حقيقي ، مهنة راقية ، وليس مجرد مادة خامّ فطرية ، لتؤكد كريستين

بدورها على ضرورة العمل بسرعة، لتلقي الضروري من اللغات وأنماط الرقص، مضيفة ما يفضله الزبائن من عبارات وحركات وإيحاءات... لتتوقف محدقة في ملامح بوتو، متسائلة إن لم تكن فطْمة أخبرتها؟

- فطْمة؟

تتساءل بوتو بمعالم اندهاش

طبعاً فطْمة. تؤكد كريستين؛ تحرك بوتو رأسها نفياً، لم تلتق بفطْمة، ولا تعرف أحداً بهذا الاسم... آه، تلمس كريستين مقدم جبهتها بكفها.. .آه عزيزة هي فطْمة أيضاً، هي بدورها كريستين اسمها الأصلي وبلدها... أوه. لا داعي، الأسماء هنا... المهم السرعة في تعلم كل شيء، كل شيء... تبدو كريتسين كما لو أنهت ما يجب، لتواجه بوتو مبتعدة عنها خطوة، واضعة كفيها على كتفيها، تتأملها، لتنأى أكثر، وهي تتفحص مظهر بوتو من أعلى لأسفل، ومن أسفل لأعلى، لتصيح معجبة... واووو...

تقبل على بوتو في إعجاب متأمِّل لوحة إبداعه، تواجهها كريستين بالمرآة لترى صورتها، متسائلة إن كانت الآن، تعرف شخصها المنعكس على صقيل الزجاج... مرآة صافية غاية الصفاء، صادقة فعلا، فعلا بوتو الآن شيء آخر.

شيئاً فشيئاً يخفت الضوء ، يتناءى ، تعم القاعة شبه عتمة تحيل حمرة الستارة الكبيرة إلى دكنة ، يتناهى من عمق بعيد نغم واهن يتقوى بالتدريج ، ينزلق طرفا الستارة مسحوبين إلى الطرفين في اتجاهين متعاكسين ، لينفرج الركح المعتم عن شلالات ضوء ضعيفة متقاطعة بمختلف ألوان ، تلتقي مساقطها عند نقطة دكنة مكومة ما تفتأ معالمها تتضح شيئاً فشيئاً ، بقدر ما تتقوى مساقط الأضواء على كتلتها .

تتضح الرؤية على مشهد الركح ، حيث تبين النقطة المكومة في مركزه عن نصب عنقودي من أجسام بشرية ، عارية شبه كاسية ، أنثوية وذكورية مختلطة ، مجمدة الحركة في أوضاع تشابكية ، ترتسم في الحركات المتجمدة لبعضها ، تعابير لهفة جامحة ورغبة ، منفرجة الشفاه المتقابلة عن بالغ توق واشتهاء ؛ انكسارات الأجساد ، التواء الحركات المجمدة لدى بعضها الآخر ، في ارتماءات أذرع نحو الأعالي ، مشرعة النظرات إلى دانية قطوف من مكامن الجذب والفتنة ، ترنو مستجدية آلهة السحر والجمال ، تترجى في خنوع الوله ، استجابة عطف من ربات الغواية في أعاليها .

عنقود حركات مجمدة لأجساد بشرية ، تلمع بمعالم فتوة واكتمال ، تحت شلالات ألوان ضوئية ، مشكلة تحفة تمثالية رائعة ، قد تكون نسخة من روائع كائنات إغريقية تليدة عتيقة ، من إبداع إزميل خلاق ، أو تكون أصلا مستعاراً منها لمجرد عرض متحفي محدود

مخصوص ؛ ألم يقولوا عن ديدال النحات اليوناني المعجز في إنجازه ، إن تماثيله تتحرك أو كأنها توشك على الدوام؟ هوذا عنقود تمثالي معجز في نحته ، في اكتمال أجساد مجموعته المختلطة وفتنة تشابكاته ، بدءاً بقاعدته العريضة ، بما تشكله من التواءات أجساد مرنة ، في حركات تعبيرية مثبتة مترجية ، ترتقي في ضمور حجم تدريجي إلى وسط النصب العنقودي ، لتلتقي مع أجسام أخرى مجمدة الحركة ، متشابكة ملتحمة ببعضها في تبادل عناق واشتياق ، تلتقي بدورها بمثيلها من حركات أجسام ، منتهية بتشابك مشكّل كرأس رمح في أعلى النصب ، لتبدو في مجملها قمة ملتحمة في الأعالي ، ملهمة لما دونها ، من امتدادات أذرع ونظرات تطلع .

«زمن الحب» بذلك كان يلهج صوت نعيم مشبعاً بغنة مرحة ، وهو يزف الدعوة إلى صفية ، ينشر أمامها مطوية ورقية ، في شكل إعلان عن فرقة باولا نكروفا الهنغارية العالمية ، للرقص التعبيري ، في سلسلة حفلاتها الاستعراضية وهي تزور الصويرة لأول مرة ، في نطاق جولتها الفنية العالمية .

يبدو نعيم ببعض مظاهر توتر ، من آثار معاركه المستمرة لتشغيل الفيسبا العتيدة ، بما هي عليه من بقايا رشاقة شكلية عتيقة في المظهر ، مخالفة لما عليه حالها في المخبر ، من قصور وقابلية عطل متكرر ، مستغلا انصراف بال صفية للاطلاع على مطوية العرض الفني ، مكرراً مسح يديه مرة بعد أخرى ، بمنديل ورقي ، سرعان ما يحشوه في كرز أدوات خفي صغير ، ملحق بأسفل مقعد القيادة .

تتملى صفية صورة الشعار الإشهاري لحفل الفرقة ، محتلا صفحة وسطى في المطوية الورقية ، ممثلا لنصب أجساد بشرية مختلطة ملتحمة

متشابكة في امتدادها من قاعدة عريضة أساسية ، إلى رأس رمح في القمة ، هي ما تراه الآن رأي العين ، تشهده حياً على الركح في قاعة الاحتفالات البلدية ؛ لم يكن نعيم بحاجة إلى كل ما يظهره من إلحاح على صفية لتقبل دعوته ، مبرزاً في الآن نفسه ، تذكرتين لولوج قاعة العرض ؛ لم يكن لصفية أن ترفض أو يخطر لها مثل ذلك ببال ، إذ إنها فرصتها الأولى لحضور فرجة عمومية ، وهو ما يجعل مسحة تردد أو تساؤل ترتسم على محياها ، وهي توجه نظرتها إلى سماء مسائية ، تبدو أشعة شمسها المائلة للغروب ، خطوط ضياء أشبه ما تكون برماح تخترق ببالغ إجهاد ، دكنة سحب محملة .

لا . لا . . . يسارع نعيم مهوّناً مطمئناً ، أن لا خوف من إمطار هذه الليلة بالذات ، حسب نشرة أخبار الطقس ، وكل شيء يهون أمام فرصة كهذه ، ليزيد نعيم من فيض تعليقه على عظمة الفرقة الفنية وذيوع صيتها العالمي ، مستنفداً ومكرراً محتوى المطوية الورقية التعريفية الإشهارية ، ببالغ حرارة ، وبقوة تحفيز على القبول والحضور .

ما كان لصفية أن ترفض الدعوة ، عاجزة حتى عن إبداء مجرد تردد متكلف تتظاهر به ، ثم ما تلبث بعده مباشرة أن تعلن القبول ؛ ذاك ما تتصور أن غيرها من زميلات يمكن أن يفعلن في مثل هذا المقام ، بينما تراه صفية مخالفاً لطبعها ، بل إنها هي في أعماقها جد مرحبة بأول دعوة تتلقاها لحفل فني ، تشعر بذلك وتعبر عنه لنعيم ؛ إنما عليها قبل ذلك أن تعمل ، على استخلاص موافقة مبررة ، لتغيُّب أو تأخر عن المبيت بالإقامة الطلابية بالمركز التربوي .

تتقوى أكثر فأكثر شلالات مساقط الأضواء الملونة على النصب المرمري للأجساد البشرية المتشابكة على الركح ، تلتمع نتوءات

هياكلها ، وحافات تكويناتها ، كما لو كانت مصبوبة في قوالب معدنية مشعة عاكسة ؛ تتقوى مساقط الأضواء متداخلة الألوان ، لتتقوى معها في تزايد تدريجي ، إيقاعات نغم متصاعد ، يبلغ الأوج ، ليعاود الخفوت بتناقص مساقط الضوء على النصب المتشابك . . . شيئاً فشيئاً . . . حتى تتواهى مساقط الضوء والنغم ، لتعم شبه عتمة وشبه صمت للحظة ، لينبعث من بعيد صوت مزمار منفرد ، وشعاع ضوء خافت يسلط على النصب الجسدي في جموده المتشابك . . . ثم وكأن خافت النغم المزماري المتأني ، وضآلة الشعاع الضوئي ، تسري في النصب الجسدي من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى ، في حركة بطيئة وضعف نغم منفرد ، يوحي للعين وكأن حركة ما ، تمس بعض أطراف النصب المجسم ، وهْم كالحقيقة حقيقةٌ كالوهم ، تستمر العين الخادعة المخدوعة في تحسس ما يصدر من شبه حركة نائية واهية ، من هنا أو هناك ، في المجسم المنتصب أمام ناظريْها . . . خادعة عين مخدوعة . . . وكأنها أمام إزميل ديدالي توشك حركاته المنحوتة على جمودية التمثال أن تتحرك . . . توشك أن تتحرك . . . العين خادعة مخدوعة . . . تظل ترى سريان حركة رهيفة خفيفة في النصب البشري المتجمد ، كدبيب حياة خفية تتخلق ، تبدو تتقوى ، في تواز مع ما يتقوى من النغم المزماري المنفرد ، بتزايد مساقط الضوء ، بتداخل آلات نغم متكاملة مع إيقاع المزمار المتقوي ، لتعم الحركة سائر أطراف المجسم ، مع ارتفاع جوقة النغم ؛ رؤوس أطراف تتحرك مع النغم ، هامات تتميز بحركات إيقاعية عن التحامها الكلي المتجمد ، أطراف مميزة واضحة المعالم ، وأجسام بشرية تبدو كاملة مكتملة تفارق التحاماتها ، تخترق أشعة الضوء والظلال فرجات انفصالاتها عن بعضها البعض ، يضج

الكون بصخب موسيقي عال ، ضجة إيقاع نغمي متنافر مؤتلف ، يبلغ أوجه مع تمام قمة إيقاعية ، لتندفع الأجسام البشرية ، كمتمردة عن جمودها ، منفلتة عن عقالها ، مُسرحة النطاق بأقصى وسعها ، مسفرة عن طاقات فردية ، تجوب ببالغ قوة ومرونة أركان الركح ، في قفزات متجانسة متناغمة ، ذهاباً وإياباً هروباً وإقداماً ، يطارد بعضها بعضاً ، طرداً وعكساً ، بلا فرق من ذكر وأنثى ؛ كأنما هي معركة لإدراك ما لا يدرك من مبتغى ، سرعان ما ينقلب أمرها إلى عكس ما كان ، ليصبح الطارد بدوره مطروداً ، في تناغم مع تقاطعات نغم ولون وضياء .

كم يصبح الكائن بلا وزن : هبة نسيم ، أريج ورد ، فراشة زهر ومرعى . . . كم يصبح الكون رفيقاً شفافا محتضناً ، كم تنفتح النفس تعانق الريح ، تنشق متسام عبير تراب ، تتقرى بهيام قلائد سماء متلألئة ، فيض غيوم ماطرة مطهرة ، جود شمس بموسم حر ودفء . . . هي ذي سماحة بسعة أكوان ، ينفتح لها صدر صفية ، متعالية ترتقي معارج السمو ، مع مقامات النغم ، رشاقة أجساد رهيفة مرهفة شفافة على الركح ، تتقافز تتلوى تتجمع تتبلور تتفرق تتثنى تتفرد . . . ترسم في الأعماق ، بلا وزن ، بلا حجم ، بشفاء بلسمي ، لغات الروح ، تواصُل أنفاس ونفوس ؛ تستشعر صفية شبه غيبوبة بالغة المتعة في أعماقها حتى البكاء بمنتهى ابتهاج ، أي زمن حُبّ تُرفع إليه ، أي مكان في الكون العطوف الشفاف ، أي عالم تُزف إليه ، على أكف من حنو وحرير؟

تتبلور في مركز الركح رقعة ضوئية ، ترتسم فضية على أرضيته ، تقفز للارتواء من شلالها حمامة ، فراشة آدمية ، تمارس حركات تعبدية سلسة متباطئة ، على نغم هادئ يتناهى ، يسري هوناً في نسغ الكيان ؛ بينما تبدو مجموعة أفراد سائر الفريق ، في شبه العتمة والظل المحيط

بمسقط الشلال الضوئي ، شبه أشباح نائحة صامتة في دائرتها الحركية حول المركز الضوئي المشع ، كالمنجذبة نحو بؤرة الضوء ، تمارس في دورانها الإيقاعي الراقص ، إيماءات المقاومة لجذب بؤرة الضوء الفضي ، حيث الحمامة الفراشة البشرية في حركاتها التعبدية ، وكأنها بقدسية ما تمارسه من حركات ، تضاعف من قوة الجذب نحوها ، إليها ، باتجاه بؤرة ضوئها الفضي ، لتبدو الأشباح الدائرية في حركاتها الراقصة ، وهي في كل دورة تفقد من أفرادها ، من تأخذ به قوة الجذب إلى النقطة المركزية المضيئة ، تختطفه رغم المقاومة إلى بؤرة الضوء ؛ وهكذا دواليك ، حتى يتسارع إيقاع الانجذاب ، مع تسارع النغم وتصاعد وتيرته ليصل أوجه ، وإذا النصب الجسدي يستوي بكامل قاعدته البشرية العريضة ، ومخروطي امتداده المرتفع كرأس رمح نحو العلاء ؛ تشابك أجساد والتحام ، يركب بامتداد أطرافه والتواء حركاته المجمدة ، ومساقط الضوء المختلف على لمّاع معالمه ، لوحة نصب تمثالي جماعي ، لكائنات بشرية عارية شبه كاسية ، معبرة بتطلعات حركاتها وإيماءاتها المختلفة ، عن لحظات اشتياق واشتهاء إلى المراقي في أعلى أعالي . . . ليتخافت الضوء والنغم المزماري المنفرد ، رويداً رويداً ، حتى يتلاشى . . . ويغدو كل شيء كما كان ، يتجمد في التحامه التمثالي في شبه عتمة وضياء ، كما كان عليه في البدء .

تعود لنفسها صفية مستشعرة ترقرق دمع متجمد في عينيها ، تجد يدها رابضة في كف نعيم ، كأنها تدرك لأول مرة أنه رفيقها ، بجانبها ؛ يداً في يد ، يقفان مع جموع القاعة في تحايا حارة وموجات تصفيق ، ملؤها تعابير إعجاب وملامح إشادة ، بروعة الأداء وجمالية اللوحة الجسدية الآدمية المجمدة ، تنسدل عليها الستارة شيئاً فشيئاً .

شيء آخر هي الآن ، تعرف بوتو ذلك كما تعرف أين هي ؛ تتسلمها عزيزة في أبهى مظهر وزينة ، تأخذ بيدها ، تخطو معها بوتو بمنأى عن تحوط أو توجس ، بل ربما ببعض وثوق يعزى إلى شيء من ألفة ، أو إلى حياد وعدم اكتراث ؛ هي هنا في الرْياض أو عند مدام فلور كما يطلق عليه أيضاً ؛ يتردد اللفظ في سمعها وعلى لسانها مراراً في اليوم ، وكثيراً ما يُقرن ذكرُ المكان بصاحبته : رْياض مدام فلور ، أو يكتفى بذكر أحدهما فقط : الرْياض ، أو مدام فلور ، ليحصل الفهم ؛ المبنى تُحَفي قديم ، كان كغيره من مبان في مدن كثيرة ، مسكن أسرة من علية القوم ، ليُتخلى عنه ويُقتنى مرفق استقبال لضيوف وزبائن ، ينشدون نكهة العراقة في رْياضات طنجة هنا ، كما في مراكش هناك ، وفاس وغيرها من المدن العتيقة .

تقطعان الصحن ، منحرفتين عن موقع الخُصة الصامتة المتوقفة ، والمنتصبة في مركزه ضمن دائرية حوض فسيفسائي ، تمران حذو ضلع من مربع الصحن ، تنفتح عليه أبواب غرف متراصة ، بعضها مغلق وبعضها موارب ؛ تتجاوزان مركز الرْياض ، عبر ممر في اتجاه حديقة داخلية ، تتوسطها دويرية ، تعلو في وسطها قبة مخروطية صغيرة ، يزهو قرميدها الأخضر تحت أشعة شمس ظهيرة ربيعية ، تخطوان باتجاهها على ممر من صفائح رخامية منضدة بغير انتظام بين الحشائش ، يلجان المبنى الصغير المنعزل وسط الأعشاب والشجيرات ، بهو مضلع متوسط ، تنفتح عليه بضعة أبواب تلتمع بقطع زجاجية مختلفة الألوان

والأشكال ؛ تشير عزيزة إلى بوتو بالتريث ، تتركها متوقفة ، لتقصد باباً متطرفاً في إحدى زوايا مضلع البهو ، تطرق طرقاً خفيفاً ، تفتح الباب برفق وتدخل ، قبل أن تعود بعد فترة وجيزة ، تشير على بوتو لتدخل .

مدام فلور كما لو كانت في هذا الطرف المنعزل من رْياضها ، تنشد خلوة رغم أن الرْياض كله فضاء سكينة وهدوء ، غرفة رغم صغرها النسبي ، إلا أن فيها شيئاً من قاعة استقبال ومن مكتب شغل ، إنما يسودها الترتيب والانسجام ، تناغم الأشكال والألوان ، في الأثاث ، والتحف المزينة ، من أوان خزفية وثماثيل رخامة ، صخرية ، ومجلدات على رفوف متفاوتة متناسقة ، تضفي مسحة تكامل وانتظام .

تقوم مدام فلور من مكتبها مستقبلة بوتو ، مرحبة بطلق لسان وإشراق محيا ، تحتضن بوتو بذراعيها مقبّلة ، تشير إليها بالجلوس على كنبة جلدية ثخينة ، لتجلس قبالتها ، بينما تتأهب عزيزة للانصراف ، فتشير إليها مدام فلور بالبقاء ، لتجلس بدورها جنب بوتو .

تعرف بوتو أين هي ، حتى أنها لا تعير اهتماماً للنظرة المتمعنة الفاحصة من مدام فلور ، وهي تمسح كامل كيانها من جذع لأطراف ، وربما من الداخل أيضاً . . . ألم يأخذوها عارية على أكثر من ملمس ورق مصور ، وشريط جامد ومتحرك ، أخذوها على أكثر من وضع ، تحت رشاش ماء ، وعبر رغوة صابون ، وعلى أكثر من التفاتة وانحناءة ، وهي تخلع وتكتسي ، وفي كل وضع وعلى أية حركة خارج ذلك كله ، في تمام عفوية منها ، في لحظات استحمام وانفرد حميمية؟ ألا يتداولون بينهم السمات والصفات؟ ألم يأخذوها متقلبة على أكثر من جنب وهي نائمة ، ولم لا ، وهي في تمام راحة على كرسي مرحاض؟ تعرف أين هي وتألف أن يعرفوا عنها وفيها كل شيء ، حتى ما لا تعرفه هي

عن نفسها وعادات جسدها وحركاتها اللاإرادية ؛ تألف بوتو كل ذلك ، وتتوقع أن عيوناً إلكترونية ترصد حركاتها حيثما تخطو ، في كل قعدة أو انحناءة ، في يقظة أو منام ، في كامل ملبس أو تمام معرى ، مقتنصٌ كل شيء منها فيها ، مما يفيد ولا يفيد .

مهما تكن عينا مدام فلور ، فهما أقل حدة من نظرات أخريات وآخرين ، ربما نظرتها تتحسس ببعض دفء أو تقارب ، أو أنه مجرد فعل التعود لدى بوتو ، فقدان التوجس في أعماقها ؛ المرأة فلور في تمام اللياقة والأناقة ، في هيئة من وقار كهولة ، بملامح قوية تشي بمخايل جمال طبيعي ، لم تتوار معالمه أو تخبو ، بقدر ما ترسخت واكتست من عمق حضور ، تحفها مسحة زينة خفيفة ، لا تكاد تدرك ، تُستشعر إشراقَ محيا ، طفحَ بشر وتفتح ؛ تكرر المرأة ترحابها بكل عبارة وحركة ، بينما تبادر عزيزة بالقيام متوجهة إلى خزانة خشبية قصيرة ، تتراص على بسط سطحها الخشبي ، بحافاته البارزة ونقوشه المخرمة ، صينية عليها مصفوفة زجاجات مشروبات روحية مختلفة ، تتريث عزيزة لحظة ، لتلتفت تجاه مدام فلور في تساؤل كالهمس :

- كالعادة؟

تومئ المرأة بالإيجاب ، لتضع عزيزة الصينية ببضع زجاجات وكؤوس ، على طاولة واطئة تتوسط المجلس ، تنهض مرة أخرى تفتح باب الخزانة الخشبية ، تكمن في عمقها ثلاجة ، لتعود بآنية ثلج ومقبلات ، تصب في الكؤوس الثلاثة ، وهي تغمز لبوتو بتشجيع ، وتصب أقل مقدار في كأسها ، مخففة إياه بمزيد ماء وقطع ثلج ، لتعالج كأسها بعد ذلك ، دون كأس مدام فلور التي ما تلبث أن ترفعه إلى أعلى في حركة نخب ، مؤكدة في عبارات متأنية بمعالم تحسر ، أن

الأصول تقتضي شرب الويسكي كما هو، في دفء بيئته الطبيعية، دون أي مزج مهما يكن؛ تومئ عزيزة بالإيجاب، بما يوحي بأنها تعرف ذلك من عادات المرأة، بينما تنهض مدام فلور بكل تؤدة، شبه مسلمة بما أصبح عليه الحال في الخروج عن الأصول، متجهة صوب مكتبها، تردد عبارات التأسي على زمان الإتيكيت، لتعود إلى جلستها، بعلبة سجائر معدنية تفتحها أمام الفتاتين، تتناول منها عزيزة، موحية بطرف عين لبوتو أن تقوم بالمثل، تولع لهما المرأة، ثم تولج طرف سيجارتها في مبسم عاجي طويل، تضعه بين شفتيها وتولع آخذة نفساً طويلا هادئاً، ثم ترفع كأسها في وجه الفتاتين مرحبة ببوتو من جديد، لترشف جرعة خفيفة، وهي تتحدث تلقائياً عن عادتها في كأس منتصف الصباح، تقول عنها إنه سحرية في توازن المزاج، وبمزايا صحية عديدة؛ تؤمن عزيزة بحركة رأسها إيجاباً، وهي توجه طبق مكسرات نحو جليستيها، تلتقطان منه، بينما تركز مدام فلور نظرتها في ضيفتها بوتو، مؤكدة أن ما تقوله ليس زعماً منها، بل رأي الطبيب . . . كأس منتصف الصباح وصفة طبية صالحة للجميع.

تضع مدام فلور الكأس من يدها، على الطاولة . . . نشتغل إذن . . .

توحي المراة بحركة خفيفة، كأنما تحفز للعمل أو تنفض عن نفسها بعض خمول؛ تتحرك عزيزة على إثر ذلك صوب المكتب، تسحب ملفاً تسلمه للمرأة، التي تتناوله مكتسية ملامح جد لا تخلو من معالم حدة . . . إذن . . . تهمهم مدام فلور بعبارات متداخلة، وهي تتصفح بعض الأوراق، وعيناها خلف نظارتيهما السميكتين المعلقتين بقلادة رقيقة حول رقبتها، ما تفتآن تنتقلان ما بين الأوراق وملامح بوتو . . .

تتحفز بوتو في جلستها متحسسة صدرها ، وعينا الأشقر رايبلي ، تتلمسان بالأنامل مواطن أنوثتها ، في عريها التام ، على أملس سطح الصورة . . . . . . إذن . . . ترفع مدام فلور نظرتها عن الملف ، كالمستكفية المقتنعة بما اطلعت عليه ، تمد وثيقة وقلماً تتسلمهما عزيزة ، تضعهما أمام بوتو في إشارة أمر بالتوقيع على الورقة .

تعرف بوتو الآن ، على نحو أدق أين هي؟ لتوقع على التزام بدين تبقى قيمته غير محددة ، طبعاً لم تفاجأ ، تعرف ذلك ، أو على الأصح عرفته من مثيلاتها في الرْياض ، طبعاً لها أن تتردد أو تتريث قليلا . . . المبلغ غير محدد؟ طبعاً ، وكيف يحدد المبلغ مسبقاً؟ هذا ظلم وحيف لا يجوز . . . لعلها ممن يفكرن بأن الالتزام نفسه يجب أن يؤجل إلى ذلك الحين . . . هذا يعطل كل شيء ويبطل كل شيء ، لابد من الثقة ، لابد . . . وإلا كيف أمكن إتمام الرحلة إلى هنا ، بكل تلك المسافات والوسائل والإرشادات الآمنة المأمونة في كل مرحلة ومع الوساطات . . . كل ذلك مدفوع ثمنه مسبقاً ؛ من دفع إذن؟ لابد من الثقة بين طرفين وإلا . . . ولا ننسى مدام دوفيرنو ، هذه عمولتها مرتفعة ، علاوة على أن من يأتي من قبلها يراعى أحسن رعاية ، ويعامل بالأحسن في كل شيء ، كالحال مع بوتو . . .

تتساءل بوتو مرددة نظرتها بين عزيزة والمرأة عما تسمع :

– دوفيرنو؟

تؤكد عزيزة اسم مدام دوفيرنو ، مذكرة بوتو بالمرأة الأولى التي ارتبطت بها ، وهيأت لها الرحلة ، تلك واحدة من وسيطات أخريات وآخرين ، مدام دوفيرنو هذه بالذات ، لها ثمن مرتفع مختلف عن غيرها ، مع الأداء المسبق بطبيعة الحال ؛ يبدو الأمر مستعصياً عن ذهن

بوتو وكأنها تعتصر ذاكرتها كي تستحضر ،لتستفيق أخيراً

- آه ، ماري . . . تلك . . . ومارينج؟

تقاطعها المرأة في هيئة لامبالاة بالأسماء . . . ماري ، دولافور ، مروان ، دوفيرنو . . . أسماء . . . أوه ، انظري أنت الآن هنا . . . تركز بوتو في الوثيقة تحمل صورتها الشخصية باسم جديد . . . مع موطن ومسقط رأس . . . لا عليها بوتو ، فقد سمعتْ بذلك من مثيلاتها ، هو بالفعل ميلاد جديد ، لشخص جديد . . . لماذا؟ الأمر واضح وضروري ، لتسهيل المعاملات والعلاقات دون حرج ، علاوة على ما يلزم من أوراق ووثائق مؤقتة على الأقل ، وكله من أجل الأمن والأمان المطلوب ؛ سمعتْ بوتو بذلك وظلت تتوقعه ، إنما حصوله بالفعل ، يأتي مربكاً كالمفاجئ ؛ يدا عزيزة تربتان عليها ، ونظرة المرأة في شبه حياد ، مع ظل ابتسامة خفية مراودة على عتبة انفراج حسب الحال ؛ من يملك أن يرفض أو يتراجع عند هذا الحد؟

يداً في يد يغادران قاعة العرض ، بعد فرجة الرقص التعبيري الجماعي للفرقة الهنغارية ؛ صفية ونعيم في صمت كبقية المغادرين ، جمع يتحرك بتؤدة ومنتهى سكينة وهدوء ، على نحو غير معهود عند انتهاء حفل عمومي ، مشهد يبدو مخالفاً للمألوف من لغط وتداخل أصوات وحركات في مناسبات تجمعية فرجوية كهذه ، ولو من قبيل تقاطع تعليقات مفتعلة متعالية ، أو مستحسنة مجاملة .

صمت مشترك شامل ، وكأن المغادرين في عمق ذواتهم ، ما يزالون مغمورين بلحظات التعالي والإمتاع ، وأنهم اللحظة في مجرد فاصل من صميم العرض الفني ، ملؤه محض تأمل واستغراق .

قطرات مطر خفيفة تنزل لا تكاد تحس ، تبدو على أشعة مصابيح الشارع شبه خيوط فضية رفيعة منسدلة ، بينما ينبئ إسفلت الطريق وتسرب جدول مائي مستمر على حافة الطوار ، أنها مجرد فجوة صحو بعد فترة إمطار جيدة قوية ؛ يداً في يد ، يخطو نعيم وصفية ببعض هرولة بمجرد تجاوز الباب الخارجي لقاعة العرض ، باتجاه مركن الفيسبا في زاوية الشارع ، يدير نعيم مفتاحه في قفل الدراجة ، يسحب من جيبه منديلا يمسح سرجي الركوب ، يحرك هيكل الدراجة حركة خفيفة ، يميناً وشمالا ، ينفض عنه بعض البلل ، يعيد بقدمه دعامة التثبيت لتلتصق بوضعها االعادي ، وتستوي الدراجة في وضعها العمودي .

يضغط نعيم بقدمه نازلا بكامل ثقله على الدواس لتفعيل المحرك ،

دون استجابة آنية ، يعيد الحركة مراراً وتكراراً ، حريصاً في الآن نفسه ، على موازاة لحظة الدوس بالقدم ، مع دفق البنزين ، عبر تدوير المقبض المتحرك على المقود الأيمن ، فلا يستصدر بعد لأي ، إلا خرخرة واهية قصيرة ، تبدو ميتة من أصلها ؛ يتوقف نعيم في غيظ ظاهر ، لا تملك معه صفية شيئاً ، إلا مظهر مشاركة بملامح أمل ، في لحظة انفراج .

- تفو

نفثات غيظ ، لعنات في الفراغ ، يصدرها نعيم ، وهو يحاول أن يتفقد بعض الموصلات يمسح أو ينفخ فيها ، دفعاً لبرودة أو بلل متسرب ، يتلفت حواليه ، لا لطلب شيء أو انتظاره من أحد ، الشارع يوشك أن يخلو من حركته ، بعد انفرط رواد العرض ، كل في اتجاهه ووسيلته ، على منأى أقل من ساعة من منتصف ليلة غدت ممطرة وواعدة منذرة بالأكثر ، يكرر نعيم حركاته ويعيد ، دون جدوى ، إلا التعبير عن بالغ تذمر ويأس .

- خلاص . . . صافي عليك

تلفظها صفية في شبه رجاء ، يرفع عينيه تجاهها ، يبدو لها أنه قد بلغ غاية الجهد والمحاولة ، مدركاً بدوره أن لا فائدة ؛ تأخذه من ذراعه برفق .

- يكفي

يستقيم بجانبها مطاوعاً ، تتلاقى ملامح تساؤلهما الضمني . . . وبعد؟ ما العمل؟ ليس أمامه إلا أن يمشي راجلا ، يدفع معه الدراجة يماشيها إلى جانبه . . . وهي صفية؟ . . . يمكن البحث عن وسيلة . . . المسافة إلى . . . في هذا الليل . . .

تقاطع صفية تفكيرهما معاً بلهجة حاسمة

- لا

تفاجئه اللهجة وملامح رفضها القاطع . . . يعني؟ يأخذان طريقهما معاً ، نعم كل المسافة ، بلا عودة إلى إقامة المركز التربوي ؛ وتبقى منزل أسرتها أنسب وأقرب في حي سقالة على أطراف المدينة ، رغم بعده عن موقعهما في وسط المدينة ؛ لا تنتظر صفية موافقة ولا رفضاً ، وإنما تلم هيئتها وما عليها كأنما تشمر ، لتمد يديها إلى مقبض الفيسبا ، تدفع الدراجة بجانبها إلى الأمام ، متحركة في اتجاهها بخطوات حزم وعزيمة . . . إذن . . .

يسيران ، يأخذ نعيم مقبض الفيسبا من يد صفية ، في شبه اتكاءة وميل على هيكل الدراجة يدفعها إلى جانبه ، تخطو صفية مسايرة ، يقطعان مجموعات السكن المجاورة لموقع قاعة البلدية ، ليأخذا شارعاً رئيسياً باتجاه حي سقالة ، يبدو خالياً إلا من حركات متقطعة لعربات مختلفة في الاتجاهين ، خلاف ما يكون عليه الأمر من حمى السير وكثافة العربات ، على امتداد فترات النهار وساعات الذروة .

يسيران في صمت ، ومرة بعد أخرى ، تميل صفية بانحناءة خفيفة ، تضغط بيدها على السرج الخلفي للدراجة ، مساعدة في دفع يبدو سلساً لا يتكلف فيه نعيم كبير جهد ؛ خطو وصمت يتخلله تردد أنفاس وتقاطع خواطر لا تسمع ؛ يسيران في تمام صمت ، كل بمشاعره متضاربة في أعماقه . . . ربما كانا أجدر بمشهد هانئ مريح ، يتوج متعة فنية راقية رائعة ، لم تكن متوقعة ولا مخططاً لها من قبلهما ، وقد لا يُقدَّر لهما مثلها مستقبلا ؛ لم لا يكونان الآن ، وسهرتهما تنتهي على أحسن وجه ، أن تؤوب صفية إلى مأمنها في مأوى الطالبات بالمركز التربوي ، بينما يعود هو بدوره إلى إقامة الطلبة ، ما دام كل منهما

استأذن الإدارة ، ونال رخصة تغيب الليلة بعذر واضح مقبول ، بل إن الناظر يتأسف لفوات فرصة فنية مثل هذه ، على كل المنتسبين للمركز التربوي ، من طالبات وطلاب وهيئة مدرّسة؟ لم لا ، والناظر على أهبة أن ينهال على نعيم باللوم ، نظير تقصير كبير يجعل من نعيم يجعله يحجب عن الغير ، خبر الحفل الفني العالمي ، لولا أن نعيم يستبق الأمر موضحاً ، أنه هو نفسه لم يعرف بالأمر إلا بالصدفة ، وفي آخر لحظة؟

يسيران بخواطرهما المتقاطعة ، يخطوان على إسفلت مبلل تحت رحمة سماء تبدو ماطرة غائمة ، يستشعرانها منذرة بالمزيد ، وكانا على الأقل أجدر بمثيل ما جاءا به من طلق مزاج ، مترادفين ظهراً لبطن ، على سرجي الفيسبا ، يداعب الريح وذرات البلل صفحتي وجهيهما ، بما يضاهي سرعة دراجتهما ، يستعيدان ، كل لنفسه في صمت ، لحظات متعتهما بالعرض ، أو ربما كانا ليتبادلا تعليقات متقطعة ، تجعل صفية أكثر التحاماً بظهر نعيم ، مقربة لفظها إلى أدنى حد من سمع نعيم ، بينما هو يقود مرخياً باله إليها ، في شيء من خفيف التفاتة تجاهها ، بما يجعل تبادلهما يطفو ، مع ما يخالطه من صوت المحرك ، وحركة ريح رطبة مداعبة ، ربما . . . لكن . . .

يخطوان متضافرين في دفع لا يتطلب جهداً مضاعفاً ، يلفهما صمت يتخلله تردد أنفاس وخواطر ، لا تخلو من بعض آهات غيظ وتذمر مكتومة ، تتبدى على نعيم واضحة المعالم في انتفاضات مراودة ، بحركة رأس أو ضغط خطو .

تتباعد البنايات على خط سيرهما في امتداد شارع رئيسي ، باتجاه الأطراف شمالي المدينة ، مفسحة عن صفحة سماء مكسوة بغمام

متكاثف متحرك ، يبين آونة بعد أخرى ، عن استدارة بدر محتشم الضياء ، ما يلبث بدوره أن يتوارى ، في تناوب مع حركة الغمام ؛ يغذان السير قدماً متآزرين ، وما تلبث صفية أن تأخذ الوشاح من حول عنقها ، تُشرعه دون توقف عن السير ، تلف به رأسها ، وتديره حول رقبتها ، اتقاء نسمات رطبة بدأت تهب متقوية متخففة من رذاذها ، تداعب صفحة الوجه وأصابع اليدين بلسع برد خفيف ، بينما يبدو نعيم في غمرة خطوه وخواطره ، منفتح طوق قميصه وجناحي معطفه ، غير عابئ بشيء ، عدا أن يتحرك ويسرع ما وسعه ذلك .

يتردد صدى رعد بعيد ، مسبوقاً بلمع برق خاطف تتكسر خيوطه المشعة ، تشق صفحة سماء ما تفتأ تخفي بدراً متوارياً بردائها الغيمي ، كأنما تدفئه من قارس برد ، أو وجبة إمطار وشيك .

- رد بالك ، شد عليك

تنبه صفية رفيقها لاتقاء ذرات رذاذ خفيف تتنزل ، يومئ نعيم بحركة من رأسه موافقاً دون فعل شيء ، يتقوى نزول الرذاذ شيئاً فشيئاً ، على وقع خطواتهما التي تزداد بدورها سرعة وخفة ؛ تُستشعر قطرات مطرية غليظة متقطعة ، تخالط ذرات الرذاذ المتساقطة المتتالية ؛ يزداد إيقاع الخطو بدوره متسارعاً ، باقترابه من معالم سكنية لأطراف حي سقالة ، متناغماً مع تزايد القطرات المتنزلة ، كما لو كانا في سباق مضمر ، تتدانى أطراف الحي كما لو كانت بدورها تخطو باتجاههما تنشد القرب ، لتنفتح عليهما سعة السماء ، فجأة دفعة واحدة ، بأفواه قرب ماطرة ، مع لمع برق وهدير رعد متباعد ؛ يسرعان متضافرين معاً في دفع الدراجة ، يسابقان باتجاه أول بناية سكنية تصادف .

تقفز صفية خطوتين لتلتصق بالجدار ، يثبت نعيم هيكل الدراجة

على دعامة الوقوف ، ليقفز إلى موقعه بجوار صفية ، مزرراً ما عليه ، يلف من ياقة الجاكيت حول رقبته ؛ يستمران وقوفاً كتفاً لكتف ، في وضع لا يقي أكثر من ظهريهما الملتحمين بالحائط ، ليخطوا بعد حين ، تجاه فتحة باب حديدي صغير موصد ، ينغرزان على ضيق في عرض إفريزه ، يقيهما بعض الشيء ، بينما تستمر خيوط مطرية مائلة في التسرب إلى مكمنهما .

تحل صفية الوشاح من حول رأسها وعنقها ، تُشرعه على سعته لتضعه فوق رأسيهما معاً والكتفين ، ينصرُّ كل منهما على ذاته جلباً لمزيد حماية ودفء ، ليرمي نعيم ذراعه على كتف صفية ، تنجذب تجاهه محيطة وسطه بذراعيها ، مسندة رأسها إلى صدره ، يزدادان التحاماً براحة دفء تسري شبه خدر في كيانيهما ، مع خيوط مطرية ما تنفك تغزو مكمنهما ، وقطرات مائية تتسرب بين التحام كيانيهما من رأس لوجه لصدر ، يزداد انصرارهما إلى بعضهما ، أحدهما للآخر ، رأسها على صدره ، وجهه على قمة رأسها ، ملتحمان ببالغ هدأة وسكون ، لترفع وجهها تجاهه ، يلتقيان بتلقائية في وهج قبلة ندية عميقة .

حظها حمقها ، سعدها نحسها ، فرصة عمرها الذهبية وطريقها قيدها إلى قدرها المقدور المجهول . . . لا تدري بوتو ما هي ، ما حولها ، وإلى أين؟ قدماها وإلحاح رغبة كشدة جفاف في الحلق ، تدعوها إلى النزول بداية ليلة إلى رمل الشاطئ البليل ، كأنما رطوبة الرمل مع رطوبة ليل ، في تماسها مع صفحتي قدمين حافيتين ، من شأنها التسرب عبر أي واصل لتسري جريان دم في الكيان ، تطفئ حدة اللحظة ولظى الجموح . . . نسمة البحر عن قرب ، لَمْستُه التي تعشقتها ، طالما تشوقتْ إليها ، وهي المحرومة من فضاء وهواء ، ترى مشاهد البحر على شاشات التلفاز ، تتقافز على موجها ، تتمدد على ساخن رملها أجسام ، تحت أشعة شمس مداعبة متسربة حتى العظام ، تراهم يتقافزون يتمددون ، تتماهى مع حركاتهم وسكناتهم ، ينسلخون عن ذوات يتلبسون ذوات ، حتى لتتابعهم عائدين إلى مرابعهم بحمية جديدة وشوق جديد ، تتماهى معهم في الحضور والغياب ، من عزلة محيطها في الرّْياض المحصن الصغير ، من مرمري قفص ، من حريري ملبس ، من مخملي سرير وبهرج زينة .

بداية ليلة تقتنص بوتو لحظتها بجموح رغبة - لو تطاوعها - لا تقف ولن . . . عند مجرد بلل قدمين حافيتين برطوبة رمل ، لا ، ولا يكفي في إخماد لظاها غمس منتصف ساقين عاريتين ، ولا حتى ما فوق ذلك ، ما دون الركبتين أو أعلاهما ، إلى حدود تنورة أقصر ما تكون قياساً ، سهرتْ عزيزة بالذات على عيارها بالقيراط ، لتكون بداية

موضة جديدة ، يعض أقصى امتدادها وقوفاً ، منتصف ما بين محزم وركبة ، مشكلة بناصع بياض مخملي ، تعارضاً مثيراً مع أبنوسية سمرة الكيان الأنثوي الطافح .

تمرغ بوتو قدميها وتقلبهما ما بين خوض وخطو في بلل الرمل ، كابحة جماح رغبتها في الارتماء في الماء بما لها وما عليها ، مفتوحة متفتحة بالكامل لذرات الماء تغزو كيانها من كل منفذ ، مالئة شدقيها بجرعة ماء ، تخز ملوحتها ملء حلق واجف ناشف ؛ تخطو بوتو وحدها ، متحركة متقدمة ومتراجعة بغير انتظام ، في دائرة ضوء رُمْحية تشكلها جهورية مصابيح كشافة ، من الفيلا ـ كابانو الشاطئية ، تصب أشعة متقاطعة على رجراج موج وانسياب رمل ، كابحة جماح رغبة وكيان ، يملؤها في الأعماق صوت عزيزة ، وهي تزودهن بآخر تعليمات السهرة ، أو الضيافة كما تسميها ، منبهة إلى الحفاظ على معالم الزينة في تمامها ، كل واحدة منهن مرآة الأخرى ، وكل مرآة نفسها ؛ سهرة الضيافة ، لياقتها لا تحتمل أن تغفل الفتاة عن تفقد زينتها ، وأكثر من ذلك لا تحتمل الأسوأ الذي تمارسه النساء بعفوية وصفاقة ، والواحدة منهن تسحب بين حين وآخر ، مرآتها الخاصة متعهدة ملامحها بحركة كاشفة مكشوفة ، لا . . . فتيات عزيزة ، بنات الرْياض عرائس مدام فلور ، كل منهن مرآة رفيقاتها ، لا تغفل إحداهن أو تسهو عن مراقبة غيرها ، يتخاطبن بإيماءات خاصة ، وبلمحة طرف من إحداهن تفهم صاحبتها المراد ، لتنسل بقبلة ودعابة مع حركة التواء مرحة وإشارة اشتياق ، تجاه من تسميه عزيزة مضيفاً لا رفيقاً ولا زبوناً ، مستأذنة لحظة غياب طرفة عين ؛ إذ ذاك ، لها أن تتعهد نفسها مع نفسها ، لتعود صوب المضيف في تمام إقبال وإشراق .

تتوقف بوتو عند خط الفصل بين دائرة الأضواء في تساقطها على رمل وماء ، وبين منطقة الظلمة على الشاطئ ، ترنو إلى المشاهد المتحركة قبالتها خلف الزجاج داخل الفيلا المضيئة ، تتحرك في فضائها وعلى الشرفة ، شخوص تتهادى على إيقاع نغم يبدو ما يزال منساباً بهدوء ، كما تركته وهي تنسل عنهم ، تقفز الدرجات خطواً تجاه الشاطئ ، تولي وجهتها البحر ، تنشق بملء أنفاسها نسمات رطبة بمزيج ليل وبحر هادئ في فترة انحسار عن شاطئه ، وهي ترمي بطرفها بين الآن والآخر ، إلى تتابع حركات الشخوص وراء شفافية الزجاج ، داخل مبنى الفيلا وخارجها على سطح الشرفة .

ويمكن بالتأكيد أن تتبين من موقعها على رمل الشاطئ المبلل ، رفيقتها أواتي السنغالية ، مع صاحبها على الشرفة المفتوحة على فضاء الشاطئ ، يميزه طول قامة مثير ، كما هو مثير سبق لسانه وحركاته ، وهو يهتف بمجرد دخوله عليهن فاتحاً ذراعيه تجاه كل الفتيات ، كما لو كان يريدهن جميعاً في حزمة واحدة ، صارخاً أنه من عشاق القهوة .

- القهوة . . . القهوة . . . كافي أفريكان بور

قهوة إفريقية أصيلة خالصة ، يؤكد ذلك ويكرر ، مستقرئاً في حركته ، بنظرة سريعة جمع الفتيات ، ليتجه مباشرة فاتحاً ذراعيه تجاه أواتي ، محتضناً مقبلا متشمماً ، محتوياً إياها ، غائباً فيما يفغم من نكهة كيانها الفتي المتناغم مع رعونة حركاته .

بوتو مثل أواتي السينغالية وميناتو المالية ، ومثيلاتهن إفريقيات الساحل وجنوب الصحراء ، يمثلن قهوة ، هن قهوة بلون بشرتهن ، بينما غيرهن من الشقراوات والقريبات من ذلك ، من مثيلات روزا ، زهراء ، جاكلين ، يُنعتن باللبن ؛ وبينهما المزيج ، ممن هن بين بين ، قهوة بلبن ،

من مثيلات هند ، فاتي ، سعاد . . . لكل مضيف وهو ضيف في الآن نفسه ، ذوقه ومزاجه واختياره ؛ وأهم شيء في الأصول : المعاملة ، أناقة ، رشاقة ، لياقة ، ذلاقة في كل شيء من عبارة وحركة وإشارة .

يبدو شبحا الشرفة من أواتي ومضيفها ضيفها ، ظلا واحداً مضاعفاً ملتحماً ، ما يكاد شعاع ضوء يفصل بينهما حتى يغيب ؛ صاحب بوتو مضيفها ضيفها هي أيضاً قبل ذلك ، لم يطل به معهم وقت ، يبدو جد ممتلئ بحس الوقار والتعقل ، يسلّم بقبلة مضاعفة على الوجنتين ، يسحب بوتو بتمام لطف تجاه طاولة المشروبات ، يستأذنها في أن يصب لها كأساً ، توافق مشيرة إلى أنها تتناول ما يختاره لها ، ما يريد لهما معاً ، رشفة ، قبلة . . . يأخذ بيدها ليجلسا بين جمع يبدو منفرطاً ، في حركات تعارف أولية ، ما بين تبادلات مختلفة ، سرعان ما توحد بينها موسيقى هادئة متنائية ، تستجيب لها ثنائيات الجمع ، تتهادى متناغمة مع إيقاعها البطيء ، متحاضنة بكامل رفق وتعاطف .

كالعادة عند كل ضيافة ، كما تسمى بلغة الرْياض ، أو طلب لإحياء سهرة خارج الرْياض ؛ طبعاً ، يتهيأ كل شيء بعناية فائقة ، لا يظهر فيه ظل مدام فلور ، إلا في اللحظة الأخيرة ، لكنها عين ساهرة ويد خبيرة في كل مرحلة ؛ عزيزة في علاقة مباشرة مع الفتيات ، تراقب عبر المحممات المدلكات والمزينات والحلاقات والملبسات ، لكل بشرة وقوام ، ما يناسب من شكل ولون وقياس ؛ ناهيك عن التمرين وإعادة التمرين ، في الخطوة والالتواءة والوقفة والانحناءة وحسن الأخذ والرد ورقيق الاستجابة . . . تنتصب مدام فلور آخر الأمر ، تستعرض الفتيات في معالم رضى : ميناتو ، زهراء ، بوتو ، سعاد ، روزا ، هند . . . تتأملهن كما تتأمل لوحة من صنعها ، وهن يعبرن أمامها عتبة الرْياض

إلى الخارج ، حيث يتوزعن على سيارات فخمة مكتراة أو لشركة تابعة للرّياض ، ما تلبث أن تتحرك بهن ، تصحبهن عزيزة في مقدمة السيارة الأولى ، إذ تقضي الأصول والتعليمات ، بمرافقة الفتيات إلى مكان السهرة الضيافة ، وكذا عند أوان العودة ، للاطمئنان وإثبات الخصوصية ، كما تقضي بألا تستقل الفتيات في الذهاب والإياب ، أية سيارة أخرى ، بما فيها سيارة صاحب الطلب ، الذي لا يملك هو بذاته أو من يمثله أو ينوب عنه ، إلا أن يسير بسيارته في مقدمة الركب .

بوتو في حضن رفيقها متمايلان بلطف في رقصة هادئة ، تتملى انشراح ملامحه في هيأة ابتسامة رضى غير مفصحة ، تهمس أنفاسه في أذنها عن الاسم . . . اسمها؟ داميان اسمها ، تؤكد له ذلك بهمس وابتسامة . . . واسمه هو؟ ما تكاد تهمس في سمعه بالسؤال ، حتى يرن هاتفه ، ليخف احتضانه لها ، مع ايماءة اعتذار . . . يستمع إلى الطرف الآخر ، وهو يسحبها معه برفق إلى هامش الحلبة ، يبدو مستمعاً مستوعباً باهتمام بالغ ، وسرعان ما يغلق هاتفه ، يطبع على خدها قبلة خاطفة ، معتذراً عن تغيبه لأمر عاجل ، بعض الوقت . . . قليلا ويرجع .

فرصتها الذهبية ، حظها الحلم يتحقق ولو مؤقتاً ، لتقفز بوتو الدرجات نزولا تجاه البحر . . . تتنشق بكامل سعة صدر ، مفتحة المنافذ والحواس ، نسمات ندية من ليل وبحر ، في وقفتها على خط الفصل بين دائرة الضوء وامتداد الظلام ؛ ترنو بوتو من موقعها ، وهي تبادلُ الرؤية ما بين حركة السهرة وراء شفافية الزجاج ، وانعكاسات الأنوار على ظلمة شاطئ ، بحيث تحيله إلى لوحة من متآلف تجاوُر لوني ، بين ذهبي رمل ودكنة يم ، تغشاه متتابعة بزبد أبيض ، موجاتٌ رخية متهادية .

يبدو مشهد الجمع منغمراً في مباهج سهرته ، متحاضناً متمايلا على نغم تدرك بوتو إيقاعاته على البعد دون استماع ، يتردد في كيانها مزيجاً بصخب موجي خافت ، موقداً في أعماقها غمرة حنين غامض ، لا تتبين له مصدراً ، لا تدري له وجهة و لا كنهاً ، فيه شيء من كآبة وألم ، وفيه من راحة وابتهاج .

تؤوب لنفسها بوتو ، غير مكتفية ولا مشبعة مما اقتنصت لنفسها من لحظات ، وصاحبها مضيفها ضيفها ، قد يظهر في أية لحظة ، وهو بالتأكيد في طريق عودته ؛ تقتلع قدميها اقتلاعاً من موقعها في حد ما بين دائرة الضوء والظلمة ، ترنو إلى الشرفة تبدو لها خالية من ثنائيها المعهود ، بينما الجمع كالعهد به ، يتحرك وراء شفافية الزجاج في غامر تمايل واحتضان ، لعلها أواتي وصاحبها تركا موقعهما منضمين إلى الجمع في الداخل ؛ إذن تخطو بوتو في اتجاه المبنى لتتوقف . . . ماذا؟ أواتي وصاحبها يقفزان نزولا آخر درجة السلم ، تسلمهما إلى خطو متعرج مرح على الشاطئ ، يتجاذبان ، يتباعدان ، يتسابقان ، يتقاربان ، يتهاويان متمرغين فوق الرمل ، ليهمدا متعانقين ملتحمين .

تخطو بوتو في اتجاهها وقصدها صوب الفيلا ، ترفع ناظريها تجاه حركة السهرة ، مستحضرة عودة صاحبها الوشيكة ، إن لم تكن حاصلة أصلا ومنذ متى وكم . . . إنما . . . شيء ما . . . كشيء ما مر بعينها . . . كأنما رأت شيئاً . . . تعيد النظر تجاه حركة السهرة . . . شيء ما . . . حركة اضطراب تبدو واضحة على سير السهرة ، لعبة ما . . . في شكل بلبلة؟ تكاد تسرع الخطو ، لترى ثنائي أواتي وصاحبها على الرمل ، ينهضان منفصلين في عجلة . . . بوليس . . . بوليس . . . يصيح صاحب أواتي ، وهو يجمع أشتاته مسرعاً كما هو . . . بوليس . . .

بوليس . . . تتلوه أواتي في مثل حاله ، يتخبطان مغرقين في الطرف الآخر من منطقة الظلام .

تتسمر . ويلها بوتو ؛ تستفيق ، تصفع خدها بكف . . . حظها ، حمقها ، سعدها ، نحسها ، فرصتها الذهبية للنجاة ، أم سبيلها ، طريقها قيدها المقدور ، إلى منعرج مرسوم . . . أي طريق؟

تفتح رْحومة الباب لتطل وراءها سحنة الحسّوني مرتسمة عليهما علائم تطلع واستغراب

- آش كاين؟

صفية في منتصف الليل والمطر . . . ماذا؟ ما الأمر؟

- مالك؟

تضج رْحومة بالتساؤل وهي تجر ابنتها صفية جراً إلى الداخل ، بينما يبدو الوالد الحسوني متجمد الملامح ، غير مفصح عن غير تعجب واستغراب ؛ تدلف صفية إلى بهو المنزل ، ساحبة معها يد نعيم وراءها ، في هيئة ترحيب وتقديم .

- تفضل . زد ادخل سي نعيم

مضيفة وهي تنظر باتجاه أبويها ، أنه نعيم طالب معهم في المركز ؛ تُبادر رحومة في وجومها تُمِد ابنتها بمنشفة ، تلتقطها صفية وتناولها بدورها لنعيم ، لتنفلت هي مسرعة إلى إحدى الغرف ، وما تلبث أن تعود بعد لحظة منحشرة في معطف قطني منزلي ، ملفوفة الرأس بفوطة ثخينة .

يقتعد نعيم بتهيب بالغ كرسياً بلاستيكياً في البهو ، يكرر تنشيف رأسه وجوانبه ، رافضاً دعوة الجلوس على مفرش ، أو دخول غرفة لشدة ابتلاله .

- عملتها بنا الفيسبا

تقول صفية كأنما تتحدث بلسان نعيم ، معتذرة عما حصل ، أو ما

قد يفهم من ظاهر الأمر ، منهية بذلك خلاصة الموضوع إلى أبويها ؛ والدتها في ركن المطبخ المفتوح على البهو ، تعد الشاي ، ووالدها في جلسة شبه مقرفصة على حافة السداري ، عند عتبة الغرفة من الداخل ، بحيث يبقى في وضع المشاهد المشارك ، بنصف التفاتته تجاه البهو ؛ لم يكن على صفية من حرج كبير بشأن سهرتها هذه الليلة سواء في قاعة البلدية ، أو في المركز التربوي ، لا فرق في ذلك لتعوّد أهلها على مبيتها في إقامة الطالبات ؛ لكن ما عليه الحال من طقس ، ومن حركة منتصف الليل في جو ممطر ، مع حلول ضيف أو رفيق غريب ، غير معروف من قبلهم ، ولا متوقع القدوم . . . و . و . . .

- نعيم مسكين الله يجازيه بخير تمحن معايا كثير لو ما كان هو . . .

تقول صفية ذلك ، متحدثة من ذاتها ، كأنما تدرك أن عليها وحدها ، هي بالذات ، أن تتكلم وتشرح ما يتعلق بالموضوع من وصف الحال والظروف الخاصة لهذه الليلة ، مهونة أو مهولة ، حسب مقتضى الحال ، ببعض إضافات منها وتعليقات .

تتابع رْحومة ما تقول ابنتها ببالغ اهتمام ، رغم ظاهر انشغالها في المطبخ ، بينما يصغي الحسوني في شبه حياد لا يخفي ما تحته من تساؤل وتطلع ؛ هكذا ، تؤكد صفية كيف فاجأها انعدام وسيلة نقل حين انتهاء الحفل ، بسبب سوء الطقس من مطر وريح ، مع وفرة الناس وطالبات المركز وطلبته ، لولا تطوع بعض من له وسيلة من ذوي المركز والمنتمين إليه ، حتى أوشكت صفية أن تبقى وحيدة ، لولا تفضل سي نعيم تجاهها ، لكن الحظ كان سيئاً معهما ، بسبب تسرب البلل داخل أجهزة المحرك وتعطل الفيسبا بهما ، في منتصف الطريق ، ليقضيا

المتبقي من مسافة على قدميهما تحت وابل المطر .

- الحمد لله على السلامة يا بنتي ، وسي نعيم ما عمل إلا الخير ، الله يجازيه بالخير

تقول رْحومة ذلك في صيغة المؤمّنة على قول صفية ، وكأنها بذلك إذ تطمئن على سلامة ابنتها ، تطرد في الآن نفسه ، كل خاطرة غير مواتية يمكن أن ترد في ذهن ما ، لتُقْبِل بعد ذلك من مطبخها ، وهي تجلب طاولة صغيرة أمام نعيم ، تضع عليها صينية صغيرة ، يتوسطها براد شاي وبضع كؤوس مع بعض الحلوى ، بينما الحسوني جامد صامت ، في قعدته نصف الداخل نصف الخارج من الغرفة ، بالتفاتته المطلة على البهو ؛ تبادر صفية تصب الشاي لنعيم ولها أولا ، بينما تومئ أمها ووالدها ، بعدم الرغبة في تناول الشاي .

يتحرك نعيم متهيئاً للوقوف كمن يستأذن في الانصراف ؛ إلى أين؟ كيف؟ تتساءل رْحومة وصفية معاً في تعجب وصوت واحد . . . كيف؟ الليل . . . الفيسبا المعطلة . . . لا يمكن . لا . لا . من جهته يؤكد نعيم أن عليه أن يذهب إلى حاله ، مهما يكن . . . يرجع إلى المنزل أو يذهب إلى المركز ؛ وربما المنزل أفضل . . . إنما شكراً شكراً ، يستأذن وهو واقف يعتزم الخروج .

تتقاطع النظرات ، تبادر صفية مقترحة على الأقل ، أن يترك نعيم الفيسبا هنا ، إلى حين يمكن إصلاحها أو تدبر أمرها في صحو من نهار ، ملتفتة تجاه والدها في مكمنه لا يكاد يحرك ساكناً ، بينما تردف رْحومة وكأنما فهمت قصد ابنتها ، لتقول إن دراجتهم الهوائية العادية رهن تصرف نعيم إذا شاء . . . لم لا؟

يخطو سامان بكامل تؤدة وارتياح في حي التقدم الرباطي ، تقوده القدم عن قصد مضمر ، تجاه ساحة مألوفة يعرفها جيداً ، وسط مبان شعبية صغيرة متفاوتة الارتفاع من طابق إلى ثلاثة ، تتراص على جنباتها مواقف سيارات الساكنة والزوار ، أغلبها فارغ في هذا المساء من عطلة يوم الأحد ، لخروج الناس في نزهات أو زيارات خارج الحي ، أو في سفريات قصار خارج المدينة ، مما يترك فراغات بين مرابض السيارات ، كأفواه غولية مشرعة ، غير منتظمة في السعة والضيق ، عكس ما يحصل عند أوبة الجميع نهاية المساء ، حيث تمتلئ المراكن عن آخرها ، وتكتظ الساحة بمن لا يجدون لسياراتهم موقعاً ، يحاولون أن يركنوا كيفما اتفق ، على حساب غيرهم بإعاقة حركة عامة ، أو امتناع خروج آمن لسيارة من مركنها ؛ هنا تشحذ همة حارس الساحة بليل أو نهار ، حيث يبين عن بعض تدبير ، كأن يوائم بين ما يعرفه من عادات البعض في أوقات تحريك سياراتهم ، أو يحتفظ بمفاتيح سيارات البعض ، ليحركها بذاته عند الضروة في غياب أصحابها ، كما يعمل على حفظ أماكن امتياز معينة للبعض ، لوقوعها صوب مساكنهم مباشرة ، علاوة على وضع من يحجزون مواقعهم باستمرار ، وبصفة عملية ، بركن سيارات معطلة أو شبه معطلة ، قلما تدعو ضرورة لتحريكها ، تكسو سطوحها المعدنية أو غطاءاتها البلاستيكية ، على الدوام فرشة غبار سميكة .

يخطو سامان في الساحة ، معترك شغله التناوبي بليل أو نهار ، يمر

بركنية بّالعربي في مقتعده على حشية من الحلفاء ، فوق كرسي واطئ بدون ظهر ، جنب كشكه الخشبي القائم ، يُحتمى بداخله حين البرد والمطر على وجه الخصوص ، وحيث يصبح مقتعد سامان أثناء نوبته من ليل أو نهار .

يلقي سامان تحية خاطفة على بّالعربي ، ليست كالمعهود من إطالة تحية وكلام ، مع رغبة في جر اللسان بأي شيء حول أي شيء ؛ يستشعر سامان عيني بّالعربي تتابعانه ، يخمن سامان ما يرافقهما من ملء عجب وربما بعض تأفف ، من تغير أحوال البشر بين عشية وضحاها ، كما يقول دائماً في شبه حكمة وخبرة مستقاة ؛ هكذا الناس ، يراهم بّالعربي يغيرون ويتغيرون ، لله في الله ، بلا علم ولا سبب .

يمضي سامان في خطوه الوئيد ، غير عابئ بما وراء النظرات المتطلعة إلى هيئته ، على جنبات الساحة ، من عيون شباب وغير شباب ، أفارقة ومغاربة ، من ساكنة الحي وعابري الساحة ، ممن يعرفهم ويعرفونه بالعشرة والمعاملة والجوار ، يومئ تجاههم بتحيات خفيفة ، متجاهلا ما يستشعره من فضول عيون مطلة من نوافذ أو سطوح ، لا يوليها اهتماماً ولا يرفع تجاهها نظرة . . . يمضي لشأنه كغير عابئ بما حوله ، عدا إيماءات خفيفة يرسلها بين آن وآخر ، ذات يمين وذات شمال ، إلى أن يستشعر شبه مناداة بلا لفظ مفهوم أو عبارة ، يسمعها مفردة تتقوى وتتجمع بلا معنى . . .أها . . . أهو . . . أهي . . . يخالطها صفير متفاوت الحدة والطول ، لتأخذ شكل أغنية جماعية عفوية . . . أها أهو . . . أهو أهي . . . أها أهو . . . تتردد على جنبات الساحة ، بل ويحس خطوات وحرارة الأنشودة من أصوات بقربه ، يلتفت ليجد جمعاً وراءه ، من

جانبيه ، وما يلبث أن يحاط به من كل جانب ، ليصبح في بؤرة دائرة شبه مغلقة ، متعالية من حوله الأصوات ، متجاوبة من النوافذ والسطوح ، مع أنماط صفير متداخلة ، يتفرس سامان في الجميع ، بما يبدون من ملامح ابتهاجهم وإشراقهم ، غير مدرك لشيء . . . أها أهو . . . أهو أهي . . . تتماوج أصواتهم بشبه أهزوجة جماعية عفوية . . . أها أهو . . . أهو أهي . . . غير فاهم ولا متصور لمعنى ما يجري ، يلتفت إلى بوتو بجانبه ، يدها في يده ، مثله هي أيضاً غير مدركة شيئاً مما حولها ، لا يملك سامان إلا أن يومئ للجميع بتحية ، رافعاً يده بيد بوتو إلى الأعلى تجاه الكل ، لتعم موجة تصفيق حاد طويل وزغاريد . . . تهانٍ ، تهانٍ عفوية ، عرسية بكل المقاييس ، ومن الكل . . . حتى بّالعربي ، وقد ترك مقتعده وخواطر عجبه وتأففه ، ليكون في مقدمة المهنئين . . . الله يجمع الشمل . . . الحمد لله . . .

نو . . . نو . . . يصيح سامان مكرراً في وجه الجميع نو نو نو . . . بدورها بوتو ، مبلبلة مدهوشة ، تؤكد وتكرر في وجه الجميع ، بشدة رفض منها وقوة إنكار واستنكار ، باكفهرار ملامح وصرّ أسنان . . . نو . . . نو . . . نو . . .

لا يجدي شيء في تغيير شيء ؛ يشتد هرج دائرة بشرية محيطة ، متفاوتة الأعمار مختلفة الملامح من ساكنة الحي وجوار الساحة ، وممن دافعهم التطلع والفضول ، جاذبهم الهرج والتجمع : سحنات مغربية ، إفريقة ، نساء ورجال وصبيان ، بينما ترتفع حمية الجمع ، كأنما تزيدها وقوداً ، معالمُ النفي والرفض من جانب سامان وبوتو مجتمعين ، لا يملكان معها إلا التقدم عبر فتحة الدائرة البشرية مقابلهما ، يخطوان في غمرة صفير وتصفيق وترداد أهو أهو . . . أهي أهي . . . يتقدمان ،

تقودهما وتحيط بهما حركة الدائرة وهتافاتها ، إلى حدود الزقاق الضيق المغلق ، حيث يقطن سامان ، يتشارك غرفة مع الكاميروني نْدُوي ، والإيفواري بايولاي ، حيث يجدهما واقفين عند رأس الزقاق ، مهللين مصفقين ؛ لتظهر في الحين الجارة للاّمليكة في أحد كفيها بضع تمرات ، وفي يدها الأخرى كأس لبن صغيرة ، تقدمها تجاه سامان وبوتو ، بإشارة تواضع بما في المستطاع ، وبعبارات تغيبها الضجة :

– خونا سلْمان ، غالي عندنا وعزيز علينا ، مبروك مبروك ، واعْذرْنا اعْذرْنا اعْذرْنا

يأخذ سامان ما بيدي المرأة ، دون تناول شيء منه ، مع إيماءة شكر خفيفة ؛ تبدأ الضجة تهمد بعض الشيء ، إلا ما يتناهى من أطراف بعيدة متقطعة ، كعزف شارد أو منفرد ، أها أهو أهو أهي . . . يتقدم سامان بجانبه بوتو ، صحبتهما نْدُوي و بايولاي ، تجاه المسكن داخل الزقاق الضيق المغلق ، بينما يقف المتواجدون من ساكنة الزقاق على اختلافهم ، ملتحمة كياناتهم بالجدران ، لترك فسحة مرور لمن يعبر بينهم .

في صحن الطابق الأرضي ، حيث غرفة سامان ورفيقيه ، بجوار غرفتين أخريين لغيرهم ، وُضعت على عجل سدادر ، صفت مع بعض كراسي ، لتتقدم للاّمليكة مرحبة ، كما لو كانت تستقبل ضيوفاً يخصونها وحدها ، تشير لسامان وبوتو بالجلوس ، ليمتلئ الصحن بثلة جيران بسحنات وقامات وأعمار مختلفة من الجنسين ، مغاربة وجنوب صحراويين أفارقة ؛ وسرعان ما تأتي للاّمليكة بصينية الشاي ، تتلوها بنتها الصبية لبنى ، تقود جدتها المسنة الضريرة ميمتي غْبوش ، التي تبدو في غاية بهجة وبشر ، تجلسها بجانب سامان ؛ وما تلبث العجوز

ميمتي غْبوش أن تبدأ بتلمس سامان جنبها والميل في اتجاه محادثته، لتتساءل بصوت مسموع موجه إلى من يمكن أن يجيب:

– سمعنا زغاريت تبارك الله، وليّد هو؟

تنتظر برهة لا تسمع فيها جواباً، لتتابع سؤالها:

– زادت عندكم بنية؟ الله يكمل بالخير، كلشي زين... البنات رحمة...

تقفز للاّمليكة تجاه أمها، تصب في جوف سمعها الأصم، بصوت متباطئ أنها ليست ولادة، لا وليد ولا بنية، هذي خطبة، عرس...

تبدو ميمتي غْبوش محركة رأسها إيجاباً، كما لو سمعت ووعت، مكررة ما فهمت ببالغ مرح واستبشار:

– آهاه... السابع هذا... إيوه مبروك السبوع....

تكرر للاّمليكة مصححة سمع والدتها، أنها خطبة... فرح... عرس

تؤمن ميمتي عبوش برأسها إيجاباً، معتذرة عن سوء سمعها، مكررة مباركتها لحفل الختان، مستدركة بالسؤال عن المختون:

– والصبي تبارك الله عليه، ولد من؟

تربت للاّمليكة على كتف أمها، مسكنة لها من فضولها

– ميمتي، خذي لك أتاي

تشد بيد والدتها، تناولها كأس الشاي في جُمع يدها، وترفعها به إلى شفتيها، تغريها وتسكتها بارتشاف الشاي، لتتركها وتنهض عنها دون كلمة.

ينتصب سامان واقفاً مصمماً على إسماع صوته، طالباً الصمت من الجميع، ليبدأ في شرح الموقف قائلا، إن رفيقته بوتو، هاته التي

بجانبه الآن ، ليست إلا صديقة من نيجريا ، صداقة قديمة جمعتهما في ظروف خاصة ، لم يلتقيا بعدها لمدة طويلة ، حتى التقيا صدفة من جديد ، في السوق مونامي ، باب الحد .

في هذه الأثناء يخرج كل من نْدُوي ووراءه بايولاي من غرفتهما ، محملين برزمتين من المتاع ، ليعلن نْدوي أنهما يفرغان الغرفة للزوجين . . . تصيح بوتو بحدة

- نونونو . . .

لتقوم تواً مغادرة ، يتلوها على الإثر سامان .

يخيم صمت واجم ، تتحسس ميمتي غْبوش جنبيها ، شاعرة بالفراغ من حولها ، لتتساءل بصوت خافت في هيئة استطلاع وتردد :

- صافي ختنوه؟

لا تسمع جواباً أو تنتظر ، وإنما ينشق حلقها عن عزم زغرودة مرحبة ، تأتي مبحوحة جافة متقطعة ، أقرب إلى الحشرجة .

تسعل صفية عدة مرات ، متقلبة ملتفة في فراش فوق سداري بمنزل الأسرة ، تبدو زْحومة جالسة مغتمة ، تجلس بقرب رأس ابنتها على حاشية السداري الملاصق ، تثيرها حركة صفية في الفراش ، تتحرك نحوها تستطلع حالها ، واضعة كفها على جبهتها متحسسة حرارتها ، مسوية أطراف الغطاء على جسدها .

تتحرك صفية مفرجة عنها بعض الغطاء ، متحاملة على نفسها ، تحاول أن تستوي قليلا لتنتصب قاعدة في فراشها ، بينما تسارع زْحومة لمساعدتها .

- شوية؟

سؤال زْحومة عن الحال أو إن كان من تحسن ، تومئ صفية بحركة مطمئنة أن لا بأس ؛ تسألها زْحومة إن كانت تحتاج إلى شيء ، تنظر صفية بادية الإنهاك إلى طاولة صغيرة بجانبها ، عليها بعض أدوية وقنينة ماء ، تبادر الوالدة بتحريك الطاولة قليلا ، لتكون أكثر قرباً في متناول ابنتها ، تتناول صفية بحركة بادية الوهن بعض أدويتها ، بينما تناولها والدتها كوب ماء .

- شوية ، أحسن؟

تستفسر زْحومة مكررة سؤالها عن الحال ، وهل من تحسن ، تستجيب ، صفية أن لا بأس ، متسائلة بدورها عن الساعة ، لتخبرها والدتها عن سي نعيم الذي جاء مساء الأمس ، يأخذ دراجته ، مسكين ، حتى هو مريض وحالته حالة . . . بدوره أصابته النزلة ، كان

بادي العلة متحاملا على نفسه ، كان معه صديقه أو أحد معارفه .

تسترد رْحومة كوب الماء من يد ابنتها ، التي تبدو متتبعة حديث والدتها ، مصغية وبنظرة مستزيدة ؛ طبعاً لابد أن يسأل نعيم عن زميلته ، ملامح صفية ناطقة بالسؤال دون لفظ ، نعم . . . نعم . . . تؤكد رحومة ، أكثر من مرة كان نعيم يسأل ويعيد عن صفية ، وفي النهاية كان يريد رؤيتها ، لكنها كانت مغرقة في النوم ، لا سبيل إلى إقلاق راحتها ، وهو بدوره كان منهكاً . . . مسكين .

تبدو صفية مكتفية بما تسمع ، تميل إلى أن تخلد للراحة ، تتحرك رْحومة لمساعدتها ، تسوي عليها الغطاء ، تُبعد قليلا طاولة الدواء ، لتعود إلى حيث كانت على حاشية السداري الملاصق ، تظل في جلستها هادئة ساهمة لفترة ، قبل أن تقوم لبعض شأنها .

وعكة صحية تلم بصفية مترتبة عن نزلة برد ، بمظاهر زكام قوي ، بعد أمسيتها وليلتها الممطرة المعهودة صحبة نعيم ، متسببة في إلزامها الفراش لبضعة أيام .

تقبل زينب بادية القلق لحد التوتر ، ما تكاد تطل عند عتبة الغرفة ، حتى ترمي ما بيدها جانباً ، متجهة في عجلة واضطراب صوب فراش صفية الممددة ، متجاهلة إشارة الوالدة رْحومة لها بالتريث ، أو ترك المريضة لراحتها ؛ تقبل زينب ترفع الغطاء قليلا عن صفية منحنية عليها مقبلة ، لتتحرك بدورها صفية مستجيبة لعناية أختها بها ؛ تتساءل زينب عن الحال ، لكنها في الآن نفسه تنحي باللوم على الوالدة رْحومة ، وكيف لا يخبرها أحد هي زينب ، عن مرض أختها حتى بالتلفون ؛ ماذا؟ ألِندرة المحمول وهو اليوم لعبة صبيان وعدة الرعاة وراء قطعانهم في الجبال ، أم لتكلفة المكالمة بنصف درهم؟

تهوّن رْحومة وتهدئ من ثائرة ابنتها ، معللة بأنهم يعرفون ويقدرون ما تخوض فيه زينب من مشاكل مع الأولاد ، في وحدانيتها وظروفها الصعبة ، كما أن صفية نفسها أكدت على ألا يقلقوا على حالها أو يُقلقوا أحداً على حالها ، حتى إنها رفضت زيارة الطبيب ، رغم حالتها ، وحرارتُها كانت مرتفعة ، لا تتناول طعاماً عدا الماء والدواء .

تتحامل صفية لتقعد في فراشها ، مطمئنة أختها عن حالها ، في حين تبادر رحومة ، تسأل زينب عن الجديد في وضعية ابنها أيوب ، لتبدو هذه وكأنما كانت تنتظر مثل هذا السؤال لتفرغ ما بها ، مذكرة بأن إدارة مدرسته مصرة على طرده ، وأن زينب الآن في معركة لا تنتهي مع إصرار المدرسة على عدم قبوله من جديد ، لعدوانيته المتكررة ضد زملائه وسوء سلوكه مع الأساتذة ، كل هذا مع نتائج غير مرضية في دراسته ، رغم جهود ومصاريف الدروس الإضافية الخاصة ؛ تتأوه رْحومة على وضع زينب وما تعرف من محنتها المستمرة ، مع هذا الحفيد المتعب لنفسه ولوالدته ، في غياب والده ووحدانية أمه .

تمسك صفية بكف أختها زينب في عطف ، مسندة رأسها إلى صدرها ، متسائلة بصوت واهن عن الحل ؛ هل من حل للوضع؟ والو . . . لا شيء ، تؤكد زينب مغتمة ، قرار المجلس التأديبي بالطرد نهائي لا رجعة فيه ؛ تنفي أي حل ملائم يبدو في الأفق ، وكل ما تقترحه المدرسة وتراه في حق أيوب ، هو تمكينه من الانتقال إلى مدرسة أخرى ، ستكون بعيدة بلا شك ومكلفة أكثر ؛ والولد أيوب لا يرعوي ، عدوانيته متعمدة مقصودة ، باله كله مشغول بإيطاليا واللحاق بوالده هناك . . . ولا جديد . . . والو والو ؛ تجيب زينب عما تعرفه من سؤال مألوف ، عن موعد التحاقها مع الأولاد بزوجها عياد ، لتنفي

بحـركـة رأس ولسـان أن لا شيء ، والو والو . . . كله كـذب ، لا يكف عيـاد عن المماطلة والتسـويف ، سنتـه الرابعـة هذه ، يكمل الآن أربع سنوات وزيادة ، مرة يشكو أن شغله غير قار ولا منتظم ، وحيناً يتعلل بالسكن الملائم وأنه ينتظر دوره ليحظى بذلك ، وحيناً يلعن الإجراءات الإدارية المعرقلة . . . والو والو عياد كذاب لعّاب . . . ولا تدري ما يفعل أو فيم يفكر ، إن كان فعلا يفكر ؛ حتى زيارته خلال عطلة الصيف القصيرة أصلا ، يجعلها خاطفة عابرة ؛ وفي النهاية لا شيء . . . والو والو . . .

تبدو زينب في ذروة هم وقنوط من حالها ومحنتها ، تجعل ملامح صفية تكتسي مزيد ألم على ما بها من وهن ، وهي تلمس بكفها يد أختها مواسية لها ببعض عبارات خافتة ، لتدهمها نوبة سعال مفاجئة ، تسندها زينب إلى صدرها ، تناولها ملعقة مهدئ تسارع به زْحومة ، حتى تهدأ بعض الشيء .

تسوي زينب وضع أختها على الوسادة ، تصلح عليها الغطاء وتتركها تستريح .

يضحك سامان بعمق ، يكاد يقهقه وهو يضم إليه بوتو ، مستحضراً مشاهد الاحتفاء بهما عروسين دون علمهما ، على الرغم منهما ، بدون أدنى تكاليف . . . كلشي ساهل ماهل ؛ تدس بوتو رأسها في صدره ، تشاطره هزلية ذلك اليوم ؛ يسوي سامان من الغطاء الخفيف على جسديهما ، وهو يستحضر أبلغ ما في المشهد : أن يمْثل بّالعربي نفسه ، بكيانه الواجف بطبعه ، جلداً على عظم ، ليتقدم مهمهماً بتهنئة حارة ، هو الذي يقضي معه الساعات في هذر حول هم النساء ، مكائدهن ومكابدات الرجال من حرهن ، وما ينبغي للعاقل من حرص واحتراس على ما يؤمن سلامته منهن ؛ أوه بّالعربي تحفة حقيقية . . .

تبدو بوتو متابعة ملامح سامان ، وهو ساهم يتأمل صورة صديقه بّالعربي حية نابضة أمامه ، بنمط حركاته ، بحكمه وتناقضاته ، بنصائحه . . . إذ يلتفت بّالعربي جانباً ، ليرسل في جوف السبسي نفخة قوية من نفَسه ، ترمي بطفية الكيف من عقفة شقفه الطيني إلى الخارج ، حيث تحتضر شعلتها المتبقية في الخلاء ، كقذيفة مدفعية صغيرة ، أخطأت هدفها أو سقطت دونه . . .

- اسمع آوليدي سلمان النْسا ياوليدي الحبيب ما فيهم ثقة ما عندهم أمان ما منهم شفقة ولا رحمة ، سولني أنا نحكي لك . . .

حكايات بّالعربي لا تنتهي ولا يكاد يغير من موضوعها ، إلا بتعليق حول هذا الحاج الكريم الذي لا يبخل بنفحه بعض الدراهم ،

حيثما رآه أو مر به ، خارجاً عن واجب الحراسة الشهري لسيارته ومنزله ، أو ذاك الموظف المتعجرف من ذوي السلطة في سابق عهده ، والذي تشعر به وهو يمر أمامك ، أو يوجه تجاهك نظرة ، وكأنه في سابع سماوات وأنت دون الأرض والبشر جميعاً ، في حفير وحقير .

- تفو . . . ينعلها سلعة

يملأ بّالعربي سبسيَه ، بسحيق الكيف الململموم في قطعة صغيرة من كاغد مقوى يستعملها بمثابة مطوي ، وقد تليّنتْ بكثرة ما طُويتْ وتلوّتْ على ما بها من ثمين عشبة ، يمسك بّالعربي بالسبسي من عقفة الشقف الطيني ، ما بين الوسطى والإبهام ، ضاغطاً بحركة خفيفة مترددة بالسبابة على السحيق في جوف الشقف الطيني عدة مرات ، قبل أن يشعل ويمتص عبر قصبة السبسي ، نفساً خاطفاً أولياً ، لمجرد التذوق والاختبار ، ليميل تجاه صاحبه وجليسه سامان يهديه التدخينة .

يتشاركان الرفقة وتبادل الحراسة ما بين ليل ونهار ، بيد أن لقاء المناوبة من صبح أو مساء ، لا يمر دون جلسة هانئة ، ينعمان فيها بما يصلهما من طرف الساكنة حيناً بعد آخر ، من شاي ورغايف وحلويات ، أو من وجبات في أوانها ، لمن يوجد منهما في ليل أو نهار .

ويجدها بّالعربي فرصته المتاحة دائماً ، للتأسي على أنه كان متسرعاً في الزواج ، وفي الإنجاب بلافائدة ، وكله من ثقته في النسا ، وفي الأولاد .

- لا ثقة في النْسا والزمان كله

يؤكد بّالعربي حكمته ، بحركة رأس موقنة متيقنة مجربة ، معدداً أنه الآن يعيش وحيداً ، هجره الكل : البنتان كل وراء زوجها ، ثلاثة

ذكور صغيرهم في ألمانيا أو فرنسا ، لا علم به ولا هو يسأل عن أحد ، الآخران مع أمهما عند أهلها ، لا يدري ما يشتغلان أو ينتجان ؛ هجروه جميعاً ، لا من يتذكره أو يسأل عنه .

ينفض بّالعربي رأسه حسرة واستنكاراً ، يراجع إفراغ شقف السبسي من طفيته برمية نفَس خبيرة ، يفك الشقف من قصبة السبسي ، ويستل من جنبه سلكاً معدنياً رقيقاً مرناً ، يدفعه في طرف ثقب القصبة الرقيقة ، ليستخرجه من طرفها الآخر ، ويسحبه مليئاً بالقير اللزج الأسود شبيه قطران ثخين وفي لونه ، ليتأمل بّالعربي ملياً حمولة السلك على طوله ، ببالغ تذمر وتأفف قبل أن يرميه بما فيه بعيداً عنه ، وهو يلعن هذه البلية اللعينة ، التي يسيئ بها لذاته ، بهذا السم القاتل ، مكرراً لعنه ونصيحته في الآن نفسه .

– قير زفت ويْل قطران مصيبة كحلة وبنو آدم الله يهديه على نفسه والسلام .

يركّب الشقف في موضعه حيث كان على طرف القصبة المنجور ، يديره في موقعه عدة مرات للتسوية ، ينفخ في طرف القصبة وهو يزاوج بين النفخ وإغلاق منفذ الشقف بسبابته ، كي يسري الهواء في مجراه بقوة دافعة ترمي إلى الخارج ، ما يفترضه الرجل من متبقي عوالق لم ينل منها مسرى السلك ؛ يفعل ذلك بتأن وبمعالم تأس واضح على ما يفعله بنو آدم من سوء فعل ، يضر به صحته قبل أن يضر غيره .

– شف آ وليدي سلمان ، بنو آدم عدو نفسه ، ما يضر إلا نفسه ، وحواء هي السبب ، كملت البقية وزادت فيه

يقول بّالعربي ذلك ، وهو ينفث في السبسي من نفَسه عدة مرات متتابعة ، لمجرد الاختبار والتأكد من سلامة المسرى برمته هذه المرة ،

ليأتي حركة انتهاء من ذلك كله، مع معالم اكتفاء بما نال من سوء بليته ومن بالغ إضرار بذاته، متأهباً لحشر كل العدة في جيبه، ليعود إلى حديثه المتألم عن غدر النساء، وتنكر الذرية من أولاد وبنات اليوم، لمن ولدهم وتعب من أجلهم، حتى ربوا الريش . . .

- تزوجنا ولدنا مع الأولين وبقينا مع الأخيرين

تتحرك يده نحو جيبه بكامل عفوية، يسحب السبسي وعدة التدخين من جديد، لينهمك في إعداد تعميرة جديدة، بحياد معالم تام، دون أي من أمارات تأفف أو تذمر، وهو يحكي ما يراه معاناة بنو آدم في شخصه هو من المرأة والحُكْرة، الله يحفظ وينجي المخلوق منها؛ المرأة عندما تطغى وتتجبر، وحُكْرة الفقر، حرقته، لا تترك للمرء إنسانية ولا كرامة؛ بّالعربي كان له شأن وقوة ودخْل ساتر مستور، اشتغل دلالاً في الأسواق، له صوت ولسان، قوة هذا وهذا - يشير بّالعربي إلى ذراعه ولسانه - لا صوت يعلو فوق صوته، لا من يسبق أو ينافس عليه، حتى ينفد ما بيده أو تحت إمرته من مبيع، ليأخذ مستحقه، ويترك بقية السوق لبقية خلق الله، يسترزقون بما يسُرَ وتيسر؛ يروح بّاك العربي لحاله سالماً غانماً، يدخل داره محملا بأصناف الخيرات مما لذ وطاب، تستقبلك مولاة الدار، مكحلة مسوكة ضاحكة مفركة، جاهزة بناعم كلم وفرش ونغم، أمير كان بّاك لْعربي آوليدي . . . قل سلطان مسلطن مع راسه . . . إيوه يا سيدي : اجْرِ وجاري، ربِّ وكبِّرْ، نعّسْ وفرّشْ، اكسِ وداوِ . . . وفي الأخير تتركك نكارة الخير، أم أولادك ويتوزع عنك الأولاد، لتبقى وحدك كما كنت أول مرة، قل كما ولدتك أمك.

يتلمس بّالعربي جيوبه بحثاً متريثاً مرة أخرى، عن مطوية ورقته

الملفوفة على سحيق عشبتها . . . اسمعْ أوليدي سلمان

– ركبتك هي اختك هي خوك ، فيها مّك وبوك ، لاغير لا خير

تنشغل أصابعه الحاذقة ، في شحن سبسيه بتأن بالغ ، وهو ينفث حكمه ومواعظه ، ينشق نفساً ويناول ساماان السبسي جاهزاً ، يلتمع جوف عقيفته بأحمر مشعل وشقف طين ، لينقلب حال بّاالعربي إلى شيء من رواقة مزاج . . .

– ومالها هاد الدنيا كاع! آش غادي يجرى؟

ليحكي بّالعربي عن النساء . . . فيهن الداء والدواء ، آييه ياوليدي سلمان ، عندما تحبك المرأة ، عندما تحب النساء ، الدنيا كله تضحك لك ، وما يكذب عليك كاذب ويقول لك الزين هو كل شيء ، إييه لا بد من الزين . . . ولكن الزين ياوليدي زاهي باهي في الدفلة وهو حارّ ومارّ (مُرّ) ؛ قل عليه حدج أعوذ بالله منه . . . إيييه آولدي حارّ ومارّ . . . كذلك الأمر في بني آدم ، والمرأة بالخصوص ، زين المرأة سرها ، الزين عطية الله ، حذاقة وظرافة . . . بّاكم العربي جرب وعمل حقه ونصيبه ؛ عيب الرجال ، عيبنا كلنا ، الأذن الطياشة والعين الرماشة .

لا ينكر بّالعربي عينه الطائشة الرامشة الخضراء إزاء النساء ، وراءهن إذاشئت ، أو أنه ذيل النساء ، والعبارة من أم أولاده ، سمته بها ، ذيل النساء كانت تقول في حقه ؛ وهل هناك أحسن في الدنيا من ذيل النساء ، تابع النساء؟

يضحك بّالعربي وهو يسترد من ساماان السبسي فارغاً ، ليملأ عقيفة شقفه ثم يشعل ويمتص أنفاساً قوية متسارعة ، مستعداً للنهوض ، تاركاً ساماان في نوبته المسائية ؛ يوشك أن يخطو ،

ليتوقف . . . شفْ آوليدي سلمان رد بالك . . . ينبهه مشيراً إلى نافذة مقابلة :

- غمضْ عينك . . . رجلها مسافر وعندها الصاحب

ينبهه بأن يتغافل عما قد يرى ، ليغمزه غمزة طويلة ذات معنى ، وهو يودع ويلوك كلماته بكامل تؤدة ، كأنما يريد من سامعها أن يستوعب مرامي الكلام .

- تغيير المنازل رحمة وراحة والفاهم يفهم . . . يا الله آوليدي سلمان خليتك على خير . . .

بدورها بوتو تراجع مجريات ذلك اليوم في حي التقدم ، فرغم ما استشعرته إذ ذاك من تضايق يمس حريتها الشخصية إلا أنها تسترجع ذلك بارتياح لرحابة وترحيب الساكنة ، طيبون محبون ، تستحضر بوتو بمرحِ نداءهم له باسم سلمان أو سليمان ، وتذكر حرارة ترحيب للآمليكة ذاك اليوم والزغاريد من حولها وهي تردد :

- عمرتْ الدار علينا ، عمرتْ وكبرتْ ، الله يدومها علينا فرحة

تستعيد بوتو حركات ، عبارات ومعالم الفرحة التي كست ملامح للآمليكة والساكنة كلها ، الناس معادن كما يقال ، فيهم وفيهم ، منهم ومنهم ؛ وقد خبرت بوتو الكثير في طريقها المتعرج الطويل ، ممن آووْها بلا مقابل ولا معرفة ولا حتى سؤال ، سوى مجرد ظاهر حالها ، وهي في منتهى هلع ورعب ، ليلة إفلاتها من وقعة الفيلا كبانو تائهة في الظلام ، لا تهتدي بشيء سوى حس الابتعاد أقصى ما يمكن ، لتجد من يأخذ بيدها ، يؤمن خوفها المتعدد ويحفظ سرها حتى تهدأ حالها ، لتجد طريقها إلى الاشتغال في البيوت ، متنقلة بين مدن وأسر ومهن مختلفة لعدة سنوات ، تسعد بذلك وتشقى ، ما بين إكرام وحفظ

كرامة ، إلى إذلال واستغلال ، بما فيها غيرة النساء العمياء بلا مبرر ، ورعونة فتيان العائلات وحتى شيوخهم ؛ هو طريقها الذي اختارها أكثر مما اختارته ، بدا لها منذ الوهلة الأولى قويماً سالكاً سليماً ، بل زاهياً من رسم ماري ، ليتعرج بها بحراً إلى الكوت ديفوار ، ثم براً إلى غينيا والسنغال ، وبحراً مرة أخرى إلى لاس بالماس وطنجة . . . تتداولها المواقع والناقلات ، بضاعة بشرية صامتة مصمتة ، لا تدري من يدبر لها ، ولا ما يدبر في شأنها ؛ تتداولها أيد ، تنهشها أعين وألسن ، تميل تجاهها قامات المساعدة والنبش واللسع والقرص ؛ طريقها أيضاً معادن في مراحله ومحطاته ، فيه وفيه ، ومنه ومنه . . .

تتنهد بوتو عيناها في عيني سامان ، متأسفة على أنها لم تكن لطيفة مع أناس حيه ذاك اليوم ، حزينة لانفعاله هو أيضاً ، لانفعالهما معاً تلك اللحظة ، ولما صدر عنهما من حركات غير مناسبة ولا تجوز ؛ يضمها سامان إليه هامساً ، أن لا ضرر حصل أو يمكن أن يحصل ، مؤكداً أن الموضوع كله أصبح نكتة يتفكه بها الجميع ، بل ينذرونه على سبيل المزاح ، أنه لن يجرؤ مرة أخرى ، على اصطحاب امرأة إلى عرينهم ، دون . . .

تضع بوتو يدها على فمه ، تسكته عن إتمام جملة تعرفها ، وما تكاد تطلق سراحه ، حتى يستدرك مستأنفاً ما كان فيه : تصوري ، لتتصورْ بوتو أن بّالعربي يبدو متألماً مفجوعاً ، وهو يلتقط عبارة من سامان أنه سيرتحل عنهم ، ليسكن شقة صغيرة مع بعض زملاء ، رغم أنه سيبقى ضمن دائرة الحي في حراسته وخدمته كالمعتاد ، والشقة نفسها لا يفصل عماراتها عن حي التقدم إلا شارع واحد ؛ أتدري لماذا بؤس بّالعربي وفجيعته ، مع علمه أن سامان يبقى مستمراً معه في الرفقة

والحراسة ، متناوباً كالعادة؟ ذلك فقط ، لأن بّالعربي يعتقد أن رحيل سامان على النحو إن يحصل ، فبسبب مشهد ذلك اليوم وما خلفه من جرح أو ضغينة ، في نفس سامان ، وما جعله بالتالي يفكر في أن ينأى بنفسه عن ذلك المحيط وجواره .

تقاطعه بوتو في شيء من تطلع واستنكار ، إن لم يكن الأمر في حقيقته كذلك ، أو فيه شيء من الحقيقة ، إن لم تكن تلك هي الحقيقة كل الحقيقة ، إذ من الطبيعي أن ينشد سامان حريته الشخصية قبل كل شيء ، كأي شخص آخر؟

t.me/read4lead

- نو ، نو . . . أبداً . . . أبْسولُما بّا

ينفي سامان أن يكون الدافع شيئاً من ذلك ، يقول وهو يتحرك منفصلا قليلا عن بوتو ، ليصبح بمواجهتها ، باتكاءة جانبية على أحد مرفقيه ، مسنداً رأسه إلى كف يده ، بينما تجد يدُها فرصة حركتها الآلية المعهودة ، تداعب قلادتها متلمسة نابها العاجي المعقوف . . . يؤكد سامان أن الصدفة وحدها ، أتاحت له التعرف على بعض أصدقاء أفارقة ، ليقترحوا عليه أن يكون معهم في السكن ، يحل مباشرة بدون وسيط أو سمسار ، محل صديق كونغولي رحل إلى الشمال ، وراء فرصة سانحة ليعبر البحر ، ويحتاجون إلى من يحل مكانه ويشاركهم السكن ؛ طبعاً لا شيء نهائياً حتى الآن ، والصديق الآخر الكونغولي في سعيه للرحلة قد يفلح وقد لا . . . وحينئذ يبقى الوضع كما كان ، ويرجع كل شيء لأصله ، المسألة الآن مجرد فكرة .

تبدي بوتو إيماءة تفهم ، وهي تنسلّ من الفراش ، تخطو بخفة ، تلج بنيقة الحمام في طرف الغرفة نفسها ، تغلق دونها الباب ، ليُسمع بعدها صبيب ماء الدش على كيانها ؛ ينهض بدوره سامان ، يتلمس هنا

وهناك بحثاً عن ملابسه ، يكتفي ببنطلونه يرتديه على عجل ، ليخطو بنشاط حافياً خارج الغرفة ، يدلف إلى ركن المطبخ في الصحن الصغير ، يفتش وينقب في الأرفف ، كمن يبحث عن شيء محدد ، يبادر بتهيئ معدات القهوة ، ليضوع بعد حين في أرجاء الشقة الصغيرة ، عبق بخارها شهياً منعشاً .

- اهه تْري جانْتي . . .

تمدح بوتو همة سامان ونشاطه ، وهي تقف على عتبة المطبخ ، متأملة حذقه وتطوعه ، لا يضيع وقته . . . لتستدرك أنها طبعاً شقة صغيرة محدودة ، لا خوف من أن يتيه فيها ضيف ؛ يعتذر سامان على أنه لم يستأذنها .

- أوه لا بأس

تؤكد أنه ليس ضيفاً على كل حال ؛ يومئ بعبارة تفهم وشكر ، وهو يجيل بصره في الشقة الصغيرة مطرياً ذوقها .

- قصر صغير

تبتسم لكلامه ، والفضل لثريا ، كانت هذه شقتها أثناء دراستها في العاصمة ، وهي تخصصها الآن لمن يساعدنها في محل الحلاقة ، ولو مؤقتاً ، ريثما يجدن السكن ، كحال بوتو حالياً ؛ يبدي سامان تفهمه ؛ الناس فيهم وفيهم كما تقول ، لينظر إليها وهو منهمك في إعداد القهوة ، مكرراً اعتذاره على أنه لم يستأذنها ، مؤكداً أنه لا يتحمل عطالة يديه ، ألا يعمل شيئاً ، إلا أن يكون نائماً .

- أوه سي زْيان . . .

تومئ محبذة ألا شيء ، لا بأس . . .وهي تتركه لشأنه .

تجمعهما طاولة صغيرة في الصحن الضيق ، بوتو على أحد

كرسيين ، مكتملة اللباس إلا من فوطة ثخينة تلف بها رأسها ، مرتدية قميصاً قصيراً أبيض وسروال جينز ؛ أمامها سامان على كرسي مقابل ، وهو يصب لهما من الإبريق الزجاجي السخان فنجاني قهوة ، تتذوق بوتو مستحسنة متلذذة ، يذكر أن له خبرة بالقهوة ، وقد اشتغل نادلا مناولا أيام دراسته بأكرا ؛ ترشف بوتو من فنجانها وهي ترنو إلى سامان نظرة امتنان لحذقه ؛ يتفقد سامان كأسه ، مشيراً عليها بزيادة كأس ، تشير بالنفي ، لتتحرك وهي تحرر رأسها من الفوطة الثخينة ، وتلج الحمام تسوي من شأنها .

يقوم سامان بدوره ، يستكمل لباسه مستعداً للمغادرة ، متجاهلا رغبته في أن يطيل معها المكوث ، لمزيد وقت ، إلى الليل أو . . . يعرف رغبته وتعرف ، لكنه بّالعربي ونوبة الحراسة الليلية ؛ وهي بدورها في عشية يوم عطلتها الأسبوعية ، وعليها أن تستعد للغد ، لها يوم حافل غداً مع ثريا ، أمامهما تهيئة عروس مع حاشيتها وأهلها ؛ يقوم سامان مودعاً يتريث ويده على أكرة الباب ، يرنو إليها بمهل ، تمر بسبابتها كمشرط خفيف على قميص صدره ، تبادله قبلة خفيفة ، وتغلق وراءه الباب .

- نعيم . . .

تنادي صفية وتعيد في خطوها المتسارع للحاق به

- نعيم . . .

يمضي قدماً في اتجاهه ، لا يرد ولا يلتفت ، يقطع فضاء المركز التربوي باتجاه مركن العربات ، تسرع صفية تكاد تركض لتدركه أخيراً ، وهو على سرج دراجته النارية يوشك أن ينطلق بادي الاستعجال .

- نعيم

تتوقف حركته ، يتجمد في موقفه ، لا ينظر إليها تخاطبه ، ولا ينظر إلى أي شيء آخر .

- مالك؟

تهزه من كتفه متسائلة ، يتنهد بتوتر بالغ ، أوف . . . لا شيء ، ينكر بإيماءة أن يكون به شيء ؛ تأخذ بذراعه محاولة أن تنزله عن مقعد الفيسبا ، تستشعر تصلب كيانه ويداه متمسكتان بالمقود ، لا يبدي ليناً ولا لفظاً ؛ تمعن النظر في ملامحه ، يستمر مجمداً نظراته على لا شيء .

- يا الله تحركْ

تلفظها ببعض انتهار وهي ترتمي فجأة بلا استئذان ولا تردد ، وراءه على المقعد الخلفي ، متمسكة بمحزمه .

يتحرك بدراجته في صمت وداخله يغلي ، ليس له مع المدرسة والتعليم من رغبة ولا رابط ، المدرسة يكرهها قبل كل شيء ؛ وفوق كل

شيء ، لم يكن له أبداً من حظ مع المدرسة ، ولا لها حظ معه ، لا شيء له مطلقاً ، أبداً ، مع كل هذا العالم من سبورة ، كتاب ، أطفال . . . أبداً ، لم يخلق لهذا ولن يستمر فيه .

لم يذهبا بعيداً في خط سيرهما ، لم يكونا ليقصدا اتجاهاً معيناً ، أو يتوقفا عند مكان مخصوص ، لا باتفاق سابق بينهما أو راهن ، إنما هي صفية تندفع بعفوية وراءه ، بعد ما حدث من حصة درس غير طبيعية ، كما وصفها الأستاذ المدرب ملطفاً عبارته ، ليعلق مدير المركز بانفعال إنها كارثة ، درس كارثي يقدمه نعيم ، أمام المتدربين بمحضر لجنة تربوية زائرة ؛ كارثة يكرر مدير المركز ، كأنما ليدفع عنه الإحراج ، بدافع إحساس ما بالمسؤولية عن مستوى الدرس ، عن مستوى الطالب المتدرب ومستوى التدريب برمته ؛ نعيم الذي لا يملك إلا أن يكرر لنفسه في نفسه ، كما يؤكد لصفية وهي تحاول إخراجه من أزمته ، أنه دخيل على عالم المدرسة والتعليم ، وكل ما إلى ذلك ، لا يحب ذلك ، يكره ذلك ، لم يرغب فيه أبداً ، يكرهه من أصله .

يتوقفان جوار سور حجري قصير تمتد خلفه معالم أغراس مهملة ، تترجل صفية ، يظل نعيم على ظهر دراجته ، مهدئاً إلى أقصى حد من تشغيل المحرك ، إحدى قدميه على الأرض ، كأنما يتهيأ للانطلاق أو يتردد في النزول ، تخطو صفية ببطء تجاه السور القصير ، تستند إليه في وقفة شبه مستريحة .

يبدو نعيم متردداً ، قبل أن يترجل تماماً ، يثبت دراجته ، يتجه صوب صفية ، يتكئ بدوره جانبياً بجوارها على جدار السور ، تضج خواطرهما متقاطعة متآلفة متنافرة بمنتهى صمت وهدوء ، دون أدنى كلمة .

جهود أسابيع في تهييئ درس نموذجي ، تبددها لحظة يبدو فيها نعيم فاقداً كل خيط رابط لشئ بشيء ، إلا فراغ مفزع يشمله ، يأخذه كلياً عن نفسه وما حوله ، لا يستشعر شيئاً إلا شبه غشية بصرية ، متشعراً أنه مرمي في فراغ ، يملؤه ثقل فراغ ، ليظل فاغراً فاه ، مجمد النظرات في اللاشيء ، يتحسس نأمات ضحك صامت من حوله يتضخم ضجيجاً في الأعماق ، أعماقه وأعماق من حوله : تلاميذ متعلمين ، زملاء طلبة متدربين من أمثاله ، لجنة زائرة مستطلعة حلت بصدفة في حصته لسوء حظه ، خيبة مدير المركز نفسه ، ولعله كان يمني النفس بتزكية جيدة لصالحه ، عبر معاينة اللجنة الزائرة لإنجاز درس نموذجي للطالب نعيم ، خاصة وأنها تحل بالمركز دون سابق إعلام .

ضجة ضحك صامت يستشعرها نعيم حوله عنه فيه ، والنظرات كلها سهام مجمدة مسلطة عليه ، مسمرة واخزة كل ذرة من كيانه ، ثم يبدو وكأنما يعود من غيبة أو يستغرق في غيمة ، ليغمس نظرته في كراسه ، لا يرفع عنه عينيه ، يقرأ منه فيه ، يملي حرفياً ، كلمة كلمة ، حرفاً حرفاً ، سطوراً ميتة باردة متميعة .

كارثة ، كارثة ، كارثة ؛ يضج صوت المدير بعد نهاية الحصة مستبقاً كل ملاحظة ، من الغير ، كأنما يحاصر كل شيء ويحصن نفسه ؛ لو أسعف النطق والحال ، لكررها نعيم بذاته : كارثة فعلا . . . هكذا ، لحظة واحدة ، برهة زمنية خاطفة ، تضيع جهود أسابيع من تعاون زملاء طلبة متدربين ، في إعداد ما يلزم لدرس علمي عملي ، وصفي توجيهي ، يتعلق بتغذية النباتات الجذرية : نماذج نباتية أُحضرت أوراقاً وجذوراً وتربة ، بعضها استُغْرس ، استُنْبت خصيصاً في قوارير زجاجية شفافة ، مع تمرين وتكرار لخطوات الدرس ، ومواقع كل شيء وترتيب

تقديمه ، حتى كيفية الإمساك باليد ، والإشارة بالأصبع ، وموقع القدم واللفظ وحركة اللسان . . . و . . . و . . . بل وتوقع الخطأ من متعلم ما بسؤال ، وكذا الجواب المطلوب الممكن ، كل هذا النظام والترتيب لعالم قائم بذاته ، ينهار في لحظة ، تضطرب فيها الحركة ، تزيغ النظرة ، يتلجلج اللسان ؛ شفافية القوارير الزجاجية تتعتم ، تظلم ، لا تُبين شفافيتها عن شيء إلا عن عتمة وفراغ ، لتضطرب حركة نعيم فيما يرى ويريد أن يُريَ غيره ، فيما لم يعد يدرك فيه أكثر من خلط واختلاط .

درس نموذجي فعلا ، إنما فيما يجب تجنبه ، فيما يجب ألا يكون ، هكذا ينهي مدير المركز مبادرته ، بملاحظة استباقية لتحصين المناقشة ، درس نموذجي فعلا وبحق ، لكن فيما يجب تجنبه ، فيما لا يجوز فعله بأي حال .

تسعى صفية جهدها لتهدئة خواطر نعيم المتضاربة المكتومة ، تستشعره يتنفس بصعوبة بما يتزاحم في صدره ، ولا يفصح عنه ، هي بدورها صفية مثله ، وربما أكثر منه ، تحس بضيق أنفاسها مما به ؛ مهما يكن ، فليست نهاية العالم ، أبداً ليست نهاية أن يفشل متدرب في تقديم درس نموذجي ، درسه الأول ، برنامج التدريب ما يزال بعدُ في منتصفه ، وما يزال نصف سنة مديد للتمرن والتحسن ؛ ما يجب إذن هو التحمل ، ثم ماذا أخيراً؟ هل نحن في مأتم؟ أهي جنازة؟ يا أخي ، هذا تعلم ، تمرين . . . ثم . . . ثم وبكل صراحة ، لم يكن الدرس فاشلا تماماً تماماً ، هناك ملاحظات ، ملاحظات فحسب ؛ أبداً ليست نهاية العالم ولا كارثة الكوارث . . . لا . لا . لمَ تُتعب نفسها في مواساته؟ ترد له الجميل؟ هيهات بين حالها وحاله ، هي بالفعل ، في درسها

ذاك ، أنجزت وكانت عليها مؤاخذات ، طُرحت حولها ملاحظات ، مجرد ملاحظات حتى إن بعضها كان مفتعلا وبدون أهمية ؛ أما هو ، فالأمر معه مختلف تماماً ، ودون ذلك تماماً تماماً ؛ لا . لا يريد مواساة ولا إشفاقا ، لا من صفية ولا من غيرها ، لا يريد شيئاً من ذلك ؛ وهو يشكرها على كل حال ، لكنه لا يريد لأحد مثل هذا الموقف ، لا لها ومنها ، ولا لأي من غيرها ؛ هو يعرف أنه لا يصلح لدرس ولا تدريس ، وحكايته مع المدرسة ، مع نفسه والمدرسة ، حساب قديم ، فقط لا غير ، وهذا كل شيء ؛ ظروفه هي ظروف انتظارية ، جعلته يتقدم لاجتياز هذا التدريب بلا أدنى رغبة منه ، بل بعكس رغبته بالمطلق وعلى طول الخط ؛ هل تصدقه صفية ، إذا قال إنه يفضل أي شغل آخر ، أية مهمة في الحياة ، مهما كانت ، كيفما تكون ؛ حتى مهنة زبال يمكن أن يرتضيها أو أي شيء آخر ، عدا ما يتعلق بمدرسة أو مدرس؟ هذا هو الأمر على حقيقته وبالنسبة إليه ، وهو إنما ينتظر ، هو في انتظار لا أكثر ، يظل في انتظار مهما طال به الأمر ، ولن يطول . . . هذا هو . . .

ترفع ثريا خيوط الستارة الصدفية المدلاة على باب محلها للحلاقة ، لتدلف إلى الصالون ، تسبقها ابتسامة عريضة وعبارات تحية ومحبة للجميع ، ونظرها مركز على بوتو المنهمكة في تليين شعر زبونة جالسة بين يديها على أريكة الحلاقة ، بينما اثنتان أخريان على مقعدين في الصالة تتلهيان بتصفح المجلات في انتظار نوبتيهما ؛ ترفع بوتو رأسها ملتفتة باتجاه ثريا ترد عليها التحية ، وهما تتبادلان قبلتين على الوجنتين ، وما تلبث ثريا بإشراق ابتسامة ولطف عبارة ، أن تتوجه إلى الحاضرات ، معتذرة لهن ولبوتو عن التأخر ؛ ولكن مضطرة أختكن لا باختيارها ولا بطلة ، بسبب زحمة الطريق السيار ؛ وفي حديثها تدنو ثريا من أذن بوتو ، شبه هامسة لها بصوت مسموع ، أنها لم تأت وحدها ، وإنما صحبة ضيفة عزيزة .

تقول ثريا ذلك ، وهي تتوجه نحو مدخل المحل ، ترفع خيوط الستارة الصدفية ، تنادي وتسحب بيدها فتاة ، تقدمها باسم نبيلة ، على أنها معلمة حلاقة حاذقة ، رغم صغر سنها فهي ما شاء الله فنانة في شغلها .

تحيي نبيلة بدورها الجميع ، تسلم عليهن بقبل متبادلة ، لتدلف وراء ثريا وتتبع إشارتها إلى البويبة الداخلية ، حيث تغيبان منفردتين في الداخل ، لفترة قصيرة تتطلبها إحاطة نبيلة بظروف الشغل مع الضروري من توجيهات أولية ، لتبرزا معاً بوزرتي الشغل ، في أتم استعداد ، مستلمة كل منهما على أريكة حلاقة ، إحدى الزبونتين المنتظرتين .

زحمة؟ تقول ثريا مستنكرة، وهي تستأنف حديثها عن حركة السير في يومها هذا، بين الدار البيضاء والرباط، دون أن تفتر يداها عن العمل . . . زحمة؟ قولي هو اختناق حقيقي كامل حد التوقف، في مقطع من مسار الطريق باتجاه الرباط، أين منه كثافة السير وانسداد الحركة المعهود، حتى في أعتى ساعات الذروة بالدار البيضاء نفسها؟ والسبب مرة أخرى، قال لك يا سيدي، هي مباراة الكأس اليوم، بين الفريقين البيضاويين المتنافسين؛ والأنصار المؤيدون لكل من الطرفين، مرتحلون جميعاً مع الفريقين إلى ملعب الرباط حيث تجري المقابلة . . . أوف كم انحشرت ثريا في ذاتها، موصدة عليها أبواب سيارتها، والحركة مجمدة تماماً لساعات على الطريق السيار، لا حركة ولو حتى بقدر متر أو خطوة؛ تسرد ثريا في مزيج ما بين ابتهاج من نجا من مغامرة محققة، وملامح ارتعاب مما كانت فيه من وضع، وهي ما تنفك بين لحظة وأخرى، تُشهد نبيلة رفيقتها في الرحلة على ما تذكر، لتكتفي هذه بإيماءات الموافقة، مع انهماكها في تسريح شعر زبونتها، وعينها على المرآة حيناً، وحيناً آخر تباعد وتقارب بنظرتها عما تنجزه، متحسسة بذلك إنجازها، وما يتطلب من إضافات تحسينية، من لمستها الخاصة .

تنهي بوتو ماموريتها، وهي تزيح عن كتفي زبونتها ومن حول رقبتها وزرة واقية، لتفسح للمرأة فرصة تأمل مشهدها النهائي في المرآة، وهي ما تفتأ تربت على كتفي الزبونة بتلطف، تُطري هيئتها وتدعو لها بتمام الصحة والعافية .

- بصحتك وراحتك غزالة الله يحفظك

تقولها ثريا متوجهة إلى زبونة بوتو بالمجاملة، دون أن تغفل عما بين

يديها من انشغال، تمتدح المشهد وتُطري عمل بوتو في الآن نفسه، لتعود إلى ما كانت فيه من حديث . . . الأدهى والأخطر تقول ثريا مستأنفة، هو خوف الاعتداء؛ ماذا؟ دعينا ممن يهتفون ويهللون وينشدون ويغنون ويرقصون، داخل الناقلات الكبيرة المختلفة، من حافلات وشاحنات متوسطة وكبيرة وصغيرة، وحتى داخل السيارات الخاصة، التي ما تفتأ تهتز اهتزازاً، بما يجري فيها من حركة ونشاط؛ دعونا أيضاً من أصباغ على وجوه وملابس وأعلام ولافتات، كلها ملونة بلون هذا الفريق أو ذاك، دعونا من ذلك كله، وإنما هي معارك حقيقية بين أنصار الفريقين، ما يكاد هؤلاء يعربون بنشاط ما، عما يرفع شأن فريقهم، حتى يثني الآخرون بما هو أقوى، مع التلويحات المتحدية، من كل جمع في اتجاه الآخر.

تخطو بوتو نحو مشجب قائم في ركن الصالة، تتناول متعلقات زبونتها، تسلمها المحفظة النسوية، والقبعة، بينما تسوي بيديها الوشاح على كتفي المرأة، دون أن يكف لسانها عن التلطف بحركات التحبب، لترد المرأة في النهاية بعبارات الشكر، وهي تنفح بوتو الواجب مع إكرامية إضافية خاصة، لتنصرف بعد ذلك مرتاحة مودعة، بينما تتجه بوتو بالمبلغ تضعه في صندوق خاص بذلك.

وماذا؟ تتساءل ثريا مستأنفة: عشرات، مئات شباب يتجولون بين السيارات المجمدة في اختناق الطريق السيار، هستيريا واضحة جانحة بالجميع، مدججين بعصي طويلة غليظة؛ كل هذا لفرجة؟ تمتلئ ثريا رعباً في سيارتها، تنحشر في ذاتها، تنكمش حابسة أنفاسها، تكاد تختنق في ذاتها هلعاً وترقباً، مع إغلاقها كل منفذ في سيارتها، بجانبها الفتاة نبيلة في مثل حالها أو أكثر؛ محنة رحلة وجحيم

كانت ، والحمد لله على سلامتنا .

وسرعان ما تعتاد بوتو على رفقة الوافدة الجديدة نبيلة ، وهي تصبح عشيرتها في المسكن كما في لشغل ، لا تتقاسمان فقط شقة السكن المخصصة من قبل ثريا ، لمن تحتاج ذلك من عاملاتها بمحل الحلاقة ، بل تشتركان معاً أكثر الأحيان في فراش واحد ، بعد أن تستغرقا في خلوتهما الليلية ، في أحاديث بوح طويل متبادل ، يُسلم إلى النوم مباشرة .

تتعرف بوتو في رفيقتها ، على من تدفعها الظروف ، إلى القبول بأن تكون في وضع زوجة ثانية ، لرجل في حالة زواج ومنجب لأولاد .

– نو؟

تتعجب بوتو مستنكرة ما تسمع : زوجة ثانية؟ نو؟ لا تكاد تصدق ؛ لكن نبيلة مع ذلك تقبل ، أن تكون في وضع الزوجة الثانية .

– الراس المغطي أحسن من العريان

تقول نبيلة بثقة كاملة وتسليم ، محدقة في ملامح بوتو المتسائلة بملء عجب واضح ؛ أهم شيء أُخذت به نبيلة ، في حْمودان الموريتاني الذي يصبح زوجها على سنة الله ورسوله ، ملامح صدقه وهو يصارحها منذ اللقاء الأول ، أنه لا يؤمن بأية عشرة ، حتى ولو لمجرد التعارف ، بين رجل وامرأة ، خارج رابطة شرعية ؛ رجل مؤمن ، يكره الفواحش قولا وفعلا ويتجنبها ظاهراً وباطناً ؛ هذا ما انجذبت به نبيلة في الرجل ، مع ما يتردد ويلمس في البلد اليوم من علاقات بين الجنسين ، خارج الحشمة والحياء ، ناهيك عن خطوبة حقيقية أو زواج ما أبعدهما وأندر ، وعن طلاق ونزاعات ما أكثر ما أوفر ؛ لتقول نبيلة في نفسها صادقة ، ماذا لو أن حْمودان بدل أن يصدقها القول ، كان ليزعم أنه غير متزوج

أصلا ، وأن نبيلة ستكون زوجته الأولى والأخيرة؟ هكذا فكرت وقبلت ، صحيح أنه يكبرها سناً ، وأنه منجب مع زوجته الأولى في بلده ، ولكن نبيلة ترى وبتحفيز من والدتها الأرملة بأبنائها الثلاثة ، إضافة إلى الكبرى البكر نبيلة ، أن شرط الزواج الناجح ، يتمثل في زوج أكبر سناً ، وكلما ازداد هذا الفارق في السن لجهة الرجل ، كلما كان الزواج أصلح ؛ والأهم أن خْمودان رجل متعدد الأنشطة والأعمال ، يشتغل في ورش مطبعي بالدار البيضاء ، ويؤسس لكي يستقل بنفسه ، في مجال الورق والطباعة .

- نعم؟

تستزيد بوتو مع توقف نبيلة التي تبلغ نهاية البوح ، عندما يقرر خْمودان العودة إلى بلده ، خلاف اتفاقهما وتعهده معها بأنه مستقر هنا ، من أجلها بصفة نهائية ؛ يقول إن الظروف هنا ، لا تسعفه في تحقيق مشروعه ؛ طبعاً نبيلة ترفض الذهاب معه ، تهجر بلدها؟ تنفي نفسها ، تدفن نفسها حية ، غريبة ، بعيدة عن أهلها؟ لا . وينتهي كل شيء بينهما .

تبدو ملامح بوتو أقل توتراً مما كانت ، كأنما تعبر عن ارتياحها للنتيجة . . . ماذا؟ زوجة ثانية وهجرة إلى موريتانيا ، من أجل زوج متزوج أصلا وله أولاد؟ تستنكر بوتو في غنة سخرية ودية ، لتؤكد أنها مرتاحة من أجل نبيلة ، تهنئها بحرارة على مآلها ، وما هي عليه الآن ؛ وهناك شيء آخر أهم : ماذا لو كانت نبيلة الآن في باريس ، أو روما ، أو ما شئت من مثيل ذلك ، ولو حتى مع زوج كيفما كان واتفق ، ولو مؤقتاً لتحقيق وضعية قارة مشروعة هناك ، لقلنا لا بأس ، أما . . .

تتوقف بوتو لحظة محدقة في وجه نبيلة ، لتستوي قاعدة في

الفراش ، ممسكة بكتفي صاحبتها ، كأنما توقظها من غفلة . . . نعم ، نبيلة بحذقها البالغ في فن الحلاقة النسوية ، كما انبهرت بذلك بوتو ، وقبلها ثريا ، وكل من يرى صنع يديها وعملها السحري ، نبيلة هذه تستحق أرقى صالون في قلب باريس نفسها ، باريس . . . نعم لتتصورْ نبيلة نفسها ، فنانة في تسويات الشعر ومختلف تسريحاته ؛ تصوري ، تصوري باريس روما برلين ، كل عالم الموضة والفن والمال ، تصوري .

تبدو نبيلة شبه شاردة ، غير متابعة أو لا مهتمة ؛ ماذا؟ باريس . . .؟ تصوري ؛ تزداد قبضة بوتو على كتفي صاحبتها ، مكررة على مسمعها إغراءات العالم الجميل ، نداءات العواصم الراقية ، إمكانات العيش الرغيد ، الحرية والكرامة ، لتقاطعها نبيلة بصوت قاطع خافت . . . لا . لا شيء من ذلك ، لا شيء من ذلك تفهمه أو تريد أن تفهمه ، لا شيء منه يغريها أو يجذبها ؛ هي بنت هنا ، يكفيها هنا ، في بلدها ، بين أهلها ، ولن تاخذ طريقاً آخر .

صفية هي التي عمرها انتظار ويطول ؛ ماذا ينتظر هو نعيم؟ لا يتوقع نتيجة إيجابية نهاية تدريبه بالمركز التربوي ، لم ولن يكذب ظنه ، لائحة المتخرجين الناجحين ستكون خلواً من اسم نعيم عبداني ، الأمر لن يكون عن خطأ أو نسيان ، ولا سقط سهواً ؛ لا ، وإنما يأتي ذلك عن استحقاق من جهة ، وإرادة قبول وتسليم أشبه بالترحيب من جهة أخرى ؛ بدليل أن نعيم لم يحضر يوم إعلان النتائج ، وذلك لقطع كل رابط ، وكل أمل ممكن ، بينه وبين ما يمت بصلة إلى ما هو مدرسة أو تعليم ؛ ذلك أن ثلة من قبيله أيضاً ، لم تظهر أسماؤهم ضمن اللائحة ، ومع ذلك التزموا الحضور ؛ وكان من الممكن أن يحضر نعيم بدوره ، لا من باب الأمل فحسب ، بل من قبيل الباب المفتوح ، في أن يتم تعيينه إطاراً مؤقتاً أو عرضياً كغيره ممن لم يحظوا بالدرجة المطلوبة في التخرج ، بحيث يمكنه أن يشتغل معلماً ، مع إمكان الاستغناء عنه في أية مناسبة دون التزامات ، وهو إمكان سلبي فقط ، قلما يطبق ، وإنما يظل معلقاً حتى يجد المعنيُّ بالأمر حلا لوضعه ، هذا ما يحدث عادة ، وسيحدث مع الثلة المتبقية من أمثال نعيم ؛ لكنه لا يحضر ، ماذا ينتظر؟

يا سيدي ، افرضْ ولنفرضْ أنك غير صالح لتعليم ولا هو صالح لك ، لا المدرسة لك ولا أنت لها ، ولا الأطفال ، لا الكتاب ولا السبورة والعالم كله . . . ما رأيك في أن تنقذ نفسك من واقع عطالة راهن ، وتشتغل مدرساً بأية صفة تتاح ، ولتغادرْ متى ما وجدت أحسن؟

هكذا تعمل صفية بكل حميتها على أن تأخذه في اتجاهها ، الفرصة ما تزال سانحة ، ليتقدم للإدارة معتذراً بأية تعلة ، معرباً عن رغبته في الوظيفة ، بأية صفة ممكنة ، وحيثما كان من أية منطقة أو مؤسسة ؛ هذا كل شيء ، وأقصى ما يحصل له من سوء ، أن يعينوه في منطقة نائية ، جبلية أو صحراوية ، أو ربما مجرد قروية ضاحية . . . وكله مؤقت . . .ريثما . . . ريثما . . .

تفاجئ صفية نفسها ملحة عليه ، ربما أكثر مما يجب ، متسائلة حول ما يهمه ويعنيه ؛ لا يتم ذلك منها بمحضره ضرورة أو في لقاء معه فحسب ، وإنما أيضاً بعيداً عنه ، في وحدتها وخلواتها مع ذاتها ؛ تنتابها أحياناً حيرة وقنوط بشأنه ، لتتحدث في يقظة أو غفوة تحت فراشها بصوت مسموع . . . ماذا يفعل؟ بحدة تسأل لماذا لا يقوم بهذا الأمر أو ذاك؟ فيم يفكر؟ ماذا ينتظر؟

ماذا تنتظر هي؟ ذاك ما تبدو غير مستقرة عليه ، تفاجئ نفسها مرتبكة الخاطر : ماذا تنتظر من نعيم ، ومن هي بالنسبة إليه؟ صداقة مجردة خاصة واهتمام أخوي؟ . . .أم ماذا؟

شبه غائب يبدو لها ، مغرقاً في حياد أو خجل ؛ تقول إنها تفهمه ، ذاك طبعه فيما يبدو لها ، لم يكن اقتحامياً لم يبد أبداً كذلك ، ولا هي بدورها ، إنما حرقة دافع خفي فيها تغذي تطلعها ، إحساس قوي بأن اللحظة تنفلت منها أو منه ، منهما . . . ربما ، اللحظة تبدو منسابة ، متسللة متسربة كحبات رمل بين أصابع اليد . . . ماذا؟ أيريد ألا يكون للحظاتهما المشتركة من غد ، ليلتهما الممطرة تلك . . . وما عداها مما يُحس ويستشعر بلا أدنى حاجة إلى إشارة أو عبارة ؛ أيخونها ويخونه أيضاً مثل هذا الحدس ، أما من غد لكل ذلك؟ كيف ، وذاك الطعم

الندي لقبلة مبتلة ، في دفء احتضان تحت غيم ليل ممطر؟ حلماً . . . حمقاً . . . كان؟ هل يخطئ حسها إلى هذا الحد : كان نعيم عفوياً صادقاً مع نفسه في لحظتهما تلك ، كما كانت هي أو أكثر ، حتى لتحاول أن تحدد من منهما كان المُبادئ ، إنما التقيا فعلا والتأما ، تواءما وتآلفا ، في فترة مهما تكن وجيزة ، فهي عميقة عميقة عميقة . . . وبعد؟

يبدو نعيم بعيداً عنها على قربه منها ، يجالسها على المقعد الإسمنتي جوار السور الخارجي القصير لحديقة قديمة شبه متلاشية ، غائب النظرات كالمحدق في هيكل دراجته المنتصب بمواجهتهما . . . وبعد؟

لا يُحير جواباً عن شيء ، إن لم تفهمه فيما يخصه هو بالذات ، فهي أحوج إلى أن تفهمه فيما يخصها هي ، فيما يخصهما معاً . . . وبعد؟ يفاجئها نعيم بصوت واهن ونظرات زائغة ، يذكرها بمشهد الصبي المنتحل لشخصية طفل سوري لاجئ ، بقصد التسول . . . أتذكر صفية ذلك؟ نعم . . . تذكر ذلك بتفاصيله ، وبعد؟ لا يدري نعيم ، فالصورة تلك تبقى دائماً ملء خاطره ، بما فيها من جد وعبث ، من صدق وحقيقة ؛ هكذا لم تغادره الصورة تلك ، لحظة واحدة من يومها . . . لماذا؟ لا يدري ، لا يدري ، لا يدري ؛ حقاً؟ هذا شأنه ، إنما عليه أن يدري الآن ، وأن يدرك حق الإدراك ما تقول له صفية وتكرره ، كما قالت وكررت ذلك مراراً ، إنه مخطئ في حق نفسه ، برفضه وظيفة جاهزة الآن ولو مؤقتاً حتى . . . حتى . . . يفتح الله ، ومخطئ بدرجة أقوى في حق غيره .

يرفع نظرته تجاهها مفتح العينين على مداهما ، كأنه يراها لأول

مرة ؛ فعلا قدرت أنه لم يكن أبداً يقرأ خواطرها إزاءه ، في علاقتهما هما الاثنين ؛ هكذا يصدق حدسها ، الآن يبدو لها نعيم أنه جاهز لتلقي ما يشع من نظرتها ، يحدق فيها بما يبدو معه أنه يفهم ، بدأ يفهم ، لدرجة تستشعر معها أنه يغوص في أعماقها ، يخالج نبضها ، يداخل نبرات صوتها ، يوشك أن ينطق من خلالها بصوتها ، كما توشك بدورها أن تنطق من خلاله بصوته ، بما ترددت دائماً أن تعلنه من جانبها ، تلك الكلمة : أحبك ؛ هكذا يلتقيان في منتصف الطريق : أحبك . . . صادرة منهما معاً ، عنهما في آن واحد ، بصوت واحد ، هو من خلالها وهي من خلاله : أحبك . . . أحبك . . .

توشك نظرته أن تفصح ، لتعود فتنبو عن وجهتها كما يبدو لصفية ، تخبو نظرته ، تخفت ، تخف ، أو هكذا تستشعرها صفية ، بيد أنها الآن تطارد خواطره ، لابد أن تفعل ذلك وبإصرار وإلحاح ؛ فعلا طالما صدت رغبتها ، كممت لسانها عن أن تفعل ، أما الآن فهي لحظتُها ، وتوشك مرة أخرى أن تنفلت منها ، لا . ولن . . . تتحفز في جلستها على السور إلى القصير بجانبه ، تتحرك من وضعها مائلة لمواجهة نظرته المتهربة من كل شيء ، عليه أن يخرج عما به ، يفصح ، يبالي ، يعبر ، ينطق من خلالها لتنطق من خلاله .

تبدو صفية ويدها على كتفه ، وسهام عينيها تطارد نظرته ، كأنها تهزه ، توشك أن تلتقط الحروف من تماس شفتيه ، لتلتقي معه ، يتقاطعان في النطق أو تسبقه ، لن ينتظر ولا هي ، ماذا ينتظر؟

- البطاقة الخضراء . . .

كصوت متهاون يتناهى من بعيد ، لا يقصد أن يُسمع أو لا يُسمع ، يبين أو لا يبين . . . هي بدورها ، لا تكاد تعير انتباهاً لما يتردد

في سمعها كصدى عابر ، ممن؟ لمن؟ يخف ضغط صفية بيدها على كتفه ، تبدو نظرته في طريقها لكي تعود من غيابها ، خابية الإشعاع تبدو ، خاوية خالية .

- . . . الخضراء

صوته أكثر وضوحاً ، ببطء نطق إملائي يتحدث ، تتبين منه ما لا تفهم . . . فلتفهمْ ، وهو الآن يستعيد إيقاع كلام معتاد ، ألا تفهم البطاقة الخضراء؟ يقدر ذلك ويتفهمه ، لا يهمها الأمر ، ليس من شأنها ذلك ، ولا من شأن غيرها ، الأمر له وحده ويهمه وحده ، تتساءل ماذا ينتظر؟ هي ما ينتظر : تلك البطاقة الخضراء ، جاذبية لونها ، سحر فعلها ، يعيش على موعدها ، ينشقها أملا مع كل نسمة منعشة ، هذا ما ينتظر ، وبه وبعده تبدأ الحياة ، يبدأ كل شيء .

منذ ثلاث سنوات ينتظر نعيم ، وهو على وشك أن يبدأ سنة انتظاره الرابعة انتظاراً ، على أن يبزغ حظه السعيد ، بدنيا جديدة في عالم جديد .

تفهم أم تتجرع؟ من أين يستقي؟ بارد كلام عار مسطح ومن عيار صلد . . . أتسمع؟ أتفهم ، وهي التي كانت تسابقه ، لفيض نورانية حروف من كلمة إشراقُها سعة كون؟ ماذا يقول وماذا ينتظر؟ هي ماذا تنتظر؟ وما لها والأمر كله ، من أساسه ، مادام بارداً عارياً خالياً ؛ إنما تكاد تسأله ، ما معنى أن ينتظر حظاً ، ليس له فيه جهد خطوة ، ولا خيط واحد فيه من نسيجه هو ، لا شيء فيه من صنع يديه ، من فعله وإنجازه؟ ثم هو المجهول أمامه ، حظ مجهول في مجهول ، هذا هو الأمر ؛ وتكاد تقول له عن درسهم الابتدائي في التعلم ، بعتيد حكمته استوعبناها يفاعة ، درس تكاد تنسى صيغته دون معناه : عصفور في

اليد خير من . . . ؛ عصفور اليوم وظيفة بسيطة ، لنقلْ مؤقتة ، وأنت هنا بين أهلك وذويك ، بين بيوت دافئة وقلوب حاضنة ، فإذا بك تحلم بحظ مقامر ، يأتي ولا يأتي ، لا شيء بيدك منه ، لا تدري حتى سقف انتظاره ، وموعد حلوله ؛ وحتى لو حصل ، بطاقة خضراء ، ليرمى بك في العالم الجديد ، أيكون بالضرورة أخضر فاتناً ، كما تبدو بطاقته الخضراء على بعد موعد وشوق؟ وفي النهاية ، إذا لم يحصل شيء من ذلك ، إذا لم تتعطف لك وعليك تلك الخضراء ، إذا لم تتكرم عليك تلك الورقة الزاهية خضْرتُها بموعد ، في أمد منظور؟

صامتة ، صاخبة في أعماقها تظل صفية ، باطنها وحده يهدر بمنتهى سكينة وهدوء ، عيناها تجوبان عوالمه بضجة الحيرة والسؤال ، لا تتبين فيه شيئاً مما تبحث عنه ، لا تتبين شيئاً واضحاً ، إلا أنه ينتظر ؛ وهي ماذا تنتظر؟

تستجمع كيانها مستنفرة ، تقوم مغادرة ، يمسك نعيم بيدها ، ينتصب بجانبها مستوقفاً إياها ، زائغة النظر في حيرة وشبه رعشة ، يرنو إليها أخيراً ، كأنما يتجاوب الصدى في أعماقه ، يستجمع خواطره ، ربما ببعض جهد ، كأنما يتكلف فوق طاقته ليعبر عما فيه . . . هي بالنسبة إليه تستحق الكثير ، جديرة بالأفضل ؛ يقول بكامل التؤدة والخفوت ، أما هو فعلى خلاف ذلك ، مسكون بألوان تنتظر وينتظر ، بطاقات تنتظر وينتظر ، لن يطول انتظاره ، وحتى إن طال ؛ فليطلْ ما شاء انتظاره . . .

تفتقد صوته ، تنظر إليه متوقفاً عن الكلام ، ينتقي كلماته أو به غصة ، ليستأنف بصوت معمق مبحوح ، وهو يذكرها بمشهد ذلك الصبي المنتحل لشخصية طفل سوري لاجئ . . . نعم تذكر ذلك المشهد ، تذكر دائماً ذلك الصبي ، وما العلاقة؟ هو أيضاً بدوره نعيم ،

إذا لم يسعفه موعد أخضر ، مع الورقة الخضراء نحو عالمها الجديد المنشود ، فله فسحة اختيار لون آخر ، يستلهمه من مشهد الصبي السوري المنتحل ، لا ليتسول أو يستجدي معروفاً من أحد ، وإنما ليجوب ضفافاً أخرى مغايرة ، وبألوان عديدة مختلفة .

- الحق لا يستحيي من الخلق . . .

تقولها للاّمليكة متوقفة عن إتمام فكرتها ، مستطلعة ملامح صفية ؛ تلتقي نظراتهما بقوة وإمعان ، لتنحرف للاّمليكة بنظرتها قليلا ، شبه محنية بصرها ، لتعود محدقة في محدثتها مرة أخرى ، تواجهها بفكرتها المكررة في هذا الشأن . . . لا تقول إلا الحق ، وما هي إلا دلاّلة خير ، لا تقصد إلا الخير ، الحق لا يستحيي من الخلق ، الزواج ليس عيباً وكل الخير في الستر ، والمرأة بدون رجل تبقى هدف كل الرجال ومرمى ألسنة الشر ، ظاهراً وباطناً عن حق وباطل ؛ من يميز أو يتدبر أو يحترم . . . المرأة امرأة والسلام ؛ ماذا تكون أكثر من ذلك في نظر الرجال ، امرأةٌ بدون رجل؟

في جلسة معتادة من إحدى الزيارات ، تجالس للاّمليكة قريبتها في الجوار الأستاذة صفية ، كما دأبت أن تفعل ، كلما واتتها فرصة ذلك ؛ أنيسهما براد الشاي في موقعه المركزي في دائرة الصينية ، تحيط به نصف دائرة من الكؤوس ، كمؤتمَرين منتظرين متأهبين في حضرة سلطانية ؛ وكأنما الفكرة والصورة نفسها تعبر خاطر للاّمليكة ، لتلمس برفق وإيماءةِ احتفاء تعبدية ، أعلى قنة غطاء البراد ، هامته ذات الكويرة الفضية المثبتة علىً القاعدة الدائرية العاجية الصغيرة على شكل فلس ، لتتأوه متحسرة على دلالات البراد ، وعلى جلسات الشاي في عز أيامها ، عند أهل زمانها ، ولمن يرعون قدرها .

ترفع للاّمليكة بصرها نحو صفية في قصد وتركيز هذه المرة، لتصبها في سمعها دفعة واحدة :

- تزوجيه على طاعة الله ورسوله . . .

تلفظها عبارة قوية قاصدة نحو الهدف ؛ تنبهر صفية في تعجب متسائل، بينما تردف للاّمليكة مقسمة بأغلظ الأيمان، أنها ناصحة خالصة مخلصة لوجه الله والمحبة في الله، لم يكلمها أحد أو يرسلها مرسل، ولا هي وسيطة ؛ وإنما أخت وأم ناصحة لمن تحبها صادقة مع نفسها وربّها، هي ترى ما ترى من حال صفية، تتمنى لها كل الهناء، وهي ترى ما ترى أيضاً من سليمان وهو ما شاء الله عليه، خدام ردام، مبشور، قلبه أبيض . . .

تتحدث للاّ مليكة متعاطفة شبه نائحة على حال سامان أو سليمان كما تسميه، متأوهة متألمة لما تراه وتقدره من جهده وجديته، وهو يستحق كل الخير على ما يقوم به من خدمات للجميع، لا يطلب نظير ذلك حتى أجره المستحق ؛ ومسكين، مومن، أعطاه الله الصحة، يعمل بالنية، ما يغش ما يسرق ما يعيا، أعطِه أو لا تُعطِه، المهم يخدم ويعمل، يعاون الجميع ويتعاون مع الجميع، هذا هو الرجل يذكره عمله، في غيبته ودون علم منه أو إذن .

تغرق للاّمليكة في تعداد صفات سامان، ترى أن أمثاله قلة نادرة بيننا اليوم، تقولها وتكررها إن أمثال سليمان لا وجود لهم، لم يعد لهم وجود بين جيل اليوم، من الكسالى المدمنين على اللهو والنوم، وهاهم في الساحات والزوايا وعلى طريق المدارس، يتحينون الفرصة بكل عابرة قاصدة شأنها، لا يميزون بين متزوجة وعازبة أو تلميذة أو حتى أم مع ابنتها .

- . . . ولا حتى . . .حامل

تقولها في هيئة من تنفض يدها يأساً من شيء برمته . . . أي والله ، تقسم للاّمليكة أنها فعلا شاهدت متحرشاً وقحاً ، يسعى بإلحاح خطو ولسان ، وراء امرأة حامل ، تبدو من حالها كأنها في التاسع من حملها أو قريباً منه ، مسكينة كرشها لفمها ، ولا هو يراعي أو يستحيي ، وهي المسكينة تغذ السير تهرباً ، تسارع خطواتها بعيداً عنه في مزيد إلحاحه ووقاحته . . . آه لولا أن أحد العقلاء من المارة ، لاحظ ما لاحظ ، لينبري للفتى الطائش بالتوبيخ ، ينهره يلعنه ويلعن تربيته ، لما توقف عند حده . . . لكن أي حد؟ ما هي إلا برهة تمر ، على انصراف ذلك الرجل وابتعاده ، حتى يقفز الفتى الطائش ، من جديد وأخف مما كان ، في أثر المرأة التي اختفت منحرفة عبر زقاق ، في الحومة المجاورة .

- تفو . . . أعوذ بالله . . .

علائم تذمر واشمئزاز تكسو ملامح للاّمليكة ، وهي تلفظ عبارة تأففها ، ترسلها طلقة نارية أخيرة ، مع حركة تومئ بها ، كما لو كانت تتفل حولها فعلا في وجه الخزي المتجسد في أجيال اليوم ، وفي جنس الرجال كافة .

آه ، أما سليمان هذا . . . تعود المرأة إلى تعداد خصال سامان ، من أنه يبدو من ذوي الأصول ، سيماهم في وجوههم ، لا تشك للاّمليكة في ذلك ، وقد جربت الرجل في مناسبات عديدة وخدمات يقضيها لها ، ماذا تقول عنه؟ أمين متواضع خدوم مؤمن .

تبدو صفية كالغائبة ، شاردة أكثر منها متابعة أو متمعنة فيما تسمع ،لتنتبه على ذكر اسمها على لسان للاّمليكة التي تبدو وكأنما

أدركت إغراقها في امتداح سامان ، على حساب أنيستها جليستها صفية ، لتعرج على ذكر صفية بدورها ، تكيل لها المديح . . . بنت الناس ، شريفة عفيفة أستاذة مربية متربية ؛ ومن قديم قالوها بحق : بنات الناس لأولاد الناس .

تتوقف للاّمليكة متريثة ، متمعنة في ملامح صفية التي تبدو بعيدة عن الاهتمام بما تسمع ، ولا تجد لها عذراً في ذلك ، ما دامت في وضعها الحالي ، لتؤكد لصفية بخطاب مباشر ، ألا تشغل بالها بما مضى ، لأن ما كان ، قد فات أجله وانتهى فعله ، كما تؤكد للاّمليكة دائماً لصفية ، والماضي كالميت لا يعود أبداً ، كما أن الحياة واحدة واحدة لا تتكرر ، أحب من أحب ، وكره من كره ؛ الحياة تمضي ، لا تنتظر أحداً مهما كان ويكون .

تضع صفية يدها على كتف للاّمليكة تستزيدها الشاي ، وكأن لم تسمع ولم تع ، لتومئ للاّمليكة مكتفية شاكرة ، متأهبة للانصراف ، تقوم معها صفية باتجاه الخروج .

ها نحن في العشرة ، في انتظار ما يأتي ، ما يتخلق ما ينضج وينمو ، من حب وألفة وتعاطف بين زوجين ، كأنما تضيق رحابة الكون عن أن تفسح لهما ، أمامهما ، فرصة التعارف والتواؤم قبل الارتباط والالتزام ؛ ها نحن في العشرة إذن ، فلْتتولدْ يا حُب ، كم يلزمك من تذبيل هذا العمر الجميل لتمام استوائك وإثمارك؟ أما من حد أو سقف؟ أم هي زهوة العمر يجب أن تذوي ، تذوب ، لترتسم المعاناة على نحو من معالم تحمُّل مظهري محايد ، بلا طعم ، كما تراه وتريده زْحومة ، بعيداً عنها كل البعد معاناتُه وتذوّق مرارته ، أو ليتمثل بمخايل حكمة ، مستقاة عن تجربة حية ، عن خبرة دهرية طويلة مزعومة ، من لدن ادعاء بنات ، أنهن عركن الزمان وعركهن ، من طينة الأخت الحبيبة زينب الحسوني ، وبلسانها الذي لا يكف عن الجمع والقسمة والضرب ، للقيم المالية المتراكمة لصالح أختها المحظوظة صفية ، في كناش حسابها البنكي التوفيري ، بفضل الراتب الشهري المحول بانتظام من طرف الصهر الغالي ، فؤاد أوناصر ، زوج عزيزتها الغالية صفية ، ولصالح زوجته أختها الحبيبة المحظوظة صفية ، يصبه في حسابها الشخصي الخاص ، أو تتسلمه منه نقداً وبالكاش ، لتعيد بنفسها صبه حيث يجب ، مستثنى بالتمام والكمال ، من أية نفقة أو سداد أي مما تحتاجه الزوجة الغالية المحظوظة .

العشرة . . . العشرة . . . ها نحن في العشرة ، وينتهزها فؤاد فرصة حديث متقطع ، بين بقية لهاث من جهد الفراش ، كأنما ليشاطر الزوجة

صـفـيـة بعض خـواطره ، يذكـر بعض وقـائع ليلة العـرس ، ليلة أطلنتيك . . . ليلتهما الأولى . . .

ويذكر فؤاد كيف أنه كان متفهماً ومحتملا صبوراً ليلتهما تلك ، وكيف أن موجة ما اعترى صفية فجأة من ردات فيض غثيان ، أطارت ما كانوا فيه من روعة مرح وانشراح ، في جلسته مع ثلة رفاقه ، في الصالون المرفق الموصول بالغرفة ، ليتبخر كل شيء من جلسة أرادها فؤاد بديلا فقط ، عما أبدته صفية من استعصاء على التوجه معه للفراش ، يصل بها حد تقلص جسماني وتخشب مرعب ، بل ومخيف عليها هي بالذات ، ليتركها فؤاد وشأنها ، رفقاً بها ، مبرراً ذلك كما يفترض ، بابتدائية عروسه وانعدام ألفة مؤقت .

لا بأس من ذلك ، يرى فؤاد ، إنما رفقاً منه بنفسه أيضاً ، يدعو الدائرة الضيقة من ثلة الرفاق والخلان ، لتعويض مناسب ، رفقاً بالجميع أيضاً وتلطفاً مع الجميع ، وتأكيداً بالمحسوس للجميع آخر الأمر ، على أنه تزوجها فعلا ، تلك الأستاذة المتمرنة الدعية الطموحة على الركح المدرسي ، بقضيتها وقضيضها ، هاهي في ليلة زفافها له ، في جناحهما الفندقي الخاص بهما ، في غرفة نومهما ، وعلى السرير بالقرب منهم .

هاهي !

بيد أن روعة الجلسة الشلية تلك ، بما يحيطها من عز نصر وانتصار ، ناهيك عن روعة حفل وبهجة فرجة ، ما تكاد تبلغ أوج انتشائها ، حتى تفاجئهم حادثة العروس بأوج وعكة صحية طارئة ، مرفوقة بإغماءة عميقة .

هاهي؟!

وينبري صوت لا يدري لمن هو من ثلته ، ملتوياً لسانه بين فكيه ،

متثاقلا بإفراط سكر ، متعتعاً بسؤال ، مردفاً من ذاته أكبرجواب عن سؤاله

- . . . وففففين هي العروس؟ ما مما شفناهاش . . . فيننن هي؟ شكـ ـ ـون شافها منننـ ـكم؟

يدير لسانه بصعوبة بالغة وتثاقل ، وهو ينتصب بين الثلة المنتشية المخمورة ، لا يكاد يثبت على قدميه ، يدير نظره الزائغ في ملامحهم الباهتة ، بحثاً عن شيء لا يجده ، أين هي العروس؟ كأنما يستشهدهم على أنه حاضر ناظر معهم ، كما هم حاضرون ناظرون ، لكنه يبحث عن شيء لا يتبينه ، يريدهم أن يدلوه عليه إن أدركوه .

- هههذي ههي العرووووس؟ هههذي ههي؟

يؤكد سؤاله محدقاً في كل شيء حوله ، دائراً حول نفسه مرات يكاد يتساقط ، ليردف وهو يشير إلى كيان صفية المتكور على ذاته ، على معاناة غثيانية ، أنه لم يرَ ، ولا يرى شيئاً من عروس أو ما يشبه العروس ، إلا ما يكون من جثة هامدة ؛ هذي عروس؟ جنازة هذي ، عرمة لحم . . . للشواء؟ بالصحة والراحة عليك آ العريس ، صحتك وراحتك آ الأخ المعرس ، اشْوِ وكُلْ . . . تمتع بالشّي واللحم الطري ، ا الله يعاونك آ الحبيب . . .

تطير السكرة إلى حد ما ، تنقشع عن الرؤية غشاوتها بعض الشيء ، لتتفتح بقوة الواقع على الرغم منها الحواس .

أكثر من نكتة يصبح فؤاد ، جلجلة قهقهات الشلة المنتشية المتفرجة محتشمة مكتومة في الصدور ، لكنها مرتسمة على الملامح ، تستزيد من فرجة المشهد .

أكثر من فرجة ، تصبح بدورها صفية في ليلة عرسها وغرفة

زفافها ، أية صورة مفجعة لعروس ، أكثر من أن تكون في ليلة دخلتها ، ليلة العمر التي لا تتكرر ، مجرد كتلة لحم مكومة تصلح للشواء؟ وليمة شيّ بنكهة بشرية ، كما يعبر عنها بثقل لسان وتمايل كيان ، أحدهم . . . اشْوِ مع راسك . . . كُلْ وحدك وتمتعْ ؛ لم يقل إنها كومة جيفة لا تؤكل ، لم يقل إنها أصلح للحرق وأولى به من الشيّ والشواء ، لكن عيون الثلة من رفاق العريس ، نظراتهم ، قهقهاتهم المخبوءة المكتومة المتسترة وراء ابتسامات محتشمة ، تقول أكثر من ذلك وأشنع .

مسرحية كاملة الأركان ، بجمهورها المتابع المتفرج ، تدور فجة حية ميتة مميتة ، في غرفة نوم عروسين ، ليلة زفافهما الميمون .

هاهي !

وها هو أيضاً فؤاد ، بطل ليلة عرسه ؛ له وعليه عبر غلالة السكرة ، أن يتمثل الصورة جيداً ، فيمن حوله وما يحيط به ، وفي نفسه لنفسه ، ليتحدث بكامل اعتزازه المعهود ، عن كسب وعن رهان مستحق . . . ها هي . . .

وها نحن في العشرة يا حكمة زينب ، وهاهي ذي الأيام الليالي تمر بنا عشرة زوجية ، يا معالم حياد سلبي أليم مخيم على الوالدة زْحومة ، حتى لم يبق من غائب في عز أيام العشرة الزوجية ، إلا حسن الختم والدعاء بالسعادة ودوام الأفراح والمسرات بين الزوجين ، تُوقِّعُها بكل حرارة دلالة الخير النكّافة ، وهي تطبع على جبين صفية قبلة خفيفة ، مع كامل ابتسامة وإشراق ، هامسة لها بما لا تجعل سمع العريس يعجز عن التقاطه ، عن جمال وكمال فؤاد ، وسامته ورجولته ، زين الشباب بلا شبيه أو نظير ؛ لتثني بوضع ذراعها على كتفي العريس ، تهمس له بما لا يغيب عن سمع العروس ، بحظه السعيد الذي يجعل زين الزين ،

كماله وتمامه ، حمامة الجمال تحط في جنانه ودافئ وكنه ، لتتعالى أخيراً دعواتها وتمنياتها لهما بدوام المسرة والأفراح ، مع حسن العشرة وصالح الثبات والنبات ، قبل أن تتناول من يد فؤاد نفحة إكرامية ، تغذي من لهج لسانها الحاذق الذلق ، وهي تتأهب لتركهما لخلوتهما الأولى ، منصرفة بنصف التفاتة تحبُبٍ ومودة تجاههما ، مولية شطر الباب ، متلوية مدندنة

عندو الزين عندو لحمام ، عندو في دارُه
ونا الحب ، ونا لْغْرام ، كْواني بنارُه

تفتح صفية الباب ، تفاجئها قامة سامان منتصباً بمواجهتها ، يبدو فارعاً في لياقة وأناقة مظهر ، ببدلة نيلية خفيفة على قميص أبيض مفتوح ؛ لا يبدو قادماً من شغل ، أو متهيئاً له كما هي عادته ؛ يحيي بكامل لطف وإشراق ، تبتسم صفية مرحبة بنظرة وملامح ، أكثر منها بسؤال صامت ، عما تراه منه وما هو عليه من حال ؛ لا شيء وراءه يقول ، إنما كان في جولة يمر ببعض الأصدقاء والمعارف ، وقت فراغ فقط ، هو في فراغ الآن ، وجد نفسه في فراغ ، بدا له أن يمر على بعض الأحبة ، يسأل ، يحيي ويسلم .

يتحدث بتردد غير معهود ، وبطلاقة غير معهودة أيضاً ، تبدو وكأنها مجرد رغبة في الثرثرة ؛ متلعثم حقاً ، لا تخفي ابتسامته العريضة معالم ارتباك خفي خفيف ، مع شيء من جرأة أو ما يشي ببعض ذلك ؛ يكرر كلماته ممرراً كفه على جبهته . . . ما به؟ لا . لا . . . إذن . . . تدعوه للدخول متطلعة لحاله . . . ما به؟

يدخل مقْبِلا شبه متردد ، تشير إليه بالجلوس ، تأخذ مقعداً قبالته حول طاولة الصحن ، يكرر عبارات متقطعة ، أنه فقط ، يمر على بعض الأصدقاء و . . . و . . .

تظل صفية متابعة بتمعن ، محدقة فيه تتبين القصد ، ليتوقف لحظة ، يسحب من محفظة بيده لفة ورقية محزمة ، يقدمها تجاه صفية ؛ تبدو متسائلة ، يبدو مستعيداً هدوءه على نحو أكثر ، يشجعها بابتسامته أن تفك اللفة . . . نعم لا بأس ، تفك ربط الخيوط حول

اللفة ، تزيح اللفافة الورقية شيئاً فشيئاً . . . أوه . . . ماذا؟ . . . مطوية لباس ، قميص نسائي منمق ملون ، مع قطعة قماش منفصلة ، بمثابة وشاح من جنسه . . . يتمتم سامان أنها هدية منه . . .

- ؟

- كادو . . . داميتييه

هدية منه ؛ مشدوهة تظل صفية مجمدة الحواس ، بينما يبدو سامان أكثر هدوءاً ، يتحدث عن هديته أنها صناعة يدوية تقليدية ، يؤكد أنها من ديشيكي بمدينة أكرا ، أشهر ما يصنع الأقمشة والألبسة الرفيعة في غانا ، أصيلة وصَلَته خصيصاً بطلب وانتظار ، يوجه نظر صفية إلى العلامة الرمزية المميزة المطرزة على الحواشي ، أصيلة تماماً مائة في المائة .

ترنو منبهرة صفية ، تردد البصر ما بين القماش بسحر ألوان مشجرة ، من خفيف زرقة وغامق ، مع صفرة خطوط مقوسة متقاطعة ؛ تسرِّح القميص على صدرها ، تتحسس تطريز نهايات كميه المتوسطين بإعجاب ، تأخذ قطعة القماش المنفصلة ، تسرِّحها ، تجربها وشاحاً على كتفيها وحول عنقها ، يتابع سامان حركاتها بابتسام مشجع ، تدير وجهها ناحيته مستطلعة رأيه في صمت ، ليتحرك تجاهها مستمهلا ، يمد يده يأخذ قطعة القماش عن كتفيها وحول عنقها ، مشيراً إلى أنها ليست في وضعها الصحيح ، بل توضع على الرأس على نحو ما سيفعل إذا سمحت له . . .

تنتصب صفية واقفة مستقيمة أمامه ، تتيح له فرصة معالجة وضع قطعة القماش كما يحلو له ، يدنو سامان متناولا قطعة الوشاح ، يطلقها كما هي رأسياً ، ليبدأ في معالجة وضعها على رأس صفية على نحو من

عمامة أو كوفية ، يركبها ملوية مُميَّلة ومقبَّبَة حول رأسها . . . هكذا . . . هكذا . . . تستقيم صفية أخيراً ، بقبة عمامة قماشية منصوبة على هامتها ، تحرك رأسها قليلا ذات اليمين وذات الشمال ، كأنما تجرب حركتها بهذا الحمل الجميل ، أو تتحسس مواءمته معها ، لتبسط بعد ذلك القميص فوق صدرها ؛ تنظر باتجاه سامان ، وهو ما يفتأ يتأملها بمعالم إعجاب ؛ تتحرك صفية في موقعها ، دائرة حول نفسها بظاهر خفة ومرح ، مستشعرة طيش طفولة في كيانها ، خفة فراشة في مربع أزهار ، تقفز فجأة باتجاه سامان ، تطبع على وجنته قبلة حارة خاطفة . . . ماذا؟

برهة . . . خطف بارقة مباغت ، تقفز صفية مختفية داخل غرفتها ، يعم الصمت والجمود ، يظل سامان في موقفه متسمراً مجمداً . . .لحظة ، نسمة ، لسعة ، هبة . . .

صفية في غرفتها متصلبة الكيان ، بمواجهة مرآة تبدو لا صقيلة لا معتمة ، لا رائية ولا مرئية ، غير عابئة بشيء ولا عاكسة لشيء .

واقفة صفية منكسة الرأس ، بإحدى يديها قماش العمامة متدلياً من حولها ، يمسح الأرض في إهمال تام وغير إحساس منها بشيء ، وباليد الأخرى يتدلى القميص . . . ماذا؟ لحظة برق خاطف . . . ماذا ماذا؟ متقلصة الجوارح متجمدة ، تنتفض منتحبة في صمت . . .ما دهاها؟ كيف جرى؟ ماذا ، وأين هي؟ لا تستشعر شيئاً ، لا تحس بشيء .

يتحرك بمهل وبطء سامان ، يتقدم باتجاهها في الغرفة ، ليضع يده على كتفها برفق . . . لا تحس بشيء من حولها ، متجمدة متصلبة تظل في وقفتها . . . كيف؟ ماذا لماذا؟ منكسة الرأس متخشبة تظل صفية ؛

يلمسها سامان ، يمرر يده على كتفيها برفق بالغ ، يديرها إليه ممسكاً كتفيها بحنو ، يرفع متمهلا وجهها تجاهه ، ينظر طويلا في عينيها بعمق ، ليطوقها بذراعيه ، يضمها إليه بمهل بالغ ، تستكين لحضنه مغمضة العينين ، تنساب في ذهنها صور متراقصة تتلألأ فيها بابتهاج كوني ، ذبالات شموع على رمل شاطئ هادئ ، على الأرض ، والتماعات نجوم مؤنسة عاطفة ، في علياء سماء .

يتلألا الشاطئ بشموع أرضية ملونة ، متراصة صفوفاً متوازية ، تتخللها دوائر أنوار بألوان وأشكال مختلفة على رماله ، كأنما تساقطت من عليائها بقسطاس ، أو أمطرها على الأرض فيض هندسة سماوية تبدو بدورها حافلة العُلى بزهر نجوم .

على مدخل فندق أطلنتيك موكادور ، أو بالأحرى مخرجه باتجاه الشاطئ ، تصطف منتصبة في خطين متوازيين ، قامات هيئة استقبال من رجال بألبسة شبه مخزنية مزركشة ، مغمورة بناصع برانسها ، متوجة الرؤوس بقاني طرابيش ، بأهداب شاشياتها السوداء المدلاة ، تشي بمحاكاة مشاهد وأحوال سلطانية ؛ امتدادات أطلنتيك موكادور على رمال الشاطئ ، تزهو بعالم أنوار مستنبتة على الرمال ، وأخرى مرصوصة على موائد ، حولها مقاعد تحت مظلات وأخبية متفرقة مختلفة الأحجام ، يتوسطها خباء رئيسي كبير ؛ عوالم ضوء ينساب في صفاء ليله نغم يسري في الأرجاء ، لا يتبين له في الحال مصدر من مكان أو آلة ، تتخلله على وهن ، حركةُ موج هادئة مداعبة .

مجالس أنس ، مماشي بهجة ، مواقف انشراح ومسرة ، تتقارب فيها النفوس والأجساد ، قرباً لقرب بوحاً لبوح ؛ فيوض مودة لامّة ملمة ، تتهادى على هونها شلل آدمية ، تخطر هوناً ما بين شد وجذب ، متدانية في إسرار ، متنائية في إجهار ؛ أخبية ومظلات تلتم تحت وقائها مجالس أحبة ، ما بين همس ولمس ، حكياً لحكي ، سماعاً لسماع .

وما تلبث أن تهتز الأرجاء بجلبة وأهازيج الدقة المراكشية على إيقاع البندير والمزمار، ليقف كل الشاطئ، تكاد تنحبس معه أنفاس الحضور عن ترددها، متوقفة له ذؤابات الأنوار المشعة عن تلاهبها، مجمدة عنه حوافي الموج عن سيرانها؛ الشاطئ، كل الشاطئ مشرئب، لطليعة الموكب الاحتفالي المقبل، تحفه مباهج الإكبار والترحاب: الحاج أوناصر وشريكه الداسي يشكلان قطب الطليعة الموكبية، وراءهم وإلى جانبهم جوقات الاحتفاء، وعلى إثرهم جمهرة الأقرباء والأصفياء، تتقدمهم ثلة من أهل المال والأعمال؛ احتفائية ميلاد الحاج أوناصر، لا تأتي هوناً أو تمر عفواً، وإنما تحمل معها شراكة جديدة، تجمع بين قطبين في مجال التعدين وأشغال الطرق؛ مناسبة ليست عابرة ولا حدَث كل يوم، لذا تلتمع لالتقاط مشاهدها العدسات، متسابقة لذيوعها الألسن والمنابر.

يتقدم الموكب على ممشى بساط ممتد حتى حافة الرمل، تحوم متدافعة أمامه وحوله من كل جانب، ثلة الإعلاميين والمصورين، على اختلاف معداتهم، وتنوع زوايا لقطاتهم، غير مترددين ولا مكتفين، رغم إشارات مسؤول التنظيم المرافق، وهو يتقدم الموكب، يهشهم بتأفف لا يبدو طبيعياً ولا جاداً، بقدر ما يخالطه من تكلف واصطناع، وهو يدعوهم إلى التنحي وإفساح السبيل، وكأنما لا يزيد بذلك عن أن يذكي عزيمتهم، ويدفعهم دفعاً إلى مزيد ترادف وتسابق، لتصدر عنه مرة بعد أخرى، علائم ضجر وضيق، بما يفيد من جانبه الجنوح إلى التغاضي والإهمال، تاركاً لهم الحبل على غاربه، في مظهر من نفاد صبر وقلة حيلة أمام جسارتهم؛ إلا أن ذلك، لا يثبت أو يتركز بفعل همته من جهة، وبجسارتهم من جهة ثانية، بقدر ما يأتي حلقة في

دور وتسلسل ، يبدو معه أن المعنيين به قبل غيرهم ، يدركون معناه ومرماه الحقيقي ، إذ ما يلبثون وهم يُبدون شبه انصياع في اتجاه التهدئة لحظة ، أن ينتفضوا لما هم إليه ، بالأكثر حمية وحماسة من جانبهم ، متسارعين في تجانب وانحناء ، حد الارتماء انبطاحاً ، وبالغ التمدد والتمطط ارتفاعاً ، لالتقاط ما يرون من زوايا صور مختلفة ، عن كل بعد وكل قرب .

يتوجه الموكب نحو الخباء الكبير لتصدح أرجاؤه بموسيقى ترحيبية تدريجية متصاعدة ، كما لو كانت مخبوءة في صدور فرقتها المنزوية في ركنية الخباء الذي يصبح مجمع الكل من المدعوين ، بمن كان منهم سائراً ضمن جماعته ، أو قاعداً إلى طاولة أهله وأصفيائه ، البعض ممن يجدون حيزاً جاهزاً يجلسون إلى المقاعد المصفوفة ، بمواجهة بسطة مرتفعة ببضع درجات ، متقدمة متصدرة إلى الأمام ، أشبه ما تكون بركح فرجة ، والبعض الآخر ، يتخذون مواقفهم على الحواشي والأطراف ، بينما تتقدم طليعة الموكب ، وهم ثلة صفوة نحو الركح يرتقون الدرجات المعدودة إلى بسطته الخشبية المفروشة ، يحتل صفوفها الأمامية المقربون وأهل المال والأعمال ، يتصدرهم أوناصر والداسي مع أفراد أسرتيهما ، حيث تبدو صفية إلى جانب زوجها فؤاد ووالدته إلى يمين المنصة ، بينما الداسي وأسرته ، إلى اليسار من ذلك .

يتقدم عريف الحفل نحو منصة منتصبة على الركح ، ينقر بسبابته على مكبر الصوت ، يطلب الهدوء والانتباه ، ليتحدث مرحباً بالجميع ، يشكر الجميع على تلبية الدعوة والتشريف بالحضور ، منوهاً بمن نسج خيوط هذا اللقاء ، وهم خيرة الناس ، ذوو الحسب والنسب ، من يسعون إلى خير البلاد والعباد ، في مناسبة كلها خير ، جمع خير ولقاء خير ،

مناسبة سعيدة تتراقص فيها شموع ميلاد الحاج أوناصر، مع طيب الأماني بطول العمر وحلل الصحة والعافية، لتقترن بحول الله وقوته، بقيام شراكة قوية وهامة، بين رجلين ومؤسستين وأسرتين عريقتين كريمتين . . .

يتوقف العريف برهة، يرنو إلى ملامح الحضور حوله، متجولا بنظراته في العيون المتطلعة والأذهان المتابعة المتفتحة لما تلفظ شفتاه . . . يطيل برهة صمته وتأمله، ليطلقها جهورية كلفظ واحد يجمع اسمي أوناصر الداسي، مثيراً بذلك عاصفة تصفيق وهتاف من كل الأرجاء، ملتفتاً خلفه تجاه الرجلين وأسرتيهما، مشيراً إليهما بمشرع ذراعيه، متيحاً للجمهور فرصة المزيد من التصفيق والهتاف، وللرجلين أيضاً فرصة القيام ورد التحية للجمهور، ليخطو العريف تجاههما، يتوسطهما ممسكاً بيديهما معاً، ملوحاً بهما تجاه الجمهور، متقدماً بهما إلى مركز المشهد ليتركهما متماسكي اليدين، يوزعان التحايا والبسمات على الحضور في كل تجاه .

يلتقط العريف اللحظة من جديد، بين سيل تصفيق وهتاف، منوهاً بالدور الاقتصادي والوطني للرجلين، وأدائهما الدائم في خدمة البلد والمواطنين، معدداً خصالهما الوطنية والإنسانية، وباللحظة التاريخية التي يؤسسان لها في هذه اللحظة، وهما يندمجان ويدمجان مؤسستين كبيرتين، في مجال المعادن وتشييد الطرق، في مؤسسة واحدة شاملة، يعلنان ميلادها الآن منذ هذه اللحظة، ويوقعان ميثاق قيامها باسم «أوناداس : المغربية للتعدين والأشغال الكبرى» .

يتقدم في هذه اللحظة شخصان من مؤخرة الركح، يحمل أحدهما طاولة صغيرة، ويحمل الآخر مقعدين خفيفين، يضعان ذلك

في وسط المشهد ، ليعودا بدفترين مفتوحين يضعانهما فوق الطاولة ، ويقفان مجمدين بجانبها ، يتقدم كل من أوناصر والداسي ، كل يحتل مقعداً على الطاولة ، يقومان بتوقيع الميثاق ويتبادلان نسختيهما مع قبلة متبادلة على الوجنتين ، تحت عاصفة هتاف وتصفيق ، بينما ينبري العريف مرة أخرى ، يتحدث عن النظرة المستقبلية للرجلين ، وهما يضربان المثل في الوحدة الاقتصادية لمؤسستيهما ، كما يضعان ثقتهما في الشباب ، ويعملان على إشراك الأجيال الجديدة في تحمل المسؤولية ، وقيادة اقتصاد البلاد ؛ لا ، بل ما هو أكثر أهمية من ذلك ، تسليم الشباب مفاتيح التدبير والتسيير .

يلتفت العريف بحركة مسرحية ليشير وينادي على الدكتورة الآنسة هناء الداسي والمهندس الخبير فؤاد أوناصر ، ليتقدما باتجاه طاولة التوقيع ، حيث يترك كل من أوناصر والداسي مقعديهما للشابين اللذين يتقدمان تحت التصفيقات ، ليحتلا المقعدين تحت أنظار والديهما الواقفين إلى جانبيهما ، ليوقعا بدورهما الوثائق ويتبادلانها ببشر وابتسام ، مع قبلة متبادلة على الوجنتين ، والكون من حولهما يضج بالتصفيق والهتاف .

يعلن العريف انطلاق الحفل ، لتصدح الموسيقى في الأرجاء ، وتتحرك أسراب المناولين بين الجموع الجالسة والواقفة ، تقدم ما لذ وطاب من مشرب ومأكل ، بينما تلتم دائرة زحمة من المهنئين والمقربين حول أقطاب التوقيع على المنصة ، ينافسهم الإعلاميون يتبارون متسابقين لأخذ مشاهد وصور المعنيين وآرائهم ، ترسل وتنشر جامدة ومتحركة عبر الأثير .

يبدو كل شيء مختلطاً في نظر صفية ، وهي تجد نفسها بجوار

مقاعد أصبحت فارغة ، بينما حماتها ونظيرتها زوجة الداسي وغيرهما ، كل غارق في معمعان تحاب وترحاب مع جمهرة المتعانقين المتهانئين على بسطة الركح ؛ لتخترق جمع الحفل بين هتاف وتصفيق ، طاولة متحركة تنيرها الشموع ، محملة بحلوى الميلاد ، تورتة فخمة متوجة برمز أوناداس .

يتحلق الجمع الحافل حول دائرة التورتة المزهرة ، بشمعة أوناداس السامقة بين دائرة الشموع ، تتراقص بهجة شراراتها الفضية الذهبية ، تحلق مريدين بمقدس أو معبود ؛ تزداد الرؤية اختلاطاً في أعماق صفية ، تستشعر ما يحيط بها وموقعها ، وهي في زيارة سيدي بوسبع ، صبية مع جمع الأهل في موسم الولي الصالح ، محيطين متحلقين حول القبر المكسو بأغطية مزركشة ، بتزاويق وألوان ، تثير في الصبية صفية عميق اشتهاء لما مرت به من معروضات في فساحة باحة الضريح ، من أنماط فواكه وثمار وحلويات ، متداخلة الألوان مختلفة الأحجام والأشكال ، عجائبية النكه ، رائقة المذاقات ، تجعل الصبية وهي تمر بقربها ، تتمصص ريقها ، ولا تكف عن التلفت حول عارضيها ، حتى إذا غابت مع أهلها في الداخل للتبرك بالقبر ، تظل مشدودة الخاطر لما تصبو إليه وتترجاه ، لدرجة أن تغمض عينيها ، حتى لا ترى ما يجري حولها في حضرة القبر المقدس ، ولا ما يشغلها عن تأمل مبتغاها من ألوان عذوبة وحلاوة ونكهة . . . هكذا . . . هكذا مغمضة العينين ، لترى ما تريد دون غيرها ، لتحلم . . . هكذا تحلم بإرادتها مغمضة العينين . . . هكذا . . . هكذا تفتح الصبية عينيها ببطء على ما تشعر به يلامسها ، ينبهها ، لتجدها يداً ممدودة إليها بصحن حلويات وفواكه يابسة حقيقية بكل الأشكال والألوان .

تنتفض صفية ، تنفض عنها صور طفولة بائدة بعيدة ، لتعود إلى واقعها ، تنظر ما حولها في احتفالية أونادس حيث هي الآن ، تنظر محدقة في الجمع ، ليبدو تارة بعد أخرى ، لعينيها المتطلعتين ، طرف من شبح فؤاد ، يظهر ويختفي بين القامات المتحركة المتفاوتة ، يبدو مغموراً في بريق العدسات ، منغمراً في حوارات الإعلاميين وأسئلتهم ، كما تبدو بدورها هناء الداسي بقربه ، منشغلة بمثل ما هو فيه ، ليبدوا معاً مسحوبين ، تجاه ركنية في طرف الخباء ، تلتمع حولهما العدسات ممتدة تجاههما اللاقطات الصوتية ، بينما تبدو ثلة رجال المال والأعمال ، كوكبة ملتمة حول أوناصر والداسي ، منهمكة في تبادل أحاديث تبدو أكثر جدية ، مما يجري في الحفل ، ما تلبث أن تجعلهم وكأنهم ينشدون لأنفسهم خلوة ، من صخب الحفل وزحمة الحضور ، ليتسللوا إلى الخارج في فضاء أرحب .

مستريحة صفية على صدر سامان ، مستكينة في حضنه ، خالية البال ، أبعد ما تكون عن التفكير في أي شيء ، سوى لحظتهما الآنية ، لحظتها معه ، وجودهما معاً في فراش يضمهما كياناً لكيان ؛ صافية الذهن يشملها دبيب ارتخاء منوم مريح ، مسترخية ساكنة تظل صفية ، متجاوزة بارق انبهارها بلحظتهما ، لتستفسره إن كانت لحظة مستقبله هي ما يحركه الآن؟

لا ينفي سامان ذلك ، بل يؤكد من جانبه منتهى ما يتمنياه ويعمل من أجله ، وهو أن تسعف الظروف حقاً هذه المرة برحلة ناجحة ؛ فهو لا يرى نفسه قادراً على تجرع الخيبة مرة ثانية ، لدرجة أن احتياطاته المتشددة في ظروف أية رحلة ، بل ارتيابه الذي أصبح حالا ملازمة خوفاً من تكرار الفشل ، كل ذلك من جانبه ، ربما أفقده فرصاً سانحة فوّتها ، وكان من شأنها أن تنجح لو اقتنصها ، لكنه أصبح قليل الثقة ، فيما يعرض من فرص الهجرة ، بل منعدمها تقريباً ، لامتلاء السوق البشرية بالمحتالين والنصابين واللصوص وحتى القتلة .

تبدو صفية شديدة الانتباه لما يروي ، مرتسمة على محياها معالم هم واغتمام ، لدرجة أن سامان يتوقف عن حديثه ، متكلفاً ابتسامة عريضة ، وهو يمر بيده على سحنتها ، كأنما يمسح ما يغشاها من غيوم ، تزيح صفية كفه عن وجهها بلطف ، مبدية رغبتها في أن يتم ما كان فيه من حديث .

- نعم؟ والآن؟

تسأل ملحة عن فارق ما بين السابق والحالي من فرص الهجرة أمامه ، عن فارق ما بين معاناة تنتظر وأخرى تحتضر ، مضمرة في أعماقها تساؤلا أكثر قرباً ووضوحاً : أما له من قرار ، أما لهذا من نهاية؟ تتهادى في خاطرها صور سامان متنقلا بلا كلل أو فتور ، خارج نوبة عمله أو أثناءها في دورة من ليل أو نهار ، متطوعاً بخدماته لأي كان ، مسارعاً للمساعدة في أي شيء لأي أحد ؛ يحمل بضاعة عن متسوق ، يرافق عليلا قاصداً طبيباً أو وجهة مستشفى ، يصحب بعض الصغار إلى مدارسهم ، دون أن ينسى في نهاية الأمر ، الإلحاح من جانبه هو على تزويد أي كان ، برقم هاتفه لمناداته عند أي حاجة ، في أي وقت ، لأي شيء ، أو أي شغل إضافي مهما كان ؛ تتهادى في ناظرها صور ومشاهد مختلفة يوحد بينها باستمرار ، شخص سامان ، دائماً . . . هنا وهناك ، حيثما تلتفت . . . وفي مركن السيارات بساحة حي التقدم ، حيث يتبادل سامان النوبة حارساً مع بّالْعربي ما بين ليل ونهار ، وحيث تتحول ساحة المركن جل النهار ، إلى ورشات عشوائية صغيرة مفتوحة ، لإصلاح عربات شبه متهالكة ، لا تخلو من أعطاب مستمرة ؛ كثيراً ما ترى سامان مندساً بكليته تحت غطاء محرك ، أو مختفياً منتصفه تحت هيكل عربة ، يساعد في تصليح ما يمكن وما لا يمكن ؛ وهو يؤكد علناً في كل مناسبة ، أنه لم يهاجر ويغادر بلده إلا ليشتغل ويدخر ، فوراءه أهل ، وأمامه مستقبل ؛ هي إذن ، لحظة مستقبله تزف؟

لحظته مستقبله؟ لماذا الآن ، وليس قبل ذلك؟ تنتصب صفية شبه جالسة في الفراش ، مستندة بمرفقها إلى مخدة النوم ، تبدو مهتمة شديدة التطلع ، ما الفرق إذن؟ يرنو سامان إلى بعيد ، إلى لا شيء ،

يتحدث بثقة وهدوء كأنه يتهجى مكتوباً في مواجهته على الجدار، ينهي إليها أن ما يطمئنه الآن، أنها بوتو التي تدعوه إلى رحلته الموعودة وتشجعه عليها.

- بوتو؟

تتساءل صفية بنبرة كالمتحفزة، يؤكد أنها الصديقة بوتو فعلا، الصديقة الحقيقية من أمثاله، تلك التي ذاقت مثل ما ذاق من خيبة أمل وفشل وصدمة، ذاقت مثله ومعه، وشاركهما تلك التجربة المريرة أخريات وآخرون؛ الصديقة بوتو تلك، هي الآن في أمن وأمان، في وضع قانوني، وبشغل منتظم على الضفة الأخرى، مستقرة مع زوجها الإيطالي؛ وكل شيء مهيأ لسامان، بوتو وزوجها يرحبان به، وهي بالذات تدعوه ملحة ليلحق بهما، برحلة آمنة على نحو ما فعلت هي، وبالطريقة والخطوات نفسها... ألا يكفي ذلك؟ ألا يطمئن؟

يبدو سامان مطمئناً فعلا، هادئاً وأكثر وثوقاً؛ هي صفية التي تحتاج إلى أن تطمئن، من أين لها ذلك؟ ويلفظها سامان بعد تأن وتأمل: إنه جاء يودع.

هكذا إذن؟ لحظتهما ليست أبداً دليل وصل أو عربون وعد، بل تحية وداع وافتراق؟ هديته لم تكن أكثر من ذلك، هدية وداعية فحسب، وحتى ما ترتب عنها، لن يغير من الأمر شيئاً؛ لحظتهما عفوية محدودة مهما تطل أو تتعمق، إنما لا يريد سامان شيوع عزمه على الرحلة في الحال على الأقل؛ خطته للمغادرة، مشروع رحلته يزفه إلى صفية الآن دون غيرها، لا يريد له ذيوعاً، كدأبهم جميعاً في تدبير الرحلات بسرية تامة؛ بوتو نفسها مع قوة ما كان بينها وبين سامان من رابط صداقة وثقة، لم تخبره إلا بعد شهور من استقرارها هناك.

تبدو صفية متابعة في ظاهر حياد، هي التي كان أول ما داعب خاطرها، وهو يفاجئها بهديته، أن يكون لذلك من معنى أو دلالة على شيء ما، بغض النظر عن مستوى التبادل والتقبل من جهتها هي، أو من جهته؛ حتى إنها الآن، مع ما تسمعه من عزمه الهجرة، لتفكر مع نفسها في البسيط الأبسط من معنى لكل ما بينهما: ألا تكون التفاتته، هديته تلك، مجرد تعويض أو جبر ضرر، عن سابق خطأ منه بغير قصد، تأدّى إلى كسر خزفية أثيرة لديها، ما تزال تذكرها، ولعله كذلك؟

يقطع سامان خواطرها، بعبارة جامعة مقطوعة، يلفظها بكامل التؤدة، أنه فقط، يودع.

برهة انقطاع، لتصدح في أجواء احتفالية أوناداس، موسيقى خفيفة مرحة، سرعان ما تتجاوب معها نفوس وتتحرك أجساد نسوة ورجال، متمايلة على إيقاعاتها، ملتزمة مواقعها أو متجهة صوب مركز القاعة الذي ينجلي في نهاية الأمر، عن حلبة يتحرك في ساحتها، على إيقاع النغم، ثلة أشخاص يتحركون جمعاً ومثنى وفرادى من الجنسين؛ ومرة بعد أخرى، ينضاف البعض تلقائياً إلى مركز الحلبة أو ينصرف منها مكتفياً، بينما تدعو الحماسة بعضهم بين الحين والآخر، إلى مناداة بالإشارة، تشجيعاً لمن عليهم الالتحاق بالحلبة، كما يتطوع البعض حيناً بعد آخر، بالتوجه إلى خارج الحلبة لجذب البعض إلى داخلها، في شيء من تمنع من جهة، وإصرار من جهة أخرى، حتى يسلس القياد أخيراً، وتتغذى الحلبة باستمرار بفاعلين جدد.

بغيم نظرة ترنو صفية إلى المشهد المتحرك الرجراج على الحلبة، ملامح وجوه تظهر وتختفي، بين أكتاف وقامات بدورها متحركة، يتوارى بعضها وراء بعض بغير نظام ولا ترتيب.

خطوات وأيد تتحرك ممتدة باتجاه فؤاد وهناء، تقتطفهما قطفاً من دائرة المتكاثفين حولهما من ذوي العدسات واللاقطات الصوتية، تغشى بهما بؤرة المحفل، لتتشكل حولهما كوكبة مختلطة من رواد الحلبة، ما يلبثان أن يتحركا بينها في شبه تردد أو تعثر، قبل أن تأخذهما همة الجمع الراقص من حولهما، ليندمجا كلية في تناغم الحركة والإيقاع متضافريْن متشابكيْن، لتزداد بذلك حمية الحلبة،

ويرتفع الإيقاع مشفوعاً بعبارات التحميس والتشجيع من المتحلقين والمتابعين للحلبة ، وما تلبث البؤرة الضيقة وسط الحلبة ، أن تتحلق بدورها في دائرة صغرى ، ينفرد في قطبها ثنائي فؤاد وهناء ، لتتعالى في الأرجاء صيحات التهليل والابتهاج ، بينما الراقصان متشابكان في توازن خطو وإيقاع .

فؤاد هناء ، هناء فؤاد ؛ شبحان مُوهِمان مُموَّهان ، متشابكان بحبال نظرات متبادلة بينهما ، منغرزة إبراً في جفني صفية المغبَّشيْن المتابعيْن دون رغبة منها أو إرادة ؛ شبحان يتلويان يتمايسان ببطيئ بطء تباطؤ ، تكاد صفية تتبين منه في غبش رؤيتها ، تتابع انفتاح بؤرتي نظرتيهما المتبادلتين بالميليقراط ، حتى تبلغا غاية انفتاحهما على الكون برمته ، تشملانه وتضمانه بأجمعه وما فيه ، كما ينضم غيم مشهد الشبحين أحدهما للآخر ، وهما يتداخلان مكوِّنين شبحاً واحداً غائماً في الرؤية ، يغيبان طويلا في بعضهما ، يلتحمان أبدياً دهرياً ، في غيم ما يبدوان فيه من وحدة والتحام ، لغبش رؤية صفية وكثيف ضبابيتها .

يطول الأمد بهما متداخليْن ، حتى كأنْ لا انفصال ولا انفصام ، فعلا لا تتوقع الرؤية الغبشية أي إمكان ، لما سوى أبدية التحام . . . الشبحان ينحنيان في التحام تمايسهما ، حتى ليغيبا في بؤرة الحلقة عن غبش رؤية مضببة ، وحتى لتتوقع الرؤية من موقع صفية ، أنهما وقعا على الأرض شبحاً ملتحماً بشبح ، أو زُفّا زفّاً إلى ما انفتح لالتحامهما ، وانشقت لهما عنه الأرض ، من روض خلود ، لا قيام بعده ، لا حركة ولا انفصال .

ويبدوان لرؤية صفية في ضبابية ما يتفتح لها ، وهما ببطيئ بطء تباطؤ مرة أخرى ، ينبعثان من جديد ، يقومان مُموَّهيْن ملتحميْن في

واحد . . . آه ، ينفصلان . . . ينفصلان بكل البطء البالغ بلا حد ، أحدهما ينفصل ولا يبقى له من أثر ، إلا أن شبح هامته يوحي بشخص فؤاد ، وهو يمد يده تجاه من لا يمكن أن يكون غير شبح هناء ، يدعوها بالإشارة لتستمر وحدها في الحلبة ، لتبقى هناء وحدها جوهرة الحلبة كلها ، وحدها . . . شبحها وحدها . . . وعيناها على المسافة في عيني فؤاد ، خطا سهميهما ، نظرتيهما الناريتين ، مسار واحد بينهما ، تيار واحد يجمعهما ، هما معاً وحدهما ملتحمان بأشعة النظرات مشدودان بها ، وقلباهما . . . صدراهما . . . بطناهما . . . كلُّهما . . .

إنما هي وحدها هناء ، وهو فيها فؤاد كما هي فيه ، عن مسافة وعن قرب ؛ وحدها هناء يصدح لها الإيقاع مختلفاً عما كان ، وحدها يراقصها الإيقاع قوياً جارفاً ، وحدها يتراقص لها الشبح الغائم منها في رؤية مضببة ، متقافزاً متلوياً ، مائساً متغنجاً ؛ وغيوم دائرة الأشباح من حولها ، غائمة بدورها وأشد ، متمايلة في مواقعها وأشد ، مشاركة بدورها ببطيء بطء تباطؤ لا مزيد عليه ، بالتصفيق والتشجيع ، وبملامح أقصى البهجة والانتشاء .

غائمة الرؤية مضببة ، تتابع صفية ما يجري من تلاحم أشباح في بهلوانية ، من تباطؤ بطء حركاتها ، ما بين اتصال وانفصال ، فرجة مرحة مسلية ، مبكية مدْمية في آن ، حتى إن بسماتٍ لترشق صفية في موقعها ، وغمزاتِ عيون قارصة لَتغمرُها ، إيماءاتٍ تصدر باتجاهها ، تفهم صفية طعمها ولا تحس لها المذاق ، وشوشاتٍ في سمعها ، تتغلغل بخاراً متسرباً ، عبر المسام وشعيرات الكيان ، دافئاً مدغدغاً ، حاراً حارقاً . . . حتى إن أكُفاً لتبسط لها لتلقي كفيها ، تروم إنهاضها ، قصد التحام على إيقاع اتصال وانفصال متناغم في الحلبة ، كتفاً

لكتف ، صدراً لصدر ، بطناً لبطن . . . دعوات باتجاهها مترنحة مفتحة الأحضان ، كي تقوم بدورها ، تنضم شبحاً إلى الأشباح المموهة في ميعان أشكالها وألوان ملامحها ، في حركاتها المطاطية المتمططة بلا حد ولا قرار ، في بؤرة جذب الحلبة وصخبها . . . آه ، لطالما تمنت ذلك ، كانت تتمناه في تلك الذكرى ، ذاك اليوم من عيد ميلادها الذي لم يكن ، وفؤاد يؤوب باكر صباح اليوم الموالي ، متسللا إلى غرفة نومهما في هدوء يعرف أنه موقظها ، ينزع عنه ملابسه ، يرمي بها قطعة قطعة ، حيثما اتفق ، تشمله ملامح قلق جدي يخالط سكرته ، متمتماً بسؤال مهموس مسموع ، وهو يعتصر جبهته بكفه حيناً بعد آخر : آشنو نسيت اليوم يا ربي؟

مسكين ، غفر الله له ، إنما نسي شيئاً لا يسعفه فيه تذكر .

مترنحة الكيان ، متحاملة على نفسها صفية ، تعمل جاهدة لترى ولتنهض ، متلمسة ما حولها ، كأنما تنشد مستنداً من جدار أو أي متكأ ، حيث تعلم ألا جدار ولا متكأ هنا يدعم وقفتها ، لتخطو فاقدة الإحساس بكل شيء ، إلا ما يملأ ضبابية الرؤية من تمطط وبطء في كل شيء فيها وفيما حولها .

تسير ، وحدها تسير ، كيف تسير؟ أي طريق تسلك ، وإلى أين؟

مهوشة مخطوفة الخاطر ، تتحرك للاّمليكة في غاية اضطراب ، وهي تحشو كيانها عشوائياً في الجلابة ، كيفما اتفق متلمسة منافذ الرأس والذراعين ، متحسسة دون رؤية في الآن نفسه ، موقع ما تصادف قدماها من بلغة أو صندل تنتعله ، لتخطو تكاد تقفز ، متعثرة القدمين كأنما فكت لتوها من محبس أو قيد ملازم ، تغذ السير مسرعة لا تبالي بشيء مما تصادف .

- سامحني

تلفظها بآلية اعتذار ولا وعي ، لما تصدم في وجهتها من جسم تحس كتلته دون كنهه ، دون أن تلتفت أو تتبين ، مستشعرة ما يشيعها به من تلكزه متجاوزة له أو منحرفة عنه ، من عبارات تذمر وشتيمة .

غير مبالية تخطو متعجلة متخبطة ، متعرجة ملتوية في خط سيرها ، مخترقة كثافة زحام تراها غير عادية منتصف صباح لم يلتئم سوقه بعد ، واختارت طرْقه عن قصد ، كأقرب معبر لوجهتها ؛ تخطو متعثرة محتكة بما تصادف ، حتى يستقيم أمامها زقاق أكثر فساحة وأقل حركة ، تتراص ملتصقة بناياته السكنية المتوسطة والصغيرة ، بارتفاع طبقتين أو ثلاث ، لتتوقف أخيراً متعلقة البصر ببناية لا تتميز عن مثيلاتها في شيء ، سوى طلائها الخارجي المبهج المتعدد الألوان ، على واجهتها كتابة . . .

تتساءل للاّمليكة إن كانت هذه هي المدرسة؟

- أييه . . . مدرسة النور

يؤكد الشخص الماثل عند المدخل بمثابة حارس، أو مجرد واقف، مجيباً عن تساؤل المرأة ممعناً في تفحصها، لدرجة تجعلها تنتبه إلى بعض شأنها ومظهرها المشوش، تلم ما عليها وتسوي قدميها المنزلقتين عن وضعهما في الصندل، دون أن يبدو عليها أثر استجابة أو فهم لما سمعت، ليضيف الشخص من ذاته:

- هذي آ للاّ هي المدرسة، مدرسة... خصوصية... حرة، بنات وأولاد، كلشي... حضانة، روض، ابتدائي... كلشي...

تنظر إليه كالمستأذنة في الدخول، يفسح لها دون كلمة، لتجد نفسها في مسار ضيق يملأ سمعها ضجيج ترداد واختلاط أصوات تصدح متداخلة، بدون ترتيب ولا انسجام، من مختلف فصول دراسية في الطابق الأعلى.

تقطع للا مليكة خطوات في المسار الضيق، لينفرج عن بعض غرف يصدر عن فتحة أحد أبوابها، حس حركة من الغرفة المقابلة لها في صدر البهو، تقصدها لتجد أمامها فتاة جالسة إلى مكتبها، بمواجهة شاشة حاسوب، بينما هي منصرفة بظاهر اهتمام إلى مداعبة هاتفها المحمول بكلتا يديها، مستغرقة في تصريف محتوياته.

- ممم...

تنتبه الفتاة إلى صوت المرأة ملقية تجاهها نظرة عابرة، لتعود لإتمام ما هي فيه كالمستأذنة لبرهة زمنية، قصيرة، لحظة... لحظات قليلة... وتضع الفتاة أخيراً من يدها محمولها، تضعه جانباً، مع متابعة شاشته بنظرة جانبية لآخر لحظة؛ لتلامس لوحة أزرار حاسوبها على المكتب، مسمرة نظرتها في شاشته المنتصبة بمواجهتها، لتنظر إلى المرأة معلنة عن رقم...

- ؟

ملامح استفهام على سحنة للاّمليكة لتردد الفتاة الرقم ، وتكرره بأناة أكثر من مرة ، ثم تخطه على وريقة صغيرة بجانبها ، سرعان ما تشرعها في وجه المرأة ، مؤكدة أنه المبلغ المطلوب ، مقابل شهري االعطلة الصيفية ، يدفع ابتِداءاً من الآن مع التأمين السنوي ، كما ورد ووقع تعميمه على التلاميذ ، ليخبروا أولياءهم وعائلاتهم .

لا يبدو من فهم على ملامح للاّمليكة ، لتبادر الفتاة مستدركة متسائلة أولا ، عمن تعني المرأة أو يعنيها . . .

- تلميذ ، تلميذة ، ولد ، بنت . . . الاسم؟

- صفية . . .

تبدو الفتاة مهيأة للبحث عن التلميذة المسماة ، إنما ينقص الاسم العائلي لو سمحتْ المرأة؟

تجيب للاّمليكة موضحة أنها ليست ولية أحد ممن يدرسون ، إنما هي تسأل عن أستاذة ، الأستاذة صفية؟

آه . تدرك الفتاة القصد ؛ قوليها من الأول ، الأستاذة صفية الحسوني ؛ نعم ، والأستاذة صفية كغيرها مشغولة الآن . . . لا . لا . لا يمكن . . . تؤكد الفتاة جواباً عن رغبة ملحة للمرأة في لقاء صفية حالا ؛ لا . . . لا . . . لا يمكن ، ممنوع تماماً ، يجب الانتظار إلى نهاية الدرس ، ويمكن الانتظار عند باب المدرسة .

يعم بعض التململ مظهر للاّمليكة ، تبدو معه أصابع قدميها ، من مقدم الصندل ، غير مستقرة وفي حركة عشوائية متزايدة . . . حسناً ، تنهض الفتاة ، تحمل كرسياً وتتقدم به تجاه الصحن ، مومئة للمرأة بالجلوس والانتظار ، تمتثل للاّمليكة بعد تردد ، تقتعد الكرسي

بحركة متلكئة ، تتابع بضيق أنفاس ، حركة الفتاة وهي تعود إلى جلسة مكتبها ، تتفقد محمولها منصرفة إليه بكليتها من جديد .

تظل للاّمليكة منتظرة فترة بقلق متزايد ، تملأ سمعها ضجة الأصوات المترددة المختلطة ، وما تلبث أن تنهض متبرمة ، لتتحرك بهدوء قاصدة مخرج المدرسة ، تنتظر أمام الباب محدقة مرة بعد أخرى في الكتابة الملونة المبهجة العريضة على واجهة البناية ، يتردد في سمعها صدى صوت مبهم : مدرسة النور خصوصية . . . كلشي . . .

تتخذ للاّمليكة موقعها مقابل المدرسة على مبعدة من المدخل الخارجي ، ملتفتة مرة بعد أخرى إلى يمين وإلى شمال ، وهي تطيل النظر في المسالك المؤدية إلى المدرسة ، كما لو كانت ترقب أو تنتظر أحداً ؛ قبل أن يبدأ بعض ذوي التلاميذ المتعلمين من كلا الجنسين في التوافد ، لمرافقة من يليهم من الصغار ؛ ولا يمضي طويل وقت ليرن جرس المدرسة ، وتمتلئ فوهة المدخل لافظة روادها الصغار ، مجموعات مجموعات متصايحة ، باحثاً بعضها بأنظار لهفة عمن يألف صحبته من ذويه ، بينما يلتف آخرون شللا متضامنة متقافزة بظاهر طيش نحو مقاصدها المختلفة .

ما يكاد شبح الأستاذة صفية يظهر قبيل عتبة الخروج ، حتى تهرع نحوها للاّمليكة ، مما يجعل صفية مندهشة من زيارة غير متوقعة من جارة في الحي ، مهما يكن من معرفتها بها ، فهي ليست بدرجة التعلق والهم ، كما أنها تبقى جارة بعيدة على كل حال ، وليست بذات صلة أو قرابة عائلية .

تعجل صفية بمفارقة شلة التدريس ، متجهة نحو زائرتها التي تتحرك بدورها ، تسبقها يدها ممدودة ممطوطة بأقصى سعتها ، ما تكاد

تلمس يد صفية ، حتى تجذبها نحوها تخطو بها ، ملتفتة بشبه ملامح حذر إلى كل اتجاه ، كما لو كانت تخطفها لتنجو بها ، أو لتنجوا معاً من خطر ما ، غير مبالية بأحوال صفية وأسئلتها الصريحة ، حتى تنفردا على منعرج خارج المسالك المباشرة المؤدية إلى المدرسة ، لتتوقف المرأة لاهثة من جهد ما بها ، أكثر منها بسبب الخطو والمسافة .

- الحمد لله . . .

تكرر المرأة الحمدلة بأنفاس متقطعة ، وصفية كلها تحرق ولهفة لتفهم سبب الزيارة وهذه المشقة و . . . لعل المرأة في ضائقة ما ، ترجو العون والمساعدة ، وماذا تستطيع لها صفية ، فيما هي فيه بدورها من وضع تعلم منه المرأة ما تعلم ، وما خفي أعظم ؟ لا . لا . لا . . . تحرك المرأة رأسها نفياً كأنما ، تحدس بعض ما يمكن أن يجول في ذهن صفية ؛ المسألة وما فيها أن ذاك بّالعربي . . .

- مالو؟

يقفز التساؤل حارقاً من جوف صفية ، عما يمكن أن يكون أصاب الرجل من مكروه ، متجنبة أن تلفظ تساؤلها عن موته

- ممالوش

تطمئن للاّملكة محدثتها ، على أن الرجل المسكين الطيب بخير ، إلا أنه جاء يطرق باب للاّمليكة اليوم ، قبيل منتصف النهار ، بملامح قلق وارتعاب بالغ . . . تنظر المرأة متلفتة حواليها ، لتدرك أنهما بالفعل بمنجاة ومنأى عن مصدر تخوفاتها . . . ويقول لها بّالعربي إن هناك من يتتبع خطوات صفية

- ؟

نعم ، اليوم يلاحظ بّالعربي أن شخصاً غير مألوف ولا معروف في

الحي بكامله ، يتحرك في الجوار ، يتردد ما بين مجيء وذهاب ؛ ولا تخفى على مجرب مثل بّالعربي خافية مما يجلب القلق ، لذلك يظل متابعاً تحركات ذلك الشخص الذي كان يغيب حيناً ليظهر من جديد ، كمن يتأكد من مقصده ، ثم ليبدو كما لو أنه يلحظ شبح بّالعربي لأول مرة ، فيقصده وفي يده سيجارة يود إشعالها ، وقبل أن ينجده بّالعربي بوقيدة إشعال ، يبدو أن الرجل يتذكر أخيراً أن له ولاعة ، أو أنه يسترجع مخبأها في أحد جيوب سترته ، ليبين عنها ذهبية لماعة ، يهدي معها سيجارة من علبة فاخرة لبّالعربي ، ويشعل له ، لينشقا معاً أنفاساً مشتركة ، يأبى بّالعربي إلا أن يكميها في ذاته ، دافناً دخانها في أعماقه ، مستبقياً عبقها في جوفه أطول ما يمكن ، بخيلا بأن ينثرها زفيراً مجانياً في الهواء .

يأخذ الرجل في أسئلة تعارف مع بّالعربي المجرب الخبير ، يسأله عن عمله في الحراسة منذ متى؟ وهل هو من سكان هذا الحي؟ كيف يعاملونه؟ لينفحه في النهاية لمة مالية ورقية يرفضها بّالعربي ، ليضحك الرجل مبسطاً الأمر أنها ليست صدقة . . . حاشا لله . . . الرجل الشريف يأبى الصدقة . . . مفهوم . . . الله يعطينا القناعة . . . إنما هذه بالضبط ألف درهم نظير عمل محدد ، لا يكلف أكثر من عمل الحراسة التي يمارسها بّالعربي . . .

تبدو صفية مأخوذة منشغلة بما تسمع ، تكاد تهتف بسؤال عن آخرة الأمر . . . يعني؟ أنتِ ، تقول للاMليكة مواجهة صفية . . . هي هي صفية المقصد والمطلب ، وراءك من يريد بك شيئاً ، وهو يتوصل إلى دائرة سكنك ويتجول في محيطك ، وأخوف ما كانت تخاف للاّمليكة في شديد لهفتها وقلقها ، أن يسبقها ذلك الرجل إلى المدرسة هنا ،

طبعاً بّالعربي أنكر أن يكون يعرف امراة بالاسم والمواصفات التي يذكر الرجل ، لكنه يقر لصاحبه مع ذلك ، بأنه لا ينتبه إلى خصوصيات الناس بكل التفاصيل ، خاصة خاصة إذا كان بعض الساكنة يستضيفون أصدقاء ، ولهم معارف ؛ إلا أنه مع ذلك ، يعد الرجل بأن يفتح عينيه ، وخاصة عندما يطلعه الرجل على صورة صفية .

طبعاً ليس بّالعربي بالساذج ، فله دراية وخبرة بالناس ليدرك في الحال أن الرجل ليس من أصحاب الحال ويقصد بهم بّالعربي الأمنيين السريين ، الذين يجعلون من كل حرفي في الحي عيناً يقظة متتبعة ومبلغة ، ومن كل زاوية مرصداً ؛ لا . لا . الرجل ليس من أولئك ، وهم على كل حال معروفون لدى بّالعربي ، وهم بدورهم يعرفونه ؛ وحتى لو وفد جديد منهم على الحي ومناطق الجوار ، فإنهم يحرصون على تبليغ ذلك لمن يجب أن يتعاون معهم ؛ لا . ليس الرجل أمنياً ، بدليل أنه يدفع أجراً سخياً ومسبقاً ، وهو ما لا يفعله الأمنيون السريون الذين يقصدون أمثال بّالعربي بالأمر والاستكبار ، حتى ليبدو بّالعربي وأمثاله كأنهم مذنبون متهمون ، لا مجرد مخبرين متطوعين ممن يرجى تعاونهم وإفادتهم .

لذلك يسأل بّالعربي الرجل عما يعنيه من أمر صاحبة الصورة وبحثه عنها . . . يقول بّالعربي إن الرجل يناور ، ولا يفيد بأكثر من أنها مسألة عائلية ذات موضوع خاص ، يتعلق بإرث ، وأن صاحبة الصورة ـ صفية ـ لها ولصالحها نصيب من إرث عائلي ، عليها أن تستلمه وتحوزه ، هذا كل ما في الأمر .

- إرث عائلي؟

تتساءل صفية ، لتضيف المتحدثة مؤكدة أنه يقول إنه إرث . . .

ويقول الرجل إن المبحوث عنها ، صاحبة الصورة ، لها نصيب هام لا تعلم به ، كما لا يمكن أن ينفذ شيء في الموضوع ، حتى لغيرها من ذوي الحقوق ، إلا بعلمها ومحضرها ؛ ويترجى الرجل من بّالعربي أن يبقي الأمر سراً ، حتى لو لاقى صاحبة الصورة ، وذلك حتى لا تُصدم بخبر وفاة مورثها ، لذلك يكفي التأكد من وجودها زماناً ومكاناً ، ليتصل بها في الوقت المناسب ، من يمكنه ذلك من أفراد العائلة ، ومن هو أهل لإبلاغها بالموضوع ، بطريقة تكون لائقة ومقبولة .

- هو

تهتف صفية في أعماقها برعشة انفعال خفي ، متابعة للآمليكة وهي تستحضر بعض ما ثبت في ذهنها المشتت من صفات الرجل ، ملامحه ، شكله ، ملابسه ، حركاته . . . وذلك من خلال أقوال بّالعربي .

- هو ، بلا شك

- هو؟

- أوناصر . . . فؤاد

طريقها متعرج خفي ، وكذلك يظل ، لا يتضح أو يستقيم ؛ في ركن منعزل قرب محطة شركة ساتيام لحافلات السفر ، تنتظر صفية متوجسة مترقبة ، عينها على الداخل والخارج من باب المحطة التي اختارتها دون القطار ، ودون المحطة الرئيسية للعاصمة ، حيث ملتقى عديد من شركات النقل مع كثرة اختلاط البشر ، وحيث تتعذر المراقبة على من في مثل حالها ، تريد اقتناص ملامح أو حركات من يمكن أن يتبع خطواتها ، للنجاة بنفسها في الوقت المناسب ، إن قُدّر لها أن تتبين ذلك ، وهي التي لا يمكن أن تتعرف إلا على فؤاد ، دون غيره ممن يمكن أن يُنتدب لمراقبتها ومتابعة خطواتها ، من شلته أو أتباعه وعملائه ، خاصة أن فؤاد وقد توصل إلى أثرها ، بعد تقص واقتفاء طويل من لدن شركائه بلاشك ، لن يعدم أن يتأكد من مسكنها ومواقيت حركتها على وجه التحديد ، وأن يصل إلى مدرسة النور ، ليدرك أنها غادرت أو على وشك أن تفعل .

هنا على الأقل ، محطة نقل لشركة واحدة ، بباب واحد وحركة معدودة ، يتيسر معها ملاحظة كل شيء بوضوح .

لم تكن صفية في يوم من أيامها ، هانئة البال مرتاحة إلى وضعها ، أبداً لم تستشعر أماناً ، أبداً ما أمست أو أصبحت خالية الذهن من أنها عرضة لمجهول مرعب ، أقله تتبع خطواتها وانكشاف أمر وجودها رغم البعد والتخفي ؛ نعم ، كانت تتوقع ، لكننا نحيا مع المتوقع وبه ، وكأنه لن يقع ، لدرجة أنه حين حصوله ، يحل بطعم المفاجأة والرهبة .

صور وأفكار متقطعة تراودها أحياناً وباستمرار، بأن لا أحد يمكن أن يعبأ لشأنها وغيابها من طرف فؤاد وآله، كما لم يكن أحد منهم يعبأ بوجودها بينهم، فهي لم تحس يوماً بينهم، بأنها ذات شأن يؤبه له أو يعبأ به، لم تحس يوماً بينهم بأنها أكثر من ريع، لعبة جاءت بصدفة، لا حتى بحظ كان مأمولا أو متوقعاً، فأحرى أن تكون برغبة وسعي من أحد منهم؛ الأمر كله مجرد عبث صِبية كان، مجرد نزوة رهان عنّتْ فقط لا غير، لا أكثر، وكذلك تظل؛ لماذا إذن يَتعبون أو يُتعبون، بحثاً عنها، مادامت قد أراحت واستراحت؟

خواطر وصور متداخلة وإن تكن في مجملها بطعم مرارة، لكنها في الآن نفسه، تشكل واحة قرارها من حين لآخر، لفترات لا تطول بقدر ما تقصر، لا تثبت بقدر ما تتطاير، لكنها على كل حال، تهنأ حيناً بعد حين، بفيئ ومضاتها العابر، في هجير رعب أيامها العميق المستديم.

لم يكن لصفية أن تعود من المدرسة إلى مسكنها، بعد زيارة للآمليكة لها في المدرسة وإخبارها، فهي أكثر من متأكدة بأن فؤاد يقتفي أثرها، يستقصي عنها، وهو الآن على قرب منها، كما أن غيره بالتأكيد يفعل ذلك أيضاً؛ لذلك تقصد صفية محطة السفر مباشرة، كما هي، بحالة ما كانت عليه في المدرسة؛ وتتطوع للآمليكة بالمساعدة بأن تتوجه إلى مسكن صفية بما يجب أن تتقنه من مزيد الحيطة والحرص، ومن هناك تلم وتلملم ما يمكن من متاع وأوراق صفية من مسكنها، لتوافيها ببعض ذلك في حقيبة وكرز، على أن تتولى تصفية المتبقي بالكيفية المناسبة، مع تسوية وضعية الكراء فيما بعد، باتصال مع صفية؛ إنما... تسأل للآمليكة عن وجهة السفر إلى أين؟

لا تعرف صفية لحد الآن ، لم تحدد بعد ، كل ما تعرفه أنها يجب أن تتحرك وتبتعد .

الوجهة؟ طريقها؟ قرارها الأخير؟ لا تعرف صفية حقاً وجهتها ، لا تريد أن تعرف ، هذا ما تتركه لطريقها الذي لم ترسمه أبداً ، وإنما هي مدعوة إلى اتباعه .

بحرقة وحرارة تتعانق المرأتان قرب محطة ساتيام ، لوداع يأتي على غير موعد ولا استعداد ، ولم يكن أبداً في حسبان ؛ تكرر صفية عبارات الشكر لرفيقتها ، باختناق أنفاس وضيم مكتوم ، لا يقل في ذلك عن حال نظيرتها للاّمليكة ، التي لا تملك أن تقاوم ترقرق دمع في عينيها ، لا تكاد تخفيه ابتسامتها العريضة ، ولا فيض دعائها باليسر والتوفيق لحبيبتها ، مع تأكيد ما يطمئن صفية ، من أنها ستقوم عنها بكل الواجب المتبقي في غيابها ، لتتعانقا من جديد ، قبل أن تخطو صفية بحملها ، تعبر نحو مكتب المحطة ، متأنية متلفتة إلى كل اتجاه قبل ولوج مدخلها ، لتستدير بكل كيانها مرة أخيرة ، باتجاه للاّمليكة على الطرف الآخر بمواجهة المحطة ، تلتقي نظراتهما من بعيد ، لعدة ثوان ، دون عبارة أو إشارة ، قبل أن تدلف صفية إلى داخل المحطة .

تلزم صفية موقعها وراء من أمامها في الصف القصير مقابل شباك التذاكر ، تتحرك شيئاً فشيئاً بتحرك المصطفين واحداً واحداً ، حتى تمثل أمام القابض القابع داخل مكتب التذاكر ، ترتسم ملامحه عبر الطاقة الصغيرة المفتوحة بمواجهة الزبائن ؛ ولعل صفية تظل مشدوهة بمواجهة سحنة القابض ، مطبقة صامتة ، أو أنه لم يسمع عنها أو يتبين ما تقول . . .

- نعم؟

يسألها عن الوجهة ؛ تتلعثم ، ربما أخبرته ولم يسمع ، لكنها لا تدري ماذا قالت أو لم تقل ، لا تدري حقيقة ، إنما الرجل مستعجل ، وهي صامتة ، كأنما تنتظر نجدته بأن يحدد لها وجهتها ، لكنه لا يفعل وإنما بملامح استعجال وإشارة تسمُّع ، يمط عنقه باتجاه الطاقة تقرباً منها ، تتردد صفية في التلفظ ، والرجل على أهبة واستعداد ، ليمدها بالبطاقة حسب وجهتها .

- نعم نعم؟

يتساءل الرجل غير مستوعب ما ذكرت بصوتها الخافت المتردد ؛ لا تدري من أنطقها ، ولا كيف صدرت عنها الوجهة ، إنما اللفظ تردد فيها ، صدر عنها بآلية وتمام حياد ، في لحظة تبدو قاطعة مقطوعة ، بلا رابط أو صلة .

- طنجة!

لا يبدو سامان متحمساً ولا يستشعر ذلك، تدفعه رغبة، تحده رهبة، وهو أقرب إلى التأكد من مآل خيبة، يعمل منذ الآن على أن تتهيأ لها صفية وتتحملها... ثم مآله هو أو مآله معها...

- رجْلي على رجْلك

هكذا تنهي مناقشتها معه لموضوع الرحلة؛ وماذا يملك لها؟ لا يمكن أن تفهم أنه يتهرب من رفقتها، هذا ما يريد أن يؤكده بكل ما فيه؛ رحلته آخذة طريقها منذ فترة ليست بالقصيرة، بما فيها الاستعدادات لآخر لحظة، فالتأجيل ثم التأجيل؛ أيَحتمل سامان أن يحل دورُه مثلا، فيعتذر عن رحلته لحين توافر فرصة لصفية؟ لهما معاً؟ أهو مالك مصيره إلى هذا الحد؟

مترافقان في جوف التاكسي الصغير، صفية وحدها في المقعد الخلفي، سامان جنب السائق، يقطعان طنجة هامشياً باتجاه مغوغة، عين أقنا؛ يعرف السائق طريقه المختصر جيداً إلى هناك، لكن سامان لا يستطيع أن يدله على العنوان المقصود بالتدقيق، في حي هامشي صفيحي، لا تحمل أزقته علامات ولا أرقاماً؛ لكنه عندما يقترب تدله المعالم على مقصده.

يبدي السائق ميلا واضحاً إلى الثرثرة، وما يفتأ يسأل عن سامان، موطنه وعمله وأي شيء عنه، بينما لا تفتر عيناه عن التطلع إلى سحنة صفية، عبر المرآة الصغيرة في الأعلى أمامه، كأنما يريد أن يصدق أنها بالفعل مغربية من لحم ودم، برفقة مهاجر إفريقي...

كيف؟ إلى أين؟ ليس من شأنه طبعاً، وكانت صفية حاسمة في الاستجابة لتطلعه، منذ أن توقف لهما وانفتح الباب، ليصعد سامان مبيناً عن قصده، بينما صفية تصعد إلى الخلف دون كلمة، يلتفت نحوها السائق متسائلا، تؤكد له أنهما معاً في الاتجاه نفسه، يبلع ريقه ولسانه، لكن عينيه ما تفتآن تتطلعان عبر المرآة، تستقرآن تستشفان ما يعن أو يمكن.

- الأخ إذن من . . . أكرا؟

يتساءل السائق، في ابتسام وترحاب، مفيداً أن له كثرة زبائن أفارقة، يظل ينقلهم إلى الأنحاء، ليلا ونهاراً، وما يفتأ يمتدحهم كافة.

- خوتنا أفارقة، الله يعمرها دار، أولاد الناس ومزيانين . . .

يذكر أنه نقل أكثر من مرة زبائن من بلد سامان بالذات . . . آييه . . . من غانا ومن أكرا تماماً؛ يبدي سامان تفهمه ويعمل على التجاوب مع السائق في حديثه، ليذكر بدوره حبه وعشقه للمغرب وسكانه؛ الكل إخوة، لا فرق: مغربي وغاني أو سوداني . . . والمغرب المغرب يا سلام، جميل والناس كلهم بخير وعلى خير.

هذر لا يجد طريقه إلى سمع صفية، حتى ولا نظرات السائق المعلقة تجاهها في المرآة الصغيرة أمامه تثير اهتمامها، أو تأخذ من خاطرها، ولا حتى حركات السائق نفسه، وهو ما يفتأ مرة بعد أخرى، يرفع يده يعدل من وضع المرآة، في شبه حركة خفيفة معتادة، لتعكس أمامه صورة صفية، كلما انحرفت هذه بوضعها عفواً أو قصداً، عن مواجهة نظرته؛ كل انشغالات صفية تدور حول الرحلة وما يتعلق بها.

رجْلي على رجْله . . . تؤكد صفية لنفسها قبل أي آخر، أنها لا تعني بها في واقع الأمر، أكثر من رغبة أكيدة عميقة، تريد أن تؤكد

لنفسها قبل الغير ، أن لا مكان لها هنا ، في هذه الضفة ، اليوم أو غداً ، به هو سامان أو بدونه ، معه أو مع غيره ، لكنها لا تعني أبداً إلزاماً لأحد ، ولا لسامان بالذات ، هي أولى بأن تدرك أنه حر ، مستقبله له وحده ويهمه وحده ، أو أن له طريقه ، ولها هي أيضاً طريقها ، لكل طريقه كما يقول الجميع .

يعبر سائق التاكسي طرقاً وممرات ، لينعطف باتجاه عين أقنا ، الحي الصفيحي الذي يعرفه ، وطالما نقل إليه زبائن من مغاربة وأفارقة ، ليشير سامان إلى حيث يجب أن يتوقف التاكسي ، فيترجل أولا ، وينفح السائق أجرته ، وتترجل بدورها صفية ، ليتوجها معاً صوب هدفهما ، وبالذات نحو مقصد سامان .

يتوقفان عند محل من بين محلات كثيرة متراصة لبيع كل شيء ، مما هو تجاري وشبه تجاري ، في زقاق يتوسط الحي الصفيحي ، يبدو كثير الحركة في جميع الاتجاهات ، لأفراد ومجموعات بملامح مغربية وإفريقية جنوب صحراوية واضحة ، ومن عربات آلية ، وأخرى مجرورة بدواب بأحجام وأشكال متعددة ، تنقل مختلف السلائع والبضائع ، وحتى البشر حسب مقاصدهم القريبة وحاجياتهم التي يتنقلون بها ، من وإلى أماكن وأسواق .

يخطو سامان وصفية باتجاه مقصده ، متجاوزاً عدة محلات لأنشطة مختلفة ، من غذائية وأنشطة حرفية لتصنيع وإصلاح اللوازم المختلفة ، من خياطة الجلابيب والقفاطين ، إلى إصلاح الدراجات والنجارة وبيع الأثاث والمواد الغذائية ، ليتوقف عند محل أمامه مجموعة من أفارقة في شغل منعكفين على إصلاح موتوسيكل ، يسألهم عن أوصمان دابيلو ، يحيونه ويشيرون إليه أنه غير موجود ؛ يتطلع سامان إلى الداخل

يتبين ، بينما يرى بعض أجزاء محركات وعربات مركونة بالداخل ، يشير إلى صفية أن عليهما الانتظار ، ويومئ إليها بالدخول لتجلس على مقعد خشبي ، بينما يحلس هو بدوره على مقعد مماثل ، ليحاول من جديد الاتصال بأوصمان الذي يظل هاتفه بدون رد ؛ يظلان غارقين في الصمت ، وعيناهما تتقاطعان وتتباعدان ، كل في واد ، في همّ مشترك ، أن يساعد أوصمان وهو وسيط جدي ، لتيسير موعد ولقاء مع أحد أطراف منظمي الرحلة ، تتجول نظراتهما في أركان المكان ، تبدو على أرفف خشبية غليظة ، بعضُ أجسام شبه مطوية لهياكل زوارق مطاطية مفرغة ، بينما على مناضد الشغل ، تبدو أجزاء لهياكل مماثلة في مراحل تصنيع أولية ؛ لا جديد في الأمر ، صفية تعرف ذلك من سامان ، عن أنشطة أوصمان صاحب المحل .

يعاود سامان الاتصال بأوصمان ، حضوره مع صفية كان بموعد فات الآن أوانه ، وتم تجاوزه بكثير ، والقلق يدب ، ينخر الزمن ؛ يقول لها سامان ، إنها مجرد محاولة منه ، منهما ، ونسبة الأمل فيها أضعف من ضعيفة . . . لنجرّبْ ، تؤكد صفية أنهما لن يخسرا شيئاً ؛ في واقع الأمر ، ما يخشاه سامان هو أن يفقد حظه في الرحلة المبرمجة والمؤجلة باستمرار . . . آه أخيراً يمسك سامان بصاحبه أوصمان على الخط . . . نحن هنا في الانتظار . . . نعم نعم؟ لا ، كيف؟

ينهض سامان ، تتبعه صفية بخطوات لهفة مرتبكة ، دون أن تدري شيئاً ، أو يقول لها شيئاً . . . إذن أوصمان غير جاهز الآن ، وهو في شغل شاغل بفضاء إليكترو نيك . . . إذن لمَ لا يلحقان به هناك؟ تصر صفية على ذلك ، لا مجال لديها لانتظار أكثر أو تسويف ؛ إذن يتجهان عبر تاكسي صوب حي بني مكادة ، يجوبان عمق الحي ، متوغليْن في أزقة

ودروب ، ليتوقف التاكسي بهما عند يافطة إسباس إليكترونيك .

فضاء متسع من بناية أرضية تشكل ورشاً متكاملا واسعا بآلات خرط وتلحيم وما إلى ذلك ، مع حوض مائي مستطيل بجوار باب عريض ، منفتح داخلياً على فضاء آخر ملحق يمثل امتداداً للورشة ، يشكل مساحة واسعة ، محاطة بجدران متوسطة ، فيها بضع أشجار متفرقة ، تتجمع في أركانها عدة أجهزة ميكانيكية مختلفة ، من محركات وأجزاء آليات عديدة متنوعة .

يبدو صاحب المحل بوعلي ؛ في حدود منتصف الأربعينات من عمره ، ملتح ، يريانه منهمكاً في تسليم طائرة صغيرة ، لعبة ميكانكية لزبون ، وهو يجري عليها تطبيقات طيران أمام الزبون ، معتزاً بإنجازه ، مؤكداً أنه احتذى فيها نموذج الدرون ، إنها الدرون مصغرة ، مضيفاً أنه لا ينقصها عن الدرون الأصلية ، إلا التجهيزات الوظيفية ، مظهراً نموذجاً مصوراً من طائرة الدرون في تمام هيئتها ، تبدو مزودة بكاميرات وأكسسوارات مختلفة . يتقدم سامان يحيي

- بونجور مساء الخير

يتوقف بوعلي عما كان فيه ، يتأمل سامان لحظة ، ليسأله إن كان مسلماً ، يومئ سامان مؤكداً أنه كذلك ؛ يحرك الرجل رأسه يميناً وشمالا مقطباً ملامحه ، ليلتفت كلية بمواجهة سامان ، مستنكراً منه ألا يحيي بتحية الإسلام؟ ما معنى مساء الخير ، صباح الخير ، بونجور؟ تحية الإسلام السلام عليكم ؛ يبدو سامان مأخوذاً على غرة ، لم يحدث معه مثل هذا أبداً ، ولم يسمع به ، على هذا النحو المركز ؛ وهو الآن لغرض مخصوص ، بل في مسعى هام يود أن ينجح فيه ، ولا وقت له ولا رغبة في أي شيء آخر .

- السلام عليكم

يلفظها سامان مطأطئاً رأسه في إيماء بأن الرجل على حق في ملاحظته .

- وعليكم السلام يا عبد الله

يرد الرجل التحية ، وهو يقبل على سامان بشوشاً مرحباً مستعداً لأية خدمة ، لكنه ما يلبث أن يتعثر في إقباله على سامان ، وهو يبدو منتبهاً إلى حد الإحراج ، تجاه شخص صفية ، مما يجعلها تنتبه لنفسها وما عليها أن تفعل ، لتفهم أخيراً أن الموقف منها غير طبيعي ، وأن عليها أن تأخذ الأمر على وجوب التلطف معه ، لتبتسم باتجاهه معتذرة ، تحييه بتحية الإسلام كما يريد وهي تمد يدها تجاهه لمصافحته ، بينما يلوي الرجل ذراعه خلف ظهره ، نائياً بيده عن أي لمس وتلامس ، وهو يغض عن صفية ، محنياً نظرته مع أمارات تأفف ، متمتماً بهمس مسموع يرحمك الله يا أمَةَ الله . . . يرحمك الله

تتعثر صفية في موقفها ، تحتار لا تدري ماذا تفعل إزاء موقف الرجل منها ، تنظر إلى سامان ، يومئ إليها ، لتتراجع منكتمة ، بينما يبدو بوعلي كغير العابئ بشيء ، عدا شغله الذي يقبل عليه بغاية همة واهتمام لا تخفي معالم تذمره ؛ ليبادر سامان بالسؤال عن أوصمان ، يجيبه بوعلي أنه في عملية تجربة خارجية لمحرك ، ولن يتأخر في العودة .

ينتحي سامان وصفية جانباً ، بينما ينصرف بوعلي إلى حوض الماء بجانبه ، يعمل على التحكم في مصغر زورق ، بتوجيهه عن بعد نحو هدف مرسوم K ، يمثل نقطة طافية على الماء في نهاية الحوض ؛ يكرر الرجل ذلك ويعيد ، وهو ينجح في إصابة الهدف بالزورق

باستمرار ؛ لكنه بضغط على زر في جانب الحوض ، يحدث جلبة تموجية في الماء ، يتعذر عليه معها التحكم في التوجيه نحو الهدف .

يكرر الرجل مرراً ويعيد ، دون جدوى ، وهو في كل مرة يقيس ويسجل مدى التجاوز أو الانحراف ، عن الهدف المرسوم K .

يحضر أوصمان على محرك رباعي العجلات بمقعد واحد ، يبدو مجهزاً للتحرك على الرمال أو المسالك الريفية ؛ يوقف أوصمان حركة المحرك ، ويهرع مباشرة ، لا يلوي على شيء ، إلى داخل المحل لدى بوعلي ، يساعده ويشاركه الاهتمام بالزورق في حوضه المائي ، ومدى انحرافه عن الهدف عبر التموجات المائية ؛ ويأخذ الأمر بعض الوقت على المنتظرِيْن ، إلى أن يتوقف بوعلي بعض الشيء ، ويولي انتباهه ، لما يقول سامان ، ليعلم منه أن المحرك يشتغل بتقطع ، وخاصة عند تفعيل الطاقة القصوى في الاندفاع أو مواجهة صعوبة أو عائق ؛ يطمئنه بوعلي ، على أنه سيعالج الأمر .

يمتد الطريق مصعداً منحدراً في المنعرجات الجبلية ، تلتوي بالتواءاته سيارة نقل عمومية ، من صنف تاكسي كبير ، بحمولتها البشرية من زبائن مكثفين من ذواتهم ، مداخلين من أحجامهم بما فوق السعة والاحتمال ، يتمايلون كتلة واحدة ملتحمة ، بتمايل العربة ذات اليمين وذات الشمال ، وفق خط سير ما ينفك ينحرف ويتعرج ، حتى ليكاد يستحيل في بعض مقاطعه ، إلى شبه دورات حلزونية تصعيداً وانحداراً .

ينشر سامان ذراعيه ممتدين أفقياً ، أحدهما حذو كتف صفية عن يساره بموالاة باب السيارة ، والآخر حذو كتفي جارِيْه إلى اليمين ، يبدو من سحنة أحدهما أنه مثله إفريقي جنوب صحراوي ، يواليه كهل مغربي ؛ لا نأمة حديث تسري بين المجموعة ، إلا ما يكون من تغير إيقاعات أنفاس ، بتوالي انحرافات ومنعرجات على الطريق الجبلي ، مع سائق يبدو مستعجلا لكسب الوقت ، معجباً بمهارته ، أكثر منه منتبهاً أو آبها لحال ركابه ؛ وفي المقعد الأمامي عن يمين السائق ثنائي مغربي ، من رجل وامرأة ، يبدو واضحاً أنهما زوجان ، والرجل في وضع موال للسائق ، ما ينفك يغالب التمايلات المتتالية ، بمجهود واضح ليكون انحيازاً تجاه زوجه ، إلا في فجائيات تجعل السائق ينفض عنه ثقله ، بحركة كتف لا تخلو من خشونة ؛ كتلة ركاب متمايلة ملتحمة بكياناتها ، بقدر ما هي منفصلة متباعدة بخواطرها . . . أم هناك من ربط خواطر ما بين مغربي وإفريقي جنوب صحراوي؟ ما بين زوجين

متجاوريْ المقعد ، متعاشريْن على عهد وعقد؟ ما بين جنوب صحراوي ومثيله؟

يتعرج الطريق دون هوادة ، بدءاً من مشارف طنجة باتجاه الفنيدق ، عبر ممرات ملتوية مخترقاً عذرية طبيعة تمتد عن يمينه في سلسلة هضاب وقمم متوسطة ، تكسوها الأشجار الغابوية والصخور وألفاف الحشائش ، وعن شماله على نحو مباشر ، جرف حافات صخرية تتصارع متصادمة عند أقدامها أمواج المتوسط .

- أنا معك . . .ما عندي فين عليك . . . رجلي على رجلك

تؤكد صفية بقوة لا داعي لها ، بمناسبة وغير مناسبة ، كلما واتت الفرصة أو لم توات ، كأنما تشهد على نفسها قبل الغير ، في مشهد متكرر مع سامان ، عيناها محدقتان في عينيه ، ويداها على كتفيه لتكون أكثر مواجهة له ، منذ حلولها بطنجة وإقامتها المشتركة معه .

نعم ، رحلة سامان لحد الآن عالقة ، ليكن ذلك ؛ مؤجلة ، وليكن ذلك ، لكنها تبقى مع كل ذلك طي انتظار على الأقل ، أو على أسوأ تقدير ؛ أي أنها تبقى واردة ، مبرمجة ، في حكم المؤكدة حتى تحدث حين تحدث ؛ بينما هي صفية لحد الآن ، فيما هي فيه من وضع ، ليست على شيء ولا بيدها شيء ، حتى ولا قشة وعد كاذب ، تتمسك بها .

رجْلها على رجله . . هكذا تقول . . . لا فكاك لا هوادة ، وليس لها من طريق غير طريقه . يتحاشى سامان نظرتها ، وهو يزيح يديها عن كتفيه ، يأخذ كفيها بين يديه لحظة ، مزيحاً نظرتها عن مواجهته . طريقه هو؟ ليته كان سالكاً ، حتى ولو كان حالق انحدار ، أو شاهق عمودي ارتفاع ، ليكون على الأقل واضح استحالة أو إمكان ، مساعداً

على اختيار بتراجع مُخِل أو إقدام مُقِل ، لكنه طريق يلفُّه التباس وغموض في كل خطوة منه ، بلا نهاية ولا آخِر ؛ منتهى المنى أن تكون صفية معه بجانبه ، لا إلى حين ، ولكن أبد الدهر ، لو كان له فعلا طريق واضح أكيد ، وكان له اختيار ؛ إنما طريقه كالوهْم متصل ومتقطع .

هاهوذا يترك صفية ، منذ مغادرته الرباط إلى طنجة ، وبين يديه ذخيرة مالية مناسبة وافية ، كدَّ في لَمِّها كل الكدّ ، ليدبر ثمن الرحلة المضاعف إلى الضفة الأخرى ؛ بوتو هناك تنتظر خبراً سعيداً يصلها منبئاً بنجاح رحلته ، عملا بنصحها وإرشادها ، لكنه لأكثر من ثلاث مرات متتاليات ، في ظرف ما يناهز الشهرين ، تتأجل رحلته لسبب أو آخر . . . تتأجل رحلته؟ تتأجل؟ هذا رطب كلام ولسان ، يسوّقون به الوهْم لمشتريه وعشاقه ، وهو واحد منهم ، يعي ذلك جيداً ، ويعرفه حق المعرفة ، ولا يملك إلا أن ينصاع ، كالبقية من أمثاله .

والآن تصر صفية على أنها معه حيث يكون ، بأي وجه وأية وسيلة ؛ أكثر من ذلك ، تلمح إلى أنها لن تحرجه أو تثقله بعلاقة ما ، أكثر من ذلك تصرح بخشيتها أن يفهمها خطأ . . . لا ، إنما تنشد نسمة هواء ، بعيداً عن ضيق خانق أنفاس هنا . . . فقط لا غير .

لا . لم تفهمه تماماً ، يؤكد سامان ذلك لها ولنفسه ؛ صحيح ، لا يريد لها طريقاً ملتبساً كطريقه ، لا تبدو في حاجة مثله إلى ذلك ، ولا تستحقه ، وليست مضطرة لركوبه وصعوبته ، لكن ذلك كله ليس العائق الوحيد .

- يعني؟

تبدو مهتاجة أكثر منها متطلعة ، ماذا يريد أن يقول؟ أيخفي عنها شيئاً ، بعد كل ما بينهما؟ يشتد إمساك سامان على يديها بين يديه ،

مهدئاً من حالها ، ليحتويها بين ذراعيه . . . أمامه صعوبات ، أمامها ، أمامهما معاً صعوبات .

يمضي الطريق بركبه الملتحم في جوف التاكسي ، ممعناً في التواءات وتعرجات ، تبدو على إثرها بعض منازل متفرقة على اليمين الغابوي لاتجاه السيارة ، بينما تلوح على اليسار ، بين الحين والآخر ، لرؤية المسافر على الطريق ، وعبر الحافات الصخرية المطلة على البحر ، ساحاتٌ شاطئية مقوسة ، تظهر لتختفي متعاقبة متقطعة ؛ كما تظهر بين الحين والآخر ، شخوص منفردة أو مجمعة لعازمي سفر على هامش الطريق ، تشير للعربات السيارة ، بقصد الإركاب والنقل إلى مقاصدها ؛ بينما يمضي السائق في طريقه ، وقد استوفى كامل شحنته وزيادة ، غير عابئ بغير الإسراع وكسب الوقت ، عبر طريق يعرفه حق المعرفة ، وهو يرسل كما يتلقى باستمرار ، إشارات ضوئية متبادلة ، بينه وبين أمثاله من قاصدي الاتجاه المعاكس ، بما يعني خلو الطريق من خطر المراقبة أو عكس ذلك .

تبدأ وتيرة المنازل المتجاورة ، على يمين الطريق كما على يساره ، في التكاثر والتلاحم شيئاً فشيئاً ، مما ينبئ بمشارف تجمع سكني ، ما تلبث أن تشير إليه العلامات الإرشادية على جانب الطريق ، مسجلة المسافة الكيلومترية القصيرة المتبقية لولوج القصر الصغير ، المدينة الصغيرة المشكلة لملتقى طرق ومنطلق لاتجاهات مختلفة .

- احبسْ ليّا هْنا عافاك

الراكب المغربي إلى جوار الجنوب صحراوي في المقعد الخلفي ، وقد أدرك محطة وصوله ، يكرر طلب التوقف ، وهو يلمس كتف السائق بإلحاح ، ينحاز السائق إلى هامش الطريق ، يتوقف لينزلق الراكب ، وما

يكاد يطأ الأرض بقدمه ، حتى يتدافع أكثر من واحد ممن يقصدون السفر لاحتلال مقعده للمسافة المتبقية ، بينما يحاورهم السائق ، يختار الأبعد مقصداً من بينهم ، ليأخذ طريقه من جديد ، حيث تبدأ تظهر مرة بعد أخرى ، شخوص سائرة على جانب الطريق ، أو تدلف باتجاه الهضاب الغابوية ، أو تشير إلى السيارات العابرة بطلب الركوب ، يبدو من حركاتهم وسحناتهم أنهم من عالم طالبي الهجرة إلى الضفة الأخرى ، جلهم جنوب صحراويين ، يخالطهم البعض من جهات وجنسيات مختلفة ، عربية وآسيوية وغيرها .

- نو . نو . صفية

ينفي سامان خواطر صفية ، منذ حلولها في ضيافته بطنجة ، ينفي ما يمكن أن يجول ببالها حول مشاركته الرحلة ، وربما أيضاً حول إقامتها معه ، يؤكد ترحيبه بها ، لا يضايقه ذلك ، بالعكس تماماً ، هو سعيد بذلك ؛ والأمر لا يتعلق بعلاقتهما ، ولا بإحراج له من أي نوع ، إنما عليها أن تفهم أن الأجل المحتمل لرحلته يبقى قصيراً جداً ، لا يعرف مقداره ، لكنه أقصر من أن يتيح فرصة تدبير رحلتها معه ، كما أنه يتعذر عليه أن يفلت موعده ، إن حددوا له الرحلة ، وإلا سيخسر كل شيء . . . كل شيء . . . ماله وأمله ؛ ولتفرضْ معه أن خبر رحلته ، يحل بعد ساعة من الآن ، أو أن الموعد غداً أو بعد غد ، ما العمل؟ ثم . . . ثم المال؟

- ما تضرب حساب

المال لا يهم . ليس مشكلة ؛ ينظر إليها ملياً ، تؤكد بقوة نظرة ونبرة عزم ، أنها قادرة على توفير المال ، بل هو موفور لها .

- كاش مقدم؟ !

ترد بالإيجاب . كاش ومقدم . نعم . يطيل النظر إليها ، متفحصاً ملامحها ببعض ريب ، لا تحفل بما يُسرُّ في نفسه ، وإنما تمضي في تأكيدها ، تطمئنه إلى أنها تملك رصيداً مالياً ، وهو رهن إشارتها متى شاءت ؛ ينبهها إلى أنهم يتحركون بغاية الحذر ، سلوكهم مراقب ، وحتى لو لم يكن كذلك ، فهم يأخذونه في الاعتبار ، تلك أولى قواعد الرحلة في قانونها الأساسي غير المكتوب ولا الموقّع ؛ من هنا فالسحْب من الأبناك أيضاً مثير للشبهات .

- ما تخافش

تطمئنه مرة أخرى ، أن لا علاقة لها بالأبناك ؛ يقطب سامان بحيرة أشد ، إن كانت تعول على أصدقاء أو معارف ، فهذا مدعاة لذيوع السر وإفشال الرحلة من أساسها ، كما حدث ويحدث أكثر من مرة له ولغيره ؛ تحتد نظرة صفية ، لتؤكد في غضب أنها ليست صبية ، ولا هو بأشطر من في الكون .

ينحرف التاكسي بكتلته البشرية ، عبر منعرجين قصيرين متلاحقين ، ليصعد بعد ذلك في طريقه إلى استواء أرضي ، حيث تبدو معالم تجمع سكني صغير على الجانب الأيسر من الطريق ، بمحاذاة الحافات المشرفة على البحر ، أغلبها مسقوف بالقش ، أشبه ما تكون بمأوى موسمية لعابرين أو مرتحلين ، لتنجلي عما يوحي بقرية صيادين ، تتميز فيها معدات صيد بحري ، معلقة أو مطروحة في بعض جوانبها : شباك مكومة تبرز كُراتها فللينية سوداء ، أو مطاطية برتقالية ، لوحات انزلاق على الماء ، قصبات خيزرانية ، بِدلٌ مطاطية مدلاة الأطراف ، معلقة أو مبسوطة فوق الأسقف القشية ؛ بينما يرنو سامان إلى اليمين ، وعلى مسافة من تجمع قرية الصيادين ، حيث يبرز منفرداً مبنى

مستعرض من طابق واحد ، تمتد على واجهته البحرية سقيفة ، تبدو متفرقة في أرجائها مقاعد وطاولات ، على نحو من فضاء عمومي يمثل مقهى ، مطعماً ومقاماً لقاصد عابر ، أو لإقامة قصيرة ؛ وعلى أعلى الواجهة لوحة كبيرة تحمل بالخط العريض ، عبارة coin pêcheur .

يظل سامان عالق النظرة بالمكان ، يتابعه بالتفاتته وقد تجاوزته السيارة بمسافة محسوسة ، ليلمس صفية بحركة ، تستجيب لها على الفور لتخاطب السائق :

- احبسْ لنا هنا عافاك

يخفف السائق من سرعته ويلتزم هامش الطريق متوقفاً ، لتترجل صفية وسامان ، في نقطة لا تشي بأكثر من أن قصدهما الهضاب الغابوية المجاورة على اليمين ، أو أنهما ينحدران باتجاه البحر ؛ يظلان مجمدين في موقفهما فترة ، يتابعان التاكسي وهو ينطلق في اتجاهه ، حتى يغيب عن أنظارهما ، ليمسك سامان بيد صفية ، ويخطوان عكس وجهتهما الأصلية ، كما لو كانا يرجعان إلى الوراء ؛ فعلا ، يطمئنها سامان ، فقد تجاوزا مقصدهما قرب قرية الصيادين وهو coin pêcheur ، ولا يعني الأمر أكثر من التزام قاعدة الحذر ، في كل خطوة من حل أو ترحال ، مهما كانت قصيرة أو بسيطة .

يخطوان لفترة نحو الهدف ، ليتركها سامان على مبعدة ، متجهاً إلى المبنى ، بينما تبقى صفية لبعض خواطرها متوجسة من ألا تفلح ؛ ألا يفلح سامان في محاولته ، وهو لم يقتنع برأيها ، ولا أظهر تفاؤلا أو تساهلا ، على كثرة ما فتحت معه الموضوع ، وهو يؤكد لها باستمرار أنهم متشددون جداً ، هؤلاء المنظمون للرحلات ، متشددون إلى أقصى حد ، ومن هم؟ من يراهم ويعرفهم؟ وفوق كل ذلك ، الطلب كثير

متزايد على الرحلة . . . لكن . . . يعرض عليها إن حانت رحلته ، أن تبقى هي هنا في طنجة ، في عهدة بعض الأصدقاء ، ممن لابد أن يدبروا عن قريب أو بعيد ، سبيل رحلة ما ؛ وهو سامان بدوره من الضفة الأخرى حين يصل ، ومع بوتو من هناك أيضاً ، يبقى مع صفية على اتصال ، ولن يدخر جهداً أو يهدأ له بال ، قبل لحاقها به ؛ نعم نعم ، إنما على كل حال ، رحلته الحالية المؤجلة إن حلت في لحظة ما ونودي عليه ، فلا يمكنه إفلات موعدها إن أزف وتحقق .

تغوص صفية في خيبتها متذمرة ، مكفهرة الملامح ، تتجه إلى كل ركن في الغرفة ، تجمع أمتعتها في عزم على الرحيل ، يتحرك حولها سامان ، يهدئ من حالها ، لم تفهمه ، يؤكد لها أنها لم تفهمه ، خشيته أنه إذا ما حاول فتح موضوع رحلتها الآن ، لتكون ضمن رحلته المبرمجة منذ مدة طويلة ، أن يوجِد لهم عذراً للانقلاب عليه وإلغائه بالمرة ؛ الأمر ليس سهلا وهم موسوَسون حساسون ، لا يثقون بشيء أو أحد ، ووحدهم وحدهم فقط ، هم من يقرر ، لا غيرهم أبداً ومهما يكن .

في غاية صدمة وكآبة تبدو صفية . . . لا بأس ، يتلاين في موقفه سامان ، لا بأس ، سيحاول وبصحبتها وحضورها ، سيحاول وهي معه بجانبه لمعاينة الأمر ، يحاولان معاً ، ولا شيء مضمون ؛ يلمّح إلى المال وكيفية تدبيره بغاية السرية ، وبما يجب من قوة الحذر .

- كاش مقدم . . . موجود حاضر . . . كم؟

تؤكد جاهزيتها بالمال ، ولأكثر من مرة تسأله عن المبلغ المطلوب ، ليجيب بأنه لا يعرف بالضبط ، ولا يمكنه ذلك ، إنما المؤكد أنهم يبالغون دائماً ، وفي الحالات الخاصة . . . تطمئنه ، أن لا مشكلة في المبلغ ، نعم لها رصيدها تحت يدها متى شاءت ، بدون علم أحد غيرها ؛ يبدو

سامان مستزيداً ، لتسر إليه أنها منذ . . . منذ غادرت أهلها ، أفرغت حسابها البنكي بالكامل ، ألغته ، ولم تفتح أي حساب بعده ، حتى لا تُبقي لوجودها من أثر ، خزينتها المالية محمولة معها دائماً ، طي حمالات الصدر وجيوب تبانها المضاعفة لهذا الغرض ، وفي حالة الحلول واستقرار الإقامة ، توزع صفية كل ذلك ما بين جوف الوسادة ومضربة النوم و . . . و . . .

تظل صفية مسترجعة خواطرها في موقف انتظارها حيث تركها سامان ، عيناها مسمرتان على واجهة Coin pêcheur متوجسة خيبة المسعى ، تمر بها لحظات التوقع مديدة جوفاء بلا إيقاع ، إلا ما يملأ جوانحها من فراغ توجس وخواطر ؛ ليظهر آخر الأمر شبح سامان خارجاً من مدخل السقيفة ؛ متهيبة صفية في موقفها لكل احتمال ، لأقوى احتمال ، تتفرس في هيئة سامان من بعيد ، لن يبدي شيئاً على هذه المسافة ، عليه قبل ذلك أن يجد العبارات والصيغ ليبلغها . . . نعم ، وماذا عليها أن تتوقع؟ يتوقف سامان عند عتبة السقيفة قليلا ، لتراه مشيراً إليها بالقدوم تجاهه .

تقبل صفية تجاهه ، تكاد تقفز ، لا تحس من موقع لقدميها على الأرض ، يأخذ سامان بيدها ، يدلفان متجاوزيْن تحت السقيفة ، ليلجا بهو المبنى ، بمواجهة بار يحتل الصدارة ، يخطوان بين طاولات ومقاعد معدة في غير عناية واضحة ، لا تتناسب مع جاهزية المكان ، تشي بأن ارتياد الفضاء غير قار ولا آهل باستمرار ؛ يتجهان تواً صوب طاولة ركنية يجلس إليها شخص ، ما يكاد يتبينهما مقتربين حتى يقطب ويتحفز مجفلا ؛ يسرع سامان باتجاهه مهدئاً ، بينما تبدو ملامح الرجل النحيفة الدقيقة ، وقد اكتست غلالة توتر تتقلص لها عضلات وجهه ، وتتحرك

لها أطراف لحيته القصيرة المدببة بعناية فائقة

- نو . . . نو . . .

يكرر الرجل مستنكراً ، بينما يوشوش سامان كالهامس له بالتهدئة ، ليستعيد الرجل ظاهر سكينة ، لا ينبئ عن كامل ارتياح ؛ ليمضي سامان قدماً في مزيد من تليين الوضع ، كالفاهم المتفهم ، وهو يقدم الشخص على أنه المعلم طورنو منظم الرحلة .

- ما عندي بو رحلة ، ما نعرف رحلة ، آش راك تخربق انت؟

يبدي سامان كامل سعة صدره ، في تهدئة المعلم طورنو وطمأنته ، إلى أن الأمر جد وفي غاية السرية كما يعرف عنه ، وأن لا خوف من شيء ، هذه هي الصديقة التي حدثه عنها بلا زيادة ولا نقصان .

- . . . لكنها مغربية . . .

يقاطعه طورنو بحدة واستنكار ، إذ إنه لم يعلمه ، ولم يتفق معه ، على مهاجرة مغربية ، أبداً أبداً ولا يجوز ، الأمر مختلف ومعقد وخطير .

- لا . لا . لا خطورة ولا أي شيء .

يؤكد سامان أن هذه صديقة وهي موضع ثقة تامة ، لها ظروفها الخاصة . . . ربما يكون سامان ، لم ينتبه سابقاً إلى بعض التفاصيل حول صديقته هذه ، أو أغفلها آنذاك في حديثه للمعلم طورنو بخصوصها ، أو أن المعلم طورنو هو من لم يستوعب جيداً حديث سامان في الموضوع . . . الآن ، لا مشكلة ، أبداً أبداً . . . لا مشكلة ، لا خوف أبداً . . . أبداً . . .

يتهدأ طورنو بعض الشيء ، دون أن تفارقه ملامح التوجس ، ليشير إلى صفية

- وانتِ مالك انتِ؟

- ما ماليش

ترد صفية بجفاء ظاهر، غير مستجيبة لرغبته في تعرف قصتها وأحوالها، ينظر إليها طورنو ملياً، بينما يجلس سامان بهدوء على مقعد، ممسكاً بيد صفية لتجلس بدورها مثله؛ يسود الصمت لحظة، ليمد طورنو يده تجاه صفية، محركاً أصابعه الدقيقة بسرعة.

- معك لاكارت؟

تفتح صفية حقيبة يدها، تناوله بطاقة تعريفها، يتملاها ملياً، ليردها إلى صاحبتها في شبه اطمئنان، لا بأس، وينظر إلى سامان موضحاً أنه سيدبر الأمر؛ لكن سامان يعني أن تكون صفية رفيقته في رحلته المنتظرة.

لا. الأمر صعب، يؤكد طورنو، عليها انتظار الدور في رحلة أخرى، أنت تعرف... طبعاً سامان يعرف، لكنه هنا معها، مستعدان لكل شيء، من أجل أن تتم الرحلة معه، في القريب الأقرب، معه رجْلا لرجْل كتفاً لكتف.

ينكس طورنو رأسه، موئساً بأنه في هذه الحال، لا يملك شيئاً، لا يقدر على شئ؛ يبدو سامان غير مسلِّم ولا مستسلم للأمر، يلمّح إلى أنهم جاهزون للمطلوب، وما عليه إلا بذل غاية الجهد؛ يحرك طورنو رأسه يميناً وشمالا... ممكن... لكن بعيد وصعب، ممكن... إذا كان هناك من متخلف عن رحلته أو...

- كومبيان؟

يسأل سامان قافزاً إلى المساومة عن المبلغ، يزم طورنو شفتيه مقطباً متردداً، مداعباً بين الحين والآخر، أطراف لحيته القصيرة المدببة، يلح

سامان في الطلب ، مؤكداً أنهم جاهزون . . . ليحرك طورنو أصبعي يديه الاثنين ، الوسطى والإبهام معاً ، حركات متوالية يما يعني اثنين ، ليهتف سامان مهتزاً من مقعده ، مستعظماً المبلغ ومستنكراً . . . لا يمكن ، مليونان ، غير معقول أبداً ، لا يمكن ؛ يبدي طورنو علامة أسف وعجز عن أية مساعدة ، مع حركة تنبئ وكأن الموضوع منته ، بينما تبدو صفية كالمتململة تتلمس جوانبها لتستأذن لحظة تغيب لطارئ ، يشير طورنو بيده إلى ركن قصي ، حيث كيان شخص مسمر في ركنية ، لا يثير انتباهاً ، تقوم صفية باتجاه الشخص ، تتبع خطواته عبر ممر يجانب البار ، يتجاوزه إلى الوراء ، ليسلمها إلى جناح الحمامات .

يبدو سامان في هيئة يائس من زحزحة صاحبه ، عن مبلغ مالي يبدو بكل المقاييس مبالغاً فيه ، حتى لينقطع بينهما الحديث ، ويبدوان معاً متحفزين للوقوف وإنهاء اللقاء ، في الوقت الذي تعود صفية لجلستها حيث كانت من قبل ، وتتكئ بمرفقها على الطاولة بغاية هدوء ، وهي تضع عليها بحركة مفاجئة ، كومة أوراق مالية ، موجهة خطابها إلى المعلم طورنو :

- احسبْ رزقك . . .

بانشداه يرنو الرجل إلى رزم الأوراق المالية ، يمد يده يتناولها ، يمررها عداً بين يديه . . . تمام . . . لا بأس . . . ترتخي ملامحه مستعيداً من هدوئه ، وهو ينادي بإشارته صاحبه المسمر في ركنيته المعلومة ، ليتقدم هذا نحو مجلسهم بكل تؤدة ، مُبيناً عن متانة بنية جسدية ، يأمره طورنو ، بما يفهمه مشيراً إلى صفية وسامان ، قائلا :

- ضيوفك

ينحني الرجل تجاه صفية وسامان ، بصرامة ملامح لا تبين عن

بسمة إرادية أو مفتعلة منه ، يسألهما عما يشربان ؛ يطلب سامان بيرة ، تتردد صفية ليستبقها طورنو ، طالباً بيرة له أيضاً ، وعصيراً لها ؛ ينصرف الرجل لإحضار الطلبات ، يومئ سامان لصفية ، فتسحب من محفظتها غلافاً صغيراً ، تقدمه لطورنو ، يتناوله ويستخرج منه صوراً شخصية لها ، يتأملها قليلا ، ليسألها عن الاسم . . . لها أن تُبقي اسمها الأصلي كما هو مع الجنسية ، أو تختار ما تشاء ؛ لا تبدي صفية اهتماماً بالموضوع ، ليؤكد سامان أن المهم هو صدقية الأوراق : أي اسم ، أي جنسية مناسبة ، لا يهم ؛ يؤكد طورنو أنهم يعرفون شغلهم . . . إذن؟ إذن . . .

فترة صمت قصيرة يوضح فيها سامان أنه يعني أن الموضوع منته . . . منته؟ يحرك طورنو رأسه بما يعني شيئاً ما . . . يعني؟ الجواز والتأشيرة بختم من لاس بالماس . . . ومالها التاشيرة والجواز؟ يشير طورنو بحركة وتلميح ، إلى أن ثمن ذلك يبقى خارج المبلغ المسبق ؛ يبدو سامان في غاية استفزاز ، يوشك أن ينتفض ، تمسك به صفية متسائلة عن الثمن ، يشير طورنو بسبابته إشارة النصف . . . يعني نصف مليون ، يحتد سامان أكثر . . . لا . . . كثير كثير . . . لتنحني صفية على محفظتها ، تضع المبلغ المطلوب . . . انتهينا . . . انتهينا . . .

يخف مناخ الجلسة ، يدور الحديث ودياً بينهم ، يؤكد طورنو من خلاله ما يعرفه سامان مسبقاً ، من أنها رحلة غير عادية ، سياحية بمعنى الكلمة بكل متطلباتها ، تأشيرة مع طابع خروج على الجواز من لاس بالماس . . .

يعود الرجل بصحن المطلوب مع مكسرات ، يضع العصير لصفية ،

بينما يوزع زجاجات البيرة عليهم ، ساحباً لنفسه مقعداً يشاركهم الجلسة ، ليبادر طورنو يقدمه لهم باسمه أنه عرّوض الربان ، قائد رحلتهم ، أمهر من عرفه البحر ، ومن سلالة بحارة حقيقيين يتوارثونها أباً عن جد ؛ لا من أبناء المدارس والكنانيش ودبلومات الزعتر اليوم ، ما تفتأ أول ريح تصادفهم ، بعيداً عن أية عاصفة هوجاء ، أو عطل ميكانيكي بسيط يطرأ ، حتى تنفضح سريرتهم ، لا يفقهون شيئاً في البحرية ، ولا هم قادرون على شيء .

- المهم الأمان والسلامة

تعلق صفية على كلامه ، ليلتقطها طورنو مؤكداً كل الضمانات ، وليشير إلى عرّوض إشارة خاصة ، يميل هذا على إثرها ، بحيث يصبح قريباً من منتصف ما بين صفية وسامان ، فاتحاً شاشة هاتفه المحمول ، على مشهد فيديو يريهما إياه . . . تبدو على الشاشة الصغيرة سفينة سياحية : ميد كروز ، رابضة في عرض اليم ، يتدلى منها سلم مرن مثبت إلى قارب على سطح الماء ، يقف على رأسه ممسكاً به شخص عرّوض ، بينما يتحرك متسلقاً درجاته ، مستقلو القارب إلى جوف السفينة .

تتابع صفية وسامان ببالغ قلق واهتمام ، مشاهد العبور الآمن إلى السفينة الراسية في عرض اليم ، يتابعان خطوات العابرين على السلم المعدني المرن ، وأيديهم المتشبثة بقضيبي الحاجزين على الجانبين ؛ تبدو حركة العبور ، متأرجحة بعض الشيء ، بكيانات العابرين ، تبعاً لتململ السلم مع حركتهم ، لكن لا شيء ينبئ عن خطر أو معالم توتر على الوجوه ؛ ربما العكس هو الصحيح ، لتبدو مرتسمة على السحنات ، مسحة تريث وهدوء ، كأنما تعكس ما يعمر الدواخل من أحاسيس أمان

وطمأنينة ، مادامت رحلتهم تتجسد أخيراً حقيقة راهنة ، بلا وهم ولا توهيم .

تتتابع حركة العابرين إلى قلب ميد كروز حتى النهاية ، دون أن يتوقف صوت طورنو عن التعليق المصاحب ، ليضيف في الآخر ، بلهجة محببة ، مؤكداً ما فوق كل ذلك ، وهو أن عرّوض هذا يستطيع أن يحمل اثنين على كتفيه ، سابحاً بهما إلى الضفة الأخرى ؛ يفتر عن ضحكة مقتضبة ، يستأنف بعدها أنه لا يبالغ ، وهو يشير إلى عرّوض ، ليحكي إحدى عجائب مغامراته البحرية ، أو عن صناديد أجداده .

يبدو عرّوض في غاية انتشاء مما يسمع ، من إطراء معلمه ، بينما يستأنف طورنو من ذاته ، متحدثاً عن بعض مغامرات البحارة الأصلاء ، وحسن بلائهم عند الشدائد .

مجموعات صغيرة تتسلل بكامل الحيطة والحذر ، تتعرج بين ممرات صخرية منحدرة صوب البحر ، لتأخذ مكانها بمجرد ما تلمس البسيطة ، متلبسة بالجدران الصخرية ، أو محشوة بين ما تصادفه من شبه جيوب ، نقرات أو ثغرات في الثنايا الصخرية ، متخفية زيادة على ما تتيحه ظلمة منتصف ليل أو بُعيده من تخف ؛ مجموعات محدودة العدد تترى متقاطرة في تمام صمت ، تعزز من ثقله حركات مرشد يتقدم كل مجموعة ، ما يفتأ يمد يده لمن خلفه بشد أصابع يده ، أو بحركة لمس خفيف وإشارة حذر تُحَس ولا تُرى ، حركة أيد رابطة لخط المجموعات المتقاطرة على دفعات ، ملء خواطرها توجس وترقب .

يشكل سامان وصفية حلقة في سلسلة من المنحدرين ، يتقدمهما بعض ويتلوهما بعض آخر ، ليصدر مرشدهم إشارته وأقدامهم تقف على حصى الشاطئ الرملي ، بأن يلتزموا الجدران والتخفي كغيرهم ، بينما يغيب هو كغيره من مرشدي كل مجموعة ، كما لو أن مهمتهم تنتهي بذلك ، أو ليعيدوا الكرة مع مجموعات أخرى .

لا أحد يملك تفاصيل ما يجري في الزمان والمكان ، مع عمق إحساس بغاية البطء والتثاقل ، لا أحد يتحدث بشيء إلا لنفسه ، وإنما تيارات أفكار وخواطر ، ملؤها خوف وإشفاق ومجاهيل اللحظات المتلاحقة خارج إيقاعها المعتاد ؛ كل ما تملك من أمرك ، أنك كنت طعم انتظار طويل مرير ، نهش هواجس ومخاوف عما دفعت من مردود عرق جهد وجبين ، دون أن تعرف مخاطباً حقيقياً أو مسؤولا ، ليصلك

في نهاية الأمر ، على الهواء عبر الهاتف ، صوت يحدد اللقاء دون أية معلومة إضافية ، بل ينهي المكالمة بمجرد أن يلفظ جملته في سمعك ؛ وعند نقطة اللقـــاء وأنت واقف منتظراً في الظلام ، على طريق المنعرجات والالتواءات ، لمدة لا تحددها ولا تفكر في ذلك قطعاً ، يبرز لك من خلف أو يمين أو شمال ، حيث تمتد ألفاف حشائش ودغل أشجار غابوية ، أو من أمام حيث قمم صخور مسننة ، شبحٌ قاصد مرشد ، يشير عليك لتتبعه إلى مختبأ نباتي أو صخري ، حيث تجد غيرك ينتظر كما يلحق بكم غيركم بدوره وينتظر ، لتتشكل مجموعة معدودة ، ما تلبث أن تنحدر وراء مرشدها صوب الماء .

إشارات يدوية تتحرك في الظلام ، لبضعة هياكل آدمية ، من ثلاثة أو أربعة ، تقف متباعدة على امتداد حصباء الشاطئ الرملي ، بين ارتفاع الجدار الصخري وحافة الماء ، تشير بتلويح أيد وتحريك أذرع في الفضاء ، كمن يجذب أو يدفع ، لتتحرك تبعاً لذلك ، مجموعات متفرقة صغيرة لأشباح المجموعات المتخفية ، كأنما ينفلق عنها الصخر الجبلي الرابض ، متحركة باتجاه الإشارة ، مسرعة الخطى ، بانحناء قامات يشي بمنتهى تلصص وحذر ، كأنما تود لو بوسعها الالتحام بالأرض ، زيادة في التخفي .

على بعد أمتار من حافة التحام الشاطئ والبحر ، يربض متمايلا برفق ، قارب مطاطي مشدود إلى موقعه بثقالة مدلاة من أحد جوانبه ، ينتصب في منتصفه شخص عرّوض في كامل تأهب ، يبدو هيكله وقد ازداد جرماً وامتداداً ، متميزة دكنته في مزيج غبش ليلي ومسحة من ضباب .

تخوض الأقدام حتى الركب وما فوق ، خبط عشواء في ضحل

الماء ، باتجاه القارب المتهدهد في موقعه على صفحة يمية ساحلية ، حركة أفراد يبدون من مظاهرهم أشباحاً متشابهة في كل شيء ، لا تمييز بينهم في تداخل غبش ضبابي وظلام ، رغم المعلوم الضروري من تفاوت بينهم ، من فوارق أجسام وأعمار ، إلا ما يشي بوجود بضع نساء وبأطفال بينهم محمولين كيفما اتفق .

تتسارع الأقدام ملخبطة في الماء ، تلتم حول القارب من الجوانب كافة ، يعملون على ارتقاء حافاته المطاطية الدولابية المرتفعة وتجاوزها بالتشبث ، وبالتسلق ومدافعة الانزلاق على تكور سطحها وملاسته المضاعفة بهدهدة القارب ورطوبة الماء ، مع جهود المساعدة بالجذب والدفع من بعض لبعض ، ومن عرّوض المنتصب المتأهب وسط القارب ، لمد يد العون لكل من يطاله جهده ويده ، عاملا في الآن نفسه على ترتيب مواقع الوافدين ، على وصلات خشبية ممدودة للقعود بلا فواصل أو متكآت ، بحيث يكون من شأنها ، أن تتيح لمّ أكبر عدد ممكن بالتزاحم صفوفاً منتظمة ، لا تمنع من تقبل أعداد أخرى وأكثر ، تملأ فراغات ما بين صف وآخر ، جلوساً دون مقاعد ، ووقوفاً إن اقتضى الحال ، بالتزاحم صفوفاً منتظمة متوازية ؛ عشوائيةُ تَسابُقٍ ، لا تفيد معها همسات التزام الصمت المهيمن أصلا ، ليقطعه بين حينٍ وآخر ، صوت انزلاق كتلة بشرية متساقطة في الماء ، لرجل أو امرأة سرعان ما يستدرك حاله ، منتفضاً متشبثاً من جديد ، تسعفه أيدي من يصل ولا يصل .

– سسسست . . .

مرة بعد أخرى ، ينخرس بلا رحمة قبل انفلاته ، صوت لصغير أو رضيع ، صبية أو صبي ، بفعل صدمة أو زحمة ، دون أدنى تأثير على

السير المتواكب للحركة العشوائية الدؤوب في التشبث والتمسك والتراص على الوصلات الخشبية ، لمن يتاح لهم ذلك ، بينما يتقرفص أو يتربع أو ينكمش في ذاته على ذاته بكيفية ما ، بين صفوف الوصلات الخشبية عند أقدام الجلوس ، من لا يجد فسحة لغير ذلك ، دون بعض ذوي الهمم ، ممن يستحلون الركون بمؤخراتهم على دورة الحافات الدولابية المطاطية لهيكل القارب ؛ لكن الشخص المنتصب وهو يتخذ سمة الآمر ، سرعان ما يردعهم عن ذلك ، مشيراً إلى ضرورة الانكفاء إلى مستوى القعود .

لم يحظ سامان بالجلوس ، أو بالأحرى أنه دفع بصفية لتسبقه ، بينما استمر هو مع آخرين في مساعدة غيره ، بينهم بضع نسوة ، منهن واحدة ظاهرة الحمل ، وأخرى تبدو مرضعاً ، وغيرهما متعلقة بطفلين على الأقل ، لا مجال هنا والآن ، لاعتبار زوجية أو علاقة أو رفقة لهذا أو لتلك ، العملية محشرية بكل المعاني والمقاييس ، كل لنفسه وبنفسه ولو إلى حين ؛ نعم ، لو كان المجال يسمح ، رغم طبيعة الظرف وما يجري ، لربما تعالتْ أصوات متنادية فيما بينها ، منبهة محذرة أو محبذة مشجعة ، متقاربة أو متباعدة ، لكن السرعة المطلوبة وآمر الإحكام والصمت المطلق ، ما كان ليتيح لأحد أكثر من أن يعمل لنفسه بنفسه أو بغيره ، بغاية صمت وانكتام ، دون التفات لآهة ألم أو إحساس بعسف ، ولا حتى أدنى اعتبار لرد فعل على مساعدة ، بعبارة شكر أو مجاملة ؛ اللحظات مفرغة من إيقاع الزمن مبناه ومعناه ، مترعة بالذات وبالمكان ولا شيء غير ذلك : أنا أين؟ أين أكون؟

في لحظة ما ، والذات تظفر بموقع لها في المكان ، مهما يكن من فسحة وضيق ، على مقعدٍ ظهْر القارب أو غور قعره حتى بدون أمان ولا

استقرار ، إلا الشعور بموطئ بال في المكان ، يمكنها إذ ذاك التطلع ، بل يملكها دافع التعرف ، لتلتفت بكيفية ما ، في تمام التزام بأمر الإحكام والانكتام ، لمن كان العشير أو الرفيق . . . أين هو؟ يتم ذلك بلا عبارة ولا حتى إشارة ، وبدن أدنى استعداد لاحتجاج أو لجاج .

- سسسست

لم يكن الأمر هنا ، بداعي إخراس حس طفل متألم أو رضيع متقلب ، ولا بصادر عن أم ولا عن والد أو ولي ؛ وإنما هو آمر عرّوض ، ينهي صوت سلطته لتمام الصمت في الصمت ، أن لا حركة ولا نأمة ، والرحلة ستبدأ .

تبدو على أطراف القارب المتهدهد في موقعه ، على إيقاع حركة مدّ بحري وليد متزايد ، هياكل المرشدين ، خائضين في مياه ما يفتأ عمقها يرتفع حول قاماتهم ، ممسكين بالحوافي الدولابية للقارب ، وقد استوى كل شيء كما يجب ، وهم يراجعون عدد الزبائن ، حتى إذا اطمأنوا إلى اكتمال مأموريتهم ، أشاروا ملوحين بأيديهم إشارة التمام ، ليستديروا مولين مبتعدين .

- على بركة الله

يستوي الربان عرّوض على مقعد القيادة ، يشغّل المحرك مسوياً لحركته وطاقته على أدنى حد ، ممسكاً بدفة التوجيه ، لينطلق القارب بتمام هدوء ، منزلقاً برفق على صفحة الماء ، مبتعداً شيئاً فشيئاً وبأناة بالغة ، عن موقعه حيث المرشدون مولّين ومتوقفين ، يرقبون ويتابعون بانشغال ناظر وخاطر ، إقلاع الرحلة ، وحيث يظلون كذلك ، حتى تغيب دكنة هياكلهم ، فيما يغلف الفضاء حولهم من غبش ظلمة وضباب ؛ وبقدر ما يتقدم القارب متمهلا في حركة انزلاقه على الماء ،

بقدر ما يبدو القائد عرّوض عارفاً خبيراً بتضاريس المكان، في ثغر بحري غير ميسر بطبيعته لإرساء أو إبحار، وهو بذلك الأصلح دون غيره، والأسلم لما يقوم به عرّوض باتجاه الضفة الأخرى.

يقود عرّوض بتمام روية وهدوء، في غير استقامة من خط سير، منحرفاً متعرجاً بين حين وآخر، فيما يبدو تفادياً منه، لعوائق صخرية بارزة، أو نتوءات سطحية خفية تحت الماء، هو وحده عرّوض وأمثاله من يعرفها ويقدر مواقعها، حتى ليجعله ذلك، يبدو أحياناً، وكأنه لا يبارح موقعه بالقارب، بقدر ما يدور حول نفسه في منحنيات شبه حلزونية تستعرض وتستضيق، دون أن تشي بمحسوس ابتعاد عن نقطة انطلاق، أو مسافة توغل ملموسة في عرض اليم.

يستمر الحال لفترة تتعاقب لحظاتها مديدة ثقيلة، تستغرق جهد الربان عرّوض في المرونة والمناورة، حتى يسلس له السبيل أخيراً، تنبئ عن ذلك استقامة وجهة القيدوم، وهزات القارب في تفاعل سرعته مع سطح الماء، تُستشعر أحياناً كقفز متسارع، مع حدّة صوت المحرك التي تكتسي أزيزاً منتظماً، ينساب أغرودة أمن وطمأنينة في النفوس، لعلها تنعكس ارتخاء وإحساساً في الأجساد، وارتياحاً في هيئة الربان نفسه، قائد الرحلة الذي يبدو مجتازاً بنجاح، لمرحلة اختبار غير سهلة ولا يسيرة.

لا أحد منهم رغم الدلائل والتأكيد، كان بإمكانه أن يملك اليقين أو يتملكه يقين بتمام النجاح، بوصول هذه المرحلة على الأقل؛ كل مرحلة سابقة مهما قصرت وتبسطت، أو استطالت وتعقدت، تبدو مستقلة عن اللاحق والسابق؛ بدءاً بموقفك وأنت تساوم ما تساوم في الثمن المطلوب مقابل الرحلة، بأية كيفية مهما صعبت، بأية وسيلة

مهما ساءت وتعسرت، لأي تاريخ مهما تمدد واستطال، وتؤدي نظير ذلك ما تؤدي، حتى لينعقد لك موعد الرحلة، ويتحدد التاريخ بالساعة والدقيقة، لكنك ما تلبث أن تُبلَّغ في تمام الأوج من تشوق وتمام استعداد، وفي آخر رمق من عمر انتظارك، ليقال إنها لن تتم. نعم؟ لن تكون الرحلة الموعودة، لن تتم...

- ؟

لا جواب يشفي، ربما وسيلة النقل غيرت أو تغيرت، ربما المدبرون، تلك الرؤوس الكبيرة التي لا تظهر ولا ترى، ربما السماسرة والوسطاء، ربما ... ربما... نعم لا تملك إلا أن تقبل، أنت الأفاقي الإفريقي الجنوب صحراوي، في مهزوز إقامتك غير الشرعية أو حتى الشرعية القانونية في بلد عبور، لا تملك مورد رزق قار، ولا سكن إقامة ميسر، بلا أسرة، مغترباً عن أسرة، معيلا لأسرة عن بعد، أنت الذي امتلكت بكيفية ما، شبه مورد متقشف متكسر بلا انتظام في بلد العبور، وانفصمت عنه الآن برضاك، مطمئناً إلى أيام معدودة فاصلة عن الموعد المحدد بالساعة والدقيقة لانطلاق رحلتك، لتمر بأيام تفرُّغ ضرورية يجب الاختفاء أثناءها عن الأنظار، والتحلي عبرها ببالغ التخفي والتكتم عن توجهك وحركاتك، والتواجد بمكان يُعيّن لك، في مكامن قصية تمكث بها إلى حين، ولفترة لازمة للتأكد لمن يعنيهم الأمر من المدبرين المجهولين وغيرهم من المعلومين، بخلاء خط سيرهم ورسم خططهم، من أثر التتبع والمتابعة لأي شأن من شؤونهم أولا، ولزبنائهم أولا كذلك، من طرف أي كان... كل هذا ليقال لك في تمام اللحظة الأخيرة من عدة واستعداد... لم... ولن...

هي لعبة؟ نعم، أنت تعرف ذلك ولك أن تتأكد منه، لأنها لا

تحصل لك مرة واحدة، وإنما أنت وحظك . . . تدرك أنها لعبة حقاً، لتصل إلى أن المبلغ المطلوب مقابل الرحلة قد ارتفع ويرتفع، وعليك أن تضيف . . . نعم؟ تحاول أن تُفعّل شطارتك، أليست لعبة مقيتة استغلالية؟ نعم. إذن تركب بدورك شطارتك، لتظهر لمحاورك المساوم أنك لا تقبل، فقد تم الاتفاق والأداء المقدم، ولم يبق إلا الوفاء. إذن أنت لا ترضى بهذا، وربما تصدر عنك نأمة خفية مقصودة، معناها أنك . . . أنك . . . ربما تفكر في حل آخر؛ قصدك بطبيعة الحال، أن تجر الخصم إلى ملعبك، توقعه في حبائل لعبتك . . .

- مالك يرجع لك!

يصيبك في مقتل؛ آه، يرسلها طلقة سامة في وجهك؛ ماذا، يرجع لك ما دفعت من مال؟ أتبدأ من جديد؟ مع من، وكيف؟ الآن أنت في موقع ضعف، وكنت بصدد أن تصنع لك موقع قوة؛ يفتش صاحبك في جيبه كمن يهم بأن يرد لك مالك الآن؛ أنت لا تصدق حركته طبعاً، لأنه لا يمكن أن يحمل معه وعلى الصدفة، مبلغاً هاماً بالقدر الذي دفعته، تدرك أنها منه مجرد حركة مفتعلة، أقل من خيط رفيع في نسيج اللعبة المعقد، أوْ هي من ذؤابة أكسسوارية، في مشهد من مسرحية متكاملة . . . لكن، لا تملك إلا أن تقع بمنتهى إدراك منك في اللعبة، راضياً، موهماً أنك مصدق لكل شيء، واثق من كل شيء . . . آه. الثقة؟ هذا شيء آخر، يفاجئك الأمر الآن، كما يحدث حيناً بعد حين، في كل المراحل بلا ترتيب أو ترقب منك؛ إنما عند كل مقطع من مشاهد اللعبة، تفاجأ بمن يصرخ فيك: إن كنت لا تثق . . . آه. وينصبُّ على قدْرك المتضائل سيل الأخلاقيات: عندما تنعدم الثقة بين طرفين، فلا مجال لأي شيء . . . هنا معنا - يعني

معهم ، ومن هم؟ - لا نعبث ، لا مجال للعب ، هنا ، معنا : الثقة والأمان والكلمة الشرف ؛ إذن ماذا تملك غير أن تظهر التساؤل عن المبلغ الإضافي المطلوب ، بعد تأجيل أو حذف الرحلة التي كانت موعودة محددة بالساعة والدقيقة ، مجرد تظاهر منك بالمساومة ، بما يعني أنك تقبل المبدأ المفروض عليك ، طبعاً لعبتك متهافتة مكشوفة ، ولصالح خصمك أكثر منها لصالحك أنت ، وهو يفهم ذلك ، ليبدي رأفة بك ، ويلفظ المبلغ الإضافي المطلوب .

ألف تعجب نافر من أعماقك ، أكثر من استعظام للمبلغ يملؤك ، أقوى من عامل استفزاز وابتزاز يهزك ، لكنك لا تملك إلا أن تهتز في داخلك متبرماً من وجهة الأمر لغير ما تريد ، وتطلب أجلا لإحضار إضافي المبلغ المطلوب ، تحت طائلة تحذيرات متوالية منه ومنك فيك : إذا لم تحضر المبلغ يضيع منك كل شيء ؛ وبقدر ما تسرع ، بقدر ما يتقوى حظك في الرحلة الأقرب والأحسن والأكثر أمناً وضماناً .

يزداد اهتزاز القارب في سرعة تجعل انزلاقه على الماء ، بين حين وآخر ، قفزات حقيقية في الفراغ ، يغذيها بين الفينة والأخرى ، عنفوان موجات متعالية مشكّلة مرتفعات منحدرات ، يستشعرها الراكب شماء قمم هوائية تصعيداً وسحيق أغوار يمّية تساقطاً ، مما تترامى معه الأجساد عن مواقعها ، متماسكة بعضها مع بعض ، متراكمة بعضها على بعض ، مقرونة بردود فعل آنية ، بعضها صوتي ، آهات وتأوهات ، لا تؤلم حقاً ، بقدر ما ترعب رغم شدة الألم ؛ وبعضها الآخر حشوي ، من مراودات غثيانية ، سعالية ، عضلية ، يتخللها ثغاء صبية يضيع في الهدير اليمّي الشامل .

أهم من كل ما يمكن أن يؤلم أو يزعج ، أن الرحلة ماضية في

طريقها ، وكل لحظة تحل لتمر ، هي خيط تقريب جاذب مقرب للهدف ، ودافع باتجاهه ؛ مرحباً بها لحظات بمذاقاتها غير المسبوقة ولا المعهودة ، ناعمة مريحة بنكهة ملوحة سائغة ، يرشها على الوجوه والأبدان ، خفيف رذاذ مبلل متطاير ، بحركية موج وانسياب قارب .

في أوج مسار ، عنفوان ارتحال واقتحام ، يبدو الربان عرّوض منتصباً مقدوداً من موقع قدره المقدور ، ممسكاً بيد ملاح خبير ، دفة القيادة والتوجيه ، يرنو بعين وأذن متحسسة ، مقدراً ما يجري في القارب وبين ركابه ، دون تبين أو تحديد ، ممتلئاً كلية باسترسال أزيز آلي متضافر مع تلاطم أمواج تترى متتابعة في انتظام ، يخرق عرضَها واحدة تلو أخرى ، قاطعُ قيدوم القارب منزلقاً متقافزاً على سطح الماء ، ما تلبث التواءاتها اليمّية أن تنصرف زبداً متراقصاً حوله ، وذيلا تابعاً يرسم مساره إلى حين ، حتى يُرتق عرضها الموجي من جديد ، مستأنفة خطها الأزلي المرسوم نحو الشاطئ ، بينما القارب يمضي في مساره عكس اتجاهها ، خارقاً قاطعاً منزلقاً في استقامة سهم ، صوب الأعالي البحرية .

ينساب القارب ، أزيزه المتواتر ملء أسماع وقلوب ، تتوالد في جوفه ، بين راكبيه ، بعض ألفة ، سرعان ما تسري همهمات متبادلة ، لتنبعث أحاديث متقاطعة ، لا تبين عن ملامح محددة مميزة لأصحابها ، تتداخل فيها أصوات ولغات ، توحي بتنوع جنسيات وبلدان ، بينها لهجات إفريقية غالبة .

ألفة يبدو أنها تتخلق بقدر ما يمعن القارب في سلاسة انطلاقه الآلي ، معربة عما يتولد في النفوس من أمن وثقة مستعادة ، ومن تآلف مع المسار يدعو لتفقد رفقة وأحبة ، بدافع حاجة طمأنينة واستئناس

كانت سرعان ما توارتْ غوراً ، مختفية خلف ركام الهواجس والمخاوف ، لتعيد دورتها الآن بعثاً من جديد ، مع طفح المشاعر بالأمن والأمان .

يبدو الربان عرّوض رغم علمه بكل شيء من حوله ، غير عابئ ، بشئ مما يحيط به عدا ما هو له من قيادة باتجاه الهدف ؛ لا حاجة لإيلاء اهتمام لما يجري في جوف القارب ، لا ضير في ذلك ولا ضرر الآن ، في انبعاث أية حركات وأصوات : أزيز محرك القارب ، مع الهدير الموجي المتلاطم من حوله ، في فسيح فضاء ، كل ذلك من شأنه ، أن يمتص كل الأصوات حتى الضجة والصياح ؛ ولا خوف من إثارة انتباه بعد الآن ، من تلك الأعين المنصوبة الرقيبة ، مادام القارب في هذه المرحلة على استقامة خطه ، مع ما قطعه نحو نقطة لقاء معلومة موعودة في عرض ظلام وزرقة يم .

يبدو ببعض زحزحة وتحرك في جوف القارب ، أن سامان يقترب من موقع صفية في ضيق جلستها مع الغير على الوصلات الخشبية المصفوفة ، اقتراب بعيد عن التجاور والتماس ، لكنه يتيح فرصة مد اليد تجاه صفية ، ليبلغ يدها الممدودة تجاهه أيضاً ، كأنما ينقل كل منهما لصاحبه مشاعر سكينة وأمان ؛ لا بأس ، الخواطر الآن تشمل الجميع ، بما تسعه من صور وألوان متداخلة ، لا تخلو من فاتحة وناضرة ؛ لا أحد منهم يتصور نزوله بالبر في الضفة الشمالية ، ليجده مفروشاً تمام التمام بالورود ، ومن أول خطوة ؛ لا ، فالحكايا متواترة ، والصور واضحة في الخاطر رغم تغمم معالمها وألوانها ، عن تعقد بدايات التوافق الأولى مع الوسط الأوربي الجديد ، صعوبات من كل نوع ، عوائق التآلف والتوافق ، من جهة المهاجر الوافد في معاناته المتجددة ، ومن جهة ما يحمله الوسط الجديد ، بعض أفراده وجماعاته على الأقل ، من مشاعر

ميز تبلغ حد العنصرية ، وأيضاً من فئة المهاجرين الوافدين أنفسهم ، ضد بعضهم البعض ، بما يخلقونه من تنافسيةِ وبالٍ عليهم ، مع ما يشعر به المهاجرون الأقدمون المستقرون من أفضلية قياساً بالوافدين الجدد ، ليمارسوا مزايا أفضليتهم على أبناء جلدتهم ، من هؤلاء القادمين الجدد غير الشرعيين .

كم تترادف الصور في الخواطر متداخلة متراكمة ؛ هناك بالأساس ضرورة الشغل خارج المشروعية ، وما يقوم عليه من استغلال وابتزاز ، يضاف إلى ذلك السكن الجمعي أو الحشري بأصح تعبير ، وما إلى ذلك كله من توابع وزوابع .

تتفتح صفية ، تفتح حواسها ، على أقصى طاقتها ، حتى أدق وأرق ما فيها لاستقبال فضاء البحر ، لا نسيمه وهواءه ، وإنما الأكثر الأقوى ، ريحه المضاعفة بحركة الموج وسرعة انسياب الزورق على سطحه ؛ تتفتح عن إحساس عميق بأمن وارتياح ، لم تنعم به في يوم سابق من أيامها ، حيث لا تصحو أو تنام ، لا تخطو أو تلتفت ، إلا على توقع شيء مجهول مباغت متربص ، لا تدري كيف ومتى يضرب ؛ هو البحر إذن دواء علتها ، ولم تكن تعلم ، هو البحر في ذاته لا لغاية وراءه ، حتى وإن كانت وتحققت غاية ما ؛ لو تُسأل الآن صفية بصدق عن رغبتها ، وهي في أحضان البحر ، بين فسيح ملكوت سطحه وسمائه اللامتناهي ، لو تجيب وتعبر بصدق أيضاً ، لتمنت أن تطول رحلة الأحضان البحرية الدافئة المطمئنة هذه ، إلى أبد الآبدين ، إلى نهاية العمر ، أو لتأتِ نهاية عمرها هنا الآن ، نقطة تمام واكتمال لما هي فيه من طريقها . . . طريقها الذي يقودها كالمعتاد ، براً وبحراً ، سبيلا مهيأ دائماً ، غير معبد ولا مريح ، لا تملك إلا أن تسير فيه إلى نهايته ، ومنذ البداية . . . آه ، وتترادف مشاعر وصور البداية

- سْتاذة سْتاذة سْتاذة . . .

تتقافز بشرى إحدى صغيرات تلميذات المعلمة صفية ، تنتصب متقافزة في موقعها ، غير مستقرة ولا متوازنة ، ما بين المقعد والطاولة ، واقفة على أطراف قدميها ، رافعة ذراعها أعلى ما تستطيع ، مُلوّحة بسبابتها ، متسابقة متنافسة للفت انتباه أستاذتها ، كي تحظى بسبق

التصدي لسؤال من معلمتها ، تقدر أنها الأحق الأعرف بجوابه . . . سْتاذة . . . سْتاذة . . . سْتـ . . . مُعَمْلِقة نحيف كيانها ، مُمطِّطة أطرافها أقصى ما تستطيع ، مُلوّحة بحركة وصوت ، يكاد مكنون صدرها ، أن يستبق ملفوظاً منزلقاً عنها ، حتى قبل أن تأذن لها الأستاذة صفية بالكلام ؛ سؤال حول مستقبلهن وماذا يردن تحقيقه . . . طبيبة ، مهندسة ، محامية . . . شبكة أماني ورغبات مشروعة ومعهودة ، يعبرن عنها بمنتهى عفوية وحيوية لا يعجزها مجال ، أو تقف عند حد ، مما يخطر أو لا يخطر ببال ، بما في ذلك أمنية أن تكون إحداهن شاعرة ومديرة . . . وأيضاً أيضاً معلمة ، أمنية أن يكنّ معلمات ، هي أيضاً مما يعبرن عنه من أماني ورغبات ، كأنهن أخيراً ، يُرضين أستاذتهن بذلك ، ويسدين إليها معروفاً ، يختمن به لائحة الرغبات والتمنيات .

توشك المعلمة صفية أن تخلص لما تريد من درسها ؛ لكن . . . سْتاذة . . . سْتاذة . . . سْتا . . . الطفلة بشرى ملحاحة بصوت وحركة واستطالة كيان ، مُلوّحة بسبابة وذراع ، بحمية من لم يقنعها شيء مما سمعت ، وأن لها ما ليس عند غيرها . . . سْتاذة . . . ستاذة . . . سْتـ . . . تحجم صفية عن خطوة درسها كما حضرت خطته ، لتخرس هذه اللجوج الملحاحة ، بإعطائها فرصة الكلام ، ماذا عسى أن تضيف إلى ما قيل ، ماذا إذن تريد أن تحقق أكثر من . . . مهندسة . . . طبيبة . . . إلخ . . . إلا أن تكون متطلعة إلى . . . ماذا؟

- تفضلي . . . قولي

وتقولها بشرى إذن ، ترسلها بمنتهى فصاحة ، كلمات متتالية ، جمل مرصوفة مصوبة لهدف لا تحيد عنه أو تنحرف دونه . . . تريده ،

تريده بحاراً قوياً ، تجوب معه البحار ، تخوض معه صخب الأمواج ؛ يتحديان معاً ، جنبا لجنب ، يداً في يد : هول الأنواء ، برق العواصف وهدير الرعود ، في حلكة الليل وغمرالموج . . .

يسود الصمت . عمن تتحدث ، ما ومن هو؟ سكوت وترقب ؛ عمن تتحدث؟ جملة غير تامة ، مبتدأ بدون خبر ، فعل بدون فاعل ، كما تقول لهن أستاذتهن صفية ، وتنبههن إلى ذلك ، وكما ستقوله حالا لخفيفة اللسان بشرى وتوبخها ، على أنها لا تحسن تركيب جملة مفيدة ، فعل وفاعل ، مبتدأ وخبر ، هذه الأبجدية النحوية . . . على من يعود الضمير؟ لا تتردد الصغيرة بشرى أو تتلعثم ، لترسلها طلقات منتظمة الإيقاع ، كلمة كلمة ، كمارش عسكري عالي الإيقاع . . . إنه رفيق دربها في المستقبل ، شريك حياتها ، يشقان معاً ، بعزيمة وقوة إرادة ، عباب المحيطات وغياهب الظلمات ، في الليالي الكالحات .

تنصرُّ كيانات التلميذات بعضهن لبعض ، ساخرات في تكتم ، موشوشات في تخف ، لتشير المعلمة صفية آخر الأمر ، ملجمة هذا اللسان المهذار عن سيله الفياض . . . أكانت الملحاحة الصغيرة المهذارة بشرى عرافة إلى هذا الحد ، وخبيرة كونية قبل أية تجربة؟ هاهي ذي لحظة حية ، تستعيد فيها الأستاذة ما استوعبته من درس تلميذتها الصغيرة . . . معاً . . . يداً في يد . . . جنباً لجنب . . . تحديات . . . عواتي أنواء ، أعالي موج . . . معاً يداً في يد . . .

تزداد قبضة صفية تمسكاً بيد سامان مفتحة بكامل ما لها وفيها ، لريح المحيط المضاعفة بحركة الزورق والموج ، معاً يداً في يد . . . أية عرافة كانت تلك الصغيرة ، وأين هي الآن مما رسمته من طريق لمعلمتهن ، دون أن تدري أية منهما ما سيحدث حقاً فعلا ؛ أم أن

إحداهما كانت تدري ، هي تلك الصغيرة إذن؟ من أين لها أن تدري أن بسيطة الماء والسماء ، التحام زرقتهما على امتداد المحيط ، علاج الأدواء ، وبلسم الجراح ؛ من أين لها الخبرة قبل أية تجربة ، لتدرك أن مملكة الزرقة الملتحمة الأبدية ، ما بين ماء وسماء ، باصطخاب بسيطة موجية ، وهدير خيمة برق رعدية ، هي المؤئل الأمثل لطريد خوف ، طالب أمن وحب وسكينة . . . من لها بذلك كله ، تلك الصغيرة إذن؟

طريقها وحده يقودها ، وهي وحدها المقودة المنقادة فيه ، لا تملك صفية إلا أن تسلكه ، بلا مرشد أو دليل ، براً وبحراً ، شرقاً وغرباً ، حيثما يسلك بها وفي أي اتجاه يكون .

آلو . . . آلو سامان . . . كانت تلك بداية طريقها في منعرجه الجديد ، منذ ودعت للآمليكة عند محطة الساتيام بالرباط ، دون وجهة محددة ، لتستقل الناقلة . . . آلو . . . آلو . . .

– آلو . . . سامان أنا صفية

– صفية ، آه ، كيف حالك ؟

– لا باس ، وأنت كيف حالك ، فين أنتَ؟

– بخير لا باس ، أنا بعيد . . . منك . . . بعيد عليك

– قطعت البحر؟

– لا . مازلت ولكن بعيد عليك

– قل لي فين؟

– في طنجة ، وأنتِ؟

– أنا . . . أنا بعيدة منك . . . بعيدة عليك

– في الرباط ، دائماً؟

– لا . لا . خارج الرباط ، بعدت ، بعيدة أنا الآن على الرباط . . .

- قولي لي فين؟

- في طنجة !

يتعانقان بقوة اللقاء في محطة طنجة ، لا يصدق أنها جاءت فعلا . . . بعيدة هي وهو بعيد؟ صفية أنتِ الآن هنا ، معي في طنجة ، برافو . . . برافو ، يضمها جانبياً بذراعه على كتفها ، بينما يجر بيده الأخرى حقيبتها على الرصيف إلى جانبه ؛ برافو ، صفية في طنجة ، برافو عملتْها وقدرتْ عليها أخيراً .

يكرر سامان تعجبه وإعجابه بخطوتها وبحظه ، حظهما ، وهو لم يختف بعد وراء الضفة ، لم يعبر بعد إلى ضفة جديدة موعودة ، وهي بذاتها صفية ، لم تكن تتصور أن ذلك يحصل ، لم يخطر ببالها أبداً ، أو تحسب أن بمقدورها إنجاز هذه الخطوة أو أن تضطر إليها أصلا ، ولا خطرت ببالها وجهة محددة قبل ذلك ، لدرجة أن للاّ مليكة وهي آخر من ظل معها وبجانبها وعلى صلة بها ، لم تعرف وجهتها ، إلى الآن ؛ ولا أحد يعرف شيئاً عنها إلى الآن ، لا من يعرف ذلك عنهما غيرهما ، هما وحدهما صفية وسامان يعرفان .

حتماً وجوباً ستخبر صفية عزيزتها الوفية ، أختها الحقيقية للاّمليكة ، لا يجوز إلى هذا الحد نسيانها وتجاهل مبلغ خوفها على صفية ، حتى لو لم تخبرها بمكانها وأين هي بالضبط ؛ طبعاً لن تخبرها بالضرورة ، ولن تخبر أحداً عن مكان وجودها . . . آلو . . .

- آلو للاّمليكة ، معك صفية تكلمك تحييك تحبك . . .

وتسألها للاّمليكة ببالغ لهفة متتابعة أسئلتها ، مستفسرة عن حالها ، صحتها مزاجها مأكلها ومشربها ملبسها وكل شيء شيء ، حتى أنها لا تترك لها فرصة رد ، أو التقاط أنفاس

- ... كيف حالك؟ قولي كيف أنتِ، كيف حالك واسكتي ...

لا تريد لصفية أن تخبرها أين هي، أبداً أبداً ... قولي كيف أنتِ واسكتي لا تزيدي ... ولا هي للاّمليكة بدورها تريد أن تعرف مكان صفية، إن لم تكن في سرها تحدس وتعرف ...

متفتحة كلها صفية، بكل الجوارح لريح البحر، يضاعف من هبوبها ترادف الموج وسريع انزلاق القارب على سطحه، مبتعدة يمضي بها طريقها على سطح بحر وريح، مخلفة وراءها كل ما لا تريد أن تذكر، أو تعرف.

متأرجحة في موقعها بحركة الزورق، يخف قليلا شدُّ سامان على يدها مع الزحمة وحركة القارب، لكنه ما يلبث أن يعود لحاله، ليصبح جذباً باتجاهها، أشد قرباً إليها؛ هو أيضاً سامان لم يكن ليتصور ما يحصل أو يقدّره؛ الطريق، طريقه كان مرسوماً يخصه وحده، يملؤه أفق الضفة الأخرى، تغذيه قسوة الطريق ذاته، منعرجاته وانحرافاته، تمدداته ومفاجأته وإخلاف مواعيده المحبط، تتراءى مشاهده واخزة طاردة، وراء شفافية لهيب، يتسامى ألسنة نارية ملتهمة مساكن الأهل، ضاحية أكرا، أكواخاً طينية قشية، لحمتها أنس وبساطة عشرة، طالما أدفأت مواقدها خصاصة وتعفف الأهل بين جنباتها؛ ألسنة نيران لاهبة ملتهبة، تأتي على القش والطين ورثاثة حال من يتحسسون عوناً أي عون من غائبهم سامان، يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يطرقهم من قبله طارق سعد، بنبأ سار ودعم حال، ليفيقوا على وهْم حقيقة أو حقيقة وهْم، قوامها مرسال سامان: نحرقكم من أجله، نشويكم لحماً بسبب سامان وفعلته، نشردكم نخلقكم خلقاً كما

ولدتكم أمهاتكم بلا ستر ولا وزر، ليتعلم سامانكم كيف يخلف المعلوم مع سادة الطريق، ليعلم ويعلم غيره أن للطريق أباطرته، كما للغابة كواسرها، وإلا ما كانت غابة ولا كان الطريق طريقاً؛ وقولوا لسامان هذا قليل، وأمامنا الوقت والطريق.

يمرر سامان كفه على جبينه وسائر وجهه، يمسح رذاذاً بارداً عن سحنته، يستشعره عرقاً ساخناً يعتريه، يفور به كيانه في أحضان المحيط، موجه ورياحه: ما الذي يسكنك يا سامان من نزق غِرّة وطيش موسوس، ليخطر لك أنك سيد حالك، مالك أمرك وضابط خطوك على طريقك، دون الأسياد من أباطرة المسالك، مالكي المعابر والبوابات، مفاتيحها؟ من أنت وما تكون، حتى تمنع وتمتنع عن الدفع مسبقاً ومؤخراً، وما دون ذلك قبله وبعده، فوقه أو تحته؟ من أنت وماذا تريد أن تكون؟ تسعى لتجعلها سنة لك، منك ولغيرك؟ جرّب، وها قد رأيت، وسترى؛ تعتقد أن أسياد الطريق، يتركونها هوائية، هبائية عشوائية؟ وهل يقدرون؟ ما أعجزهم هم أنفسهم عن ذلك، وما أقواهم بفعله وأعجزهم بتركه، وإلا ما كان للغاب كواسره، و لا للنواهش أنياب.

يمسح سامان عن وجهه باستمرار رذاذاً يستشعره عرقاً ساخناً في فضاء المحيط، وكأنما يزيح عن ناظره، مشاهد اللهب المتراقص في كيانات القش والطين، تتردد فرقعات حريقه داخل السمع، تخالطها نداءات غوث وتأوحات.

فجائيات طريقه تلك المزعجة، ولكن أيضاً بعض فجائياته الوردية البارقة... بعيدة عليك أنا..! يتردد في سمعه صدى كلمات صفية على الهاتف؛ أي بعد عنك، أكثر قرباً منك، يا صوتاً مؤنساً صادحاً

بالوصل؟ طريقه الآن مشهد آخر وردي مطرز الحواشي ؛ بعض أشواك؟ متوقع ولا يعيق ، قل لا يؤلم حتى ، أو أنه المحفز إن شئت . . . ساحل ساموس ، جزيرة يونان مرحبة مستقبلة في انتظاره في انتظارهما ، وأنت سامان ستخطو هوناً تقطع ردهات ميد كروز آمناً مطمئناً ؛ حتى إجراءات الدخول ، مراقبة التأشيرة وختم الجواز ، يتم قبلياً بغاية الوقار في أحضان السفينة السياحية الرابضة ببالغ عظمتها ، قطعة بياض كونية زاهية على رصيف ميناء ساموس ؛ وتتحرك أنت سامان مرفوع الرأس ثابت الخطو ، لا متلفتاً متوجساً ، وإنما أنت سائح متطلع كغيرك من مئات سياح حقيقيين ، بينهم ذوو ثراء ، ومنهم متوسطون ودون ذلك ، ومجموعتك من رفقاء رحلتك هم أيضاً كلهم من بين ذلك ، مختلطون بغيرهم ، بتمام شرعية سياحية ؛ من يميز أو يزعم الميز بين مستقل متن ميد كروز من هايتي ، أو لاس بالماس ، وآخر ينبثق إليها من جوف يَمٍّ ملتف بليل ، كما ينشق سطح المحيط عن حوت ، لا ليلتهمها ، ولكن ليتسرب هوناً إلى دفء أحضانها ، في غفلة نُوّم ويقظة صحاة من مستقليها ، ويبدأ منعرج جديد أو هو طريق جديد .

طريق سامان يبدو الآن أكثر وردية ، من كل ما ازدهى به من قبل ، على قلة ما يطاوع ويزدهي به ؛ سامان لا يطأ جزيرة ساموس معزولا بارداً ووحيداً ، وإنما بيدٍ تشدُّ يدكِ يا صفية ، وذراع على كتفكِ وقلب يدفأ بنبضك .

جزيرة ساموس يا للمدهشة ! وكم هو جميل هذا الكون البديع ؛ ليخطوا معاً ، يداً في يد منحدرين بثقة على أرضية الميناء ، بين جمهرة الوافدين المنحدرين من حضن السفينة ، وسرعان ما تبدأ الأصوات المنادية والأيدي المشيرة تجاههم متسابقة ، تعرض خدماتها نقلا أو نزهة

محدودة ، للزائرين العابرين ممن يعودون لقضاء ليلتهم في السفينة ، واستئناف طريقهم نحو مرابع أخرى في رحلتهم ؛ يعرف سامان عما يسأل من مُقام ؛ لم يبخل المعلم طورنو أو يدخر جهداً ولا معلومة مفيدة ، لمن يقبل عروضه ولو ببعض مساومة ، كل بثمن ؛ وما كان سامان وصفية في وضعهما إذ ذاك ، أن يثمّنا قيمة ما يتكرم به طورنو من معلومات وتوجيهات تخص المرشد والمقام في نهاية رحلة ، هي بذاتها ما تزال إذ ذاك طي الغيب ، بعيدة حتى في الذهن ، مراودة في مجرد الحلم . . . طبعاً كله بثمن . معقول ، حتى وإن لم تُقدر قيمته حق قدرها إذ ذاك .

هكذا تبدو صفية بقابلية تفوق قابلية سامان ، للدفع المقدم الكاش ، لكل ما يُطلب ، وبرصيد مالي مريح ، تحت الإبط ، رهن اليد في كل آن ومكان ، حتى لقاء Coin pêcheur والجلسة مع المعلم طورنو ، وهو يلفظ أثمانه الصاروخية ، مقابل رحلته الموعودة الآمنة ، لتتململ صفية من وقع الأثمان عليها في الظاهر ، بينما هي في الواقع تتحسس مواقع كنزها المودع طي جنباتها ، لتصطنع فرصة توعك تقودها إلى خلوة الحمام ، حيث تفتك أسر كنزها المخبوء في حناياها ، تعد وتفرز منه ما يستجيب لمساومة طورنو ، وتعود خفيفة لجلستهم ، تضع الرزم المالية على الطاولة ، لتنفتح لهما على مداها ، قابلية طورنو وحاتميته . . .

ليلتهما الأولى على البر ، لن تكون على أرض جزيرة ساموس الجميلة ، لن يتركا الفرصة تملكهما للتمتع بفتنة الجزيرة اليونانية ، هما الآن من يملك الوقت ويديران دفة الزمان لصالحهما ؛ ليسا الآن في عجلة من أمرهما ، لكنهما يحتاطان وجوباً ، ليكسبا مزيداً من وقت وحظ ، ربما يتعزيان عن إغراء الجزيرة ، بأنهما قد يعودان إليها ، بقصد

التمتع بسحرها في ظروف أخرى ، وقد لا يلتفتان لمثل هذا الخاطر ، فما أكثر ما يغني ويغري بجمال طبيعته في ملكوت هذا الكون من حولهما .

قصدهما الآن بالواضح المباشر ، يقررانه بتمام حرية واختيار ، أن يمضيا قدماً إلى حيث يستطيعان وأمثالهما ، أن يتنفسا الصعداء أخيراً ، ليتذوقا طعم الراحة بحق ، ويفتحا صدريهما لينشقا بعمق ، هواء الأمن والطمأنينة بحق وعلى البر بحق ؛ قصدهما المباشر وفي الحال ، مركب من الناقل العادي للغادي والرائح اليومي ، لمسافة أقل من ساعة إلى الساحل التركي ، حيث فسحة الإقامة والحركة ، ويكفي مجرد ختم على الجواز ، بلا سائل ولا مسؤول عن تأشيرة أو تذكرة ، وقدماً من هناك باتجاه مدينة أزمير ، يرتاحان ويتجولان ويتدبران طريقهما الميسر بأكثر من معبر ، لأكثر من وجهة إلى الشمال والوسط الأوربي .

يتلمس سامان يد صفية التي تنفلت من يده ، بفعل اهتزازة قوية طارئة من حركة القارب ، تتلمس صفية بدورها يده ؛ فعلا طريقه الآن ، طريق سامان أكثر من زاه ، حاضن ودافئ ، فعلا طريقها هي صفية ، أيضاً كذلك ، طريقهما معاً . . .

t.me/read4lead

يبدو هيكل الربان عرّوض ، وقد تخلى عن انتصاب قامته ، متخذاً جلسة على مقعده بجوار دفة التوجيه ، كأنما يقتنص فترة ارتياح ، في هيئة مستمرئ حركة القارب ما بين سلاسة انسياب وقفزات موجية أصبحت متقطعة متباعدة ؛ لتعبر بال سامان صورة المعلم طورنو مؤكداً بالقول والإشارة :

- هذا عرّوض هو بنفسه عبّارة ، عبّارة ونص . . .

ليفصل في كلامه محدقاً في ملامح كل من صفية وسامان ، أن عرّوض قادر أن يقطع البحر بحمل اثنين على ظهره ؛ يؤكد المعلم طورنو ذلك ، مشيراً إلى عرّوض ، ليقنع محدثيْه صفية وسامان بسلامة الرحلة ، ومهارة الربان ، مضيفاً من ذاته كأنما يتحدث بلسان عرّوض ، أن هذا الأخير مثل أسلافه في مهنة البحر ، سادة البحر وربائبه .

- كلهم بحارة ، من جدّ لجدّ ، بحارة أولاد بحارة حقيقيين ، شجعان ومعلمين كبار

يبدو عرّوض مزهواً إذ ذاك بما يسمع من إطراء معلمه ، لكنه يظهر حركة تردد فيها من التواضع ، وموحياً لمعلمه أن يستكمل الحديث . . . حسناً إذن ، يستأنف طورنو كلامه بغاية ابتهاج ، وهو يكرع مرة بعد أخرى ، جرعات متتابعة ، من زجاجة البيرة في يده ، يقول إنه يقتصر على واحدة تاريخية من حكايات صناديد البحرية ، الذين رضعوها مهنة من صدور أمهاتهم ، لا من الدفاتر المدرسية كأبناء اليوم ،

حكايات حقيقية تاريخية لأنها مروية محفوظة عند رواة الأخبار والمعلمين الكبار .

كانوا من هنا ينطلقون ، من هذه النقطة ، حيث نحن هنا أو قريباً منها ، ينطلقون سباحة إلى الضفة الأخرى ، إيبييه آولدي . . . إلى الضفة الأخرى سباحة بلا قلع ولا مجداف ؛ ومن هناك يسوقون رؤوس البقر سباحة ، يمتطون بعضها ويعبرون بها قافلين إلى بلدهم هنا غانمين سالمين . . .

تعتري القارب هزة خفيفة ، يُسشتعر معها أنه يعتلي ببعض سلاسة مرتفع موجة مهادنة ، ليشتد إمساك سامان بيد صفية ، على نحو يصبح جذباً يجعلها أكثر قرباً باتجاهه ، بلا مجال لتبادل حديث لفظي بينهما على هذا الوضع ، مع تداخل ما حولهما من أحاديث مختلفة ، بيد أن لا مانع أو حاجز دون صور وخواطر تعبرهما متقاطعة متآلفة ، حتى مع اختلاف اتجاهاتها لدى كل منهما عن الآخر ، قد تكون خاصة بها هي في مرحلة سابقة ، وقد تكون استباق صورة في ذهن سامان ، عن أول ما يواجهان بمجرد ما تطأ قدماهما ، أرض الضفة الشمالية ، وقد تكون عن لحظة مشتركة في بالهما ، حول حلم الانتقال من القارب إلى ظهر أو جوف ميد كروز في أعالي البحر ، وهما الآن على مسافة زمنية مكانية قريبة منها ، ويزدادان قرباً من حلم يتحقق .

خواطر متجاذبة متداخلة تشمل مستقلي القارب كافة ، لكنها ليست كلها سوداوية رمادية ؛ حقاً لا أحد منهم ينتظر الورود واستقبال الفاتحين ؛ لكن في المقابل ليس كل شيء بالأسود ، هناك الحرية والكرامة والفردية الذاتية المميزة ، مما لا عهد لمهاجر به في بلده الأصلي ، علاوة على أن لكل حظه ، خصوصيته ، ونوعية تصرفه

الذاتي . . . مثلا : من لا تعمر باله فكرة الجنسية؟ مبتغى الحصول على جنسية بلد المهجر ، بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة ، على رأسها الزواج المختلط والعادي بين طرفين ، حتى ولو تطلب الأمر إنكار زواج فعلي واقع سابق ، في البلد الأصلي ؛ وأيضاً الزواج غير العادي المشروط ، الزواج الشكلي الأبيض ، بالمقابل المالي للطرف الثاني ، ولفترة محدودة ، تنتهي بتجهيز الأوراق الضرورية وحصول الإقامة الشرعية .

يرنو سامان إلى دكنة قامة الربان عرّوض ، وهو ينهض عن مقعده منتصباً أمام دفة القيادة ، بعد ما يبدو قد ناله من قسط راحة أو تغيير وضع ، يداه على المقود باستمرار ، وهو يتلفت ويتمطط من موقعه ، كالمتطلع المتشوف لما حوله ، لتعبر سامان صورة ذلك المشهد ، في لقاء Coin pêcheur بمحضر المعلم طورنو وضيافته مع صفية ، وهو يحدثهما مؤكداً نوعية الرحلة وأمانها ، لينظر باتجاه عرّوض ، الذي كان رابع جلستهم حول الطاولة المستديرة إذ ذاك ، مومئاً له بشيء ، لينبري هذا مقترباً بمقعده إلى ما بين صفية وسامان ، يفتح بمواجهتهما هاتفه النقال ، تظهر على شاشته الصغيرة مشاهد فيديو ، يبدو فيه الربان عرّوض منتصباً ، يقبض بإحدى يديه على الحاجز المعدني ، لسلم مرن مدلى من السفينة السياحية ميد كروز ، كحبل سري لاحم بينها وبين القارب المتمايل إلى جانبها برفق ، كوليد متهدهد بغاية حنو على صفحة الماء ، بينما ركاب القارب في حركة عبور إلى السفينة على درجات السلم المتمايل .

تيارات صور وخواطر ، عوالم بحار وأعماق وأمواج ، منها دافئ هادئ ومنها عتي هادر ، تعمر رؤوس ركاب القارب ، في اتجاهات

مختلفة ، تبدو بلا رابط ، لحمتها مزيج متعارضٍ ومتناقضات . . . لتُستشعر بعد حين لدى الجميع منهم ، حركة القارب وكأنها تخف بعض الشيء ، تخف . . . فعلا يصبح التباطؤ في حركة القارب محسوساً ، والربان عرّوض منتصب في موقع قيادته ، مخففاً من سرعة انسياب القارب ، موجهاً بعض التفاتته يساراً تجاه الغرب .

ماذا؟ لْمحُ نقطة مضيئة على البعد ، تغيب وتظهر بآلية معروفة لا تخفى ، مرجعها حركة الماء ، حول جسم مضيء عائم متوقف . . . ماذا؟ تصبح التفاتة عرّوض تجاه يساره الغربي ، التواءة مستديمة ، ونقطة الضوء تلك ، يضاعف بعض الظلام والضباب من تواريها وخفوت ظهورها . . . ماذا؟ أتكون ميد كروز؟ ونقطة اللقاء الموعودة في اليم ما تزال على مسافة بحرية ، مع وجهة القارب رأساً إلى الشمال؟ لا يمكن أن تكون نقطة اللقاء إلى اليمين ولا إلى اليسار ، كما يعرف عرّوض عن يقين ؛ خارطة المنطقة منقوشة في دماغه ، منشورة على عرضها في تصوره ، بمواقعها المدققة براً وبحراً . . . أتكون فعلا هي الموعودة المنتظرة ميد كروز؟ إذن يكون جديد ما ، دعا إلى تغيير نقطة اللقاء في آخر لحظة ، دون علم عرّوض ، أو ربما هو خطأ ربان السفينة وجهله ، كما يحدث مراراً على أسوإ وجه ، عند جنوح باخرة إلى الشاطئ ، أو اصطدامها على قرب ، بناتئ صخري تحت الماء ، تلك كوارث معروفة مع أجيال الربابنة الجدد ، خريجي الدفاتر والحسابات والمدارس ، لا خريجي الحرفية المتوارثة أباً عن جد ؛ مهما يكن ، إن يكن خطأ أو تدبير ما ، أدى إلى تغيير نقطة اللقاء ، فلابد من إشارة ضوئية خاصة ، عليه أن يلتقطها ليتأكد أنها بالفعل موعودته ميد كروز لا غيرها ، وليجيب بدوره بإشارة متوافقة من قبله .

يتباطأ انسياب القارب، في وجهته الرأسية إلى الشمال، بينما التفاتة عرّوض تصبح كاملة نحو الغرب إلى يساره، متابعاً نقطة الضوء الثابتة المتحركة في موقعها، مع آليتها ما بين ظهور واختفاء، تبعاً لحركة الموج من حولها؛ يستدير عرّوض بقاربه قليلا، بمزيد تخفيف من سرعته، دون أن يغير من وجهته الرأسية، ليتواجه نسبياً وبمقدار مع موقع النقطة المضيئة متابعاً حركتها، وهي تبدو ثابتة ما تزال في موقعها، مما هو غير معهود، لأي من النواقل والجواري المنشآت في مثل هذه النقطة من البحر، مما يشي بأنها فعلا قد تكون منشودته السياحية في غير ميقاتها، وباتفاق لاحق، غيرالمتفق عليه الأول بالضرورة، وما على الربان عرّوض، إلا المتابعة لالتقاط إشارتها الضوئية، التي لا يمكن إلا أن تكون واضحة، مهما يكن من ظلمة وبعض ضباب.

هكذا إذن يتابع عرّوض نقطته المضيئة في حركتها الدائبة الثابتة، بعين حذق، يريدها خرْق الحجب والسواتر الليلية، مترقباً التقاط الإشارة الضوئية المعلومة، ليلحظ أن تلك النقطة الضوئية تفقدَ شيئاً فشيئاً من تواتر ظهور واختفاء، لتوشك أن تصبح ظهوراً مستمراً وبوضوح نسبي أكثر... إذن... إذن... هي تتحرك... يركز عرّوض تحديقته في نقطته المضيئة... بالتأكيد تتحرك؛ ألا يكون هو المخطئ في اتجاهه صوب موقع اللقاء المعلوم؟ يصعب عليه التصديق، ولا داعي لمزيد هجس وتساؤل، يكفي أن ترسل السفينة إشارتها المعلومة، إليه ليجيب بإشارته؛ طبعاً لن ينسى ملاحُها أن يبعث الإشارة، سواء كان الخطأ من عرّوض ذاته في الوجهة وموقع اللقاء، أو كان من الكوارث القاتلة للربابنة الجدد، جيل الكنانيش المدرسية... لا يهم كل ذلك في شيء، المهم الإشارة، وإلا لن يغامر عرّوض

بالمبادرة من ذاته ، بإرسال إشارته هو أولا ، لن يبادر بذلك مطلقاً ، مهما يترتب من أمر ؛ إشارة عرّوض جوابية وتبقى جوابية ؛ هذا هو المفتاح أو الكود بينهم ، وهو ما جرت به العادة ؛ تقول لي . . . ربما يكون ربان ميد كروز حديث العهد بالمسؤولية ، لم يفهم جيداً ، أو فهم بالمعكوس ، وبالتالي ينتظر إشارتي أولا ؛ أقول لك لن يفعلها عرّوض ، وليكن ما يكون ، وليتحملْ مسؤوليته من يولي المسؤولية غير المؤهلين لها . . . يا أخي إذا كان الخطأ منهم ، أو هو الجهل المركب ، فليكن ما يكون .

ينقاد القارب الآن في خط سيره بميل قليل جهة الغرب ، لمجرد أن تصبح المتابعة ميسرة من قبل عرّوض ، لسلوك نقطته المضيئة المتحركة ، في انتظار أن . . . إنما حركتها تبدو باتجاهه ، ولا يمكن أن تكون قد رصدته ، وهو لم يصدر أية إشارة ، كما أن تشغيل أي شيء مضيئ ، مهما يكن من مقداره وقوّته ممنوع إطلاقاً على ركاب القارب ، أما حركة القارب ، ذاك الأزيز الميكانيكي المعهود ، فلا يمكن أن يُلتقط على مسافة من قبيل ما يفصل بينه الآن ، وبين السفينة أو النقطة المضيئة على الأصح . . . يا أخي هذه . . .

يوقف عرّوض من سيل خواطره وفيض سؤاله الملح ، بينما تبدو النقطة البحرية المضيئة معدة في اتجاهها نحوه . . . ويْ . . . فجأة ينتفض عرّوض كمن يستفيق من غفوة . . . يلوي بقوة دفة القارب ، مطلقاً عنانه إلى الحد الأقصى من طاقته وسرعته ، باتجاه جنوب شرقي ، ليتقافز المركب على نحو مستمر في انزلاقه على الماء ، مما يجعل ركابه يهتزون بشدة وعشوائية في مواقعهم ، ينقلب لها بعضهم على بعض ، يعمهم معها اختلاط حركات وتداخل ألسن ، قلقين متسائلين متذمرين ؛ عرّوض في أوج استنفار كلي ، بسائر حواسه

وقواه ، لا يعير اهتماماً لشيء ، عدا آلية التحكم في قيادته ، ورسوم خريطة المواقع في دماغه ، مع كامل تأهب لخطورة ولوج منطقة الأمواج ، بقدر ما يقترب من الشاطئ ، بهذه السرعة أو ما يفوقها إذا اقتضى الحال ؛ يلقي عرّوض أمره إلى الجميع بالتزام الهدوء ، وبالتماسك على المقاعد وفيما بينهم ، حفاظاً على التوازن ؛ لا أحد يفهم أنها أمارة إيجابية أو بشارة لصالحهم ، مادام الإحساس بالتراجع عن الرحلة ، وبعكس اتجاهها الأصلي ، سيد الموقف . . . إنما . . . يعم إحساس بأن النقطة المضيئة في تحرك سريع باتجاههم ، وسرعان ما تصدر عنها شلالات ضوئية كشافة متحركة ، لا تدركهم دائرتها لمسافة ما يفصلها عن القارب ، لكنها تبدو في اتجاههم ، في أعقابهم متى ما ضبطت دائرة أنوارها الكشافة خط سيرهم . . . ليس من شك في أنها قوة خفر بحرية ، شرطة السواحل .

يتضاعف اضطراب الركاب في مواقعهم على متن القارب ، منكفئاً بعضهم على بعض ، ممسكاً كل منهم بما اتفق وصادف من حافة مقعد ، أو كم ذراع شخص ، أو لبوس امرأة أو رجُل ، بتزايد قفزات القارب المتوالية على سطح الماء ، وبقوة انطلاقه التي يبدو أن عرّوض يلامس حدها الأقصى دون هوادة ، وقد أصبح أزيز المحرك فحيحاً حاداً مرسلا ، تتناهى منه رائحة احتراق حريفة تخرق جيوب الأنف والحلق ، لا يكاد يعبأ بأثرها أحد ، وكل في بحور يأس وقنوط .

يبدو القارب منفلتاً في ابتعاده المتزايد عن دائرة الكشافة الضوئية الباحثة لخافرة السواحل ، تنبئ عن ذلك وجهة هالتها الضوئية ، التي أصبحت تبدو منحرفة بشكل ملحوظ عن خط سير القارب ، متجهة في تعقبها لأثره على نحو أكثر ، صوب وجهته الأصلية شمالا ، بل

يبدو واضحاً جداً أن الخافرة أضاعتهم أو أضاعوها ، لدرجة أن أنوارها أصبحت بالكامل عكس خط القارب ، مما يؤكد أنها أدارت ظهرها لوجهته الحالية ، موغلة بشلال أنوارها باتجاه الأعالي البحرية .

إن يكن من مشاعر ارتياح بدرجة ما ، ولو من قبيل استرداد أنفاس ، فالربان عرّوض أحق بها وأجدر ، وهو يفتكّ قاربه وركابه من قبضة وبال آسرة كانت مؤكدة ، لولا حذقة وحسه الخبير ، كمين منصوب ربما بصدفة ، أو عن قصد بتسرب خبرية أو كيدية من بعض ، ويكون الوضع أخطر ، فيما لو كانوا حوصروا عمودياً ، ما بين الأعالي المائية والسواحل ، إذ لا يكون من مجال في مثل تلك الحالة لو حصلت ، لأية مناورة من قبيل انحراف بخط السير لجهة ما ، عدا الإيغال قدماً في الاتجاه الأصلي نحو الأعالي البحرية ، وهو ما لا يمكن المخاطرة فيه إذ ذاك ، بالإيغال أقصى الحدود شمالا ، تلافياً لوقوع أكيد ، في مصيدة خفر سواحل الضفة الشمالية ، فلا يبقى إلا . . . الحياة من أجل الحياة . . . صرامة القاعدة المعلمية تقول هنا : الربان أولا ، الربان كل شيء وقبل كل شيء ، ولا شيء غيره من بشر وغير بشر ؛ لو يُمسَك القائد ، لو يظفروا بأي من الفاعلين من قريب أو بعيد في سوق التهجير ، فلا سقف ولا حدود لمعاناته ، ثم هناك الأخطر ، ما يُستخرج ويُستخلص من معلومات عن طريقه بأية وسيلة ، بكل وسيلة ، مما يهدد بانفراط العقد الفاعل بكامله ، بينما كل ما يلحق المهجّر ، في أسوأ ما يعتبره من أحوال ، هو مخيمات ومأوي استقبال ، قبل إعادته بأمان إلى موطنه الأصلي ؛ القاعدة عملية هنا ، هي أساس العمل : الربان ، القائد ، المسؤول . . . قبل كل شيء ولا شيء غير ذلك ؛ طبعاً ، عكس قاعدة الأبجدية المدرسية الأولية المكرورة ، هي أيضاً يكون لها موقعها ومكانها أحياناً :

الربان آخر من يغادر ظهر سفينته، عند أي خطر، نعم ذاك درس آخر.

أقل من ارتياح يمكن أن يخامر مشاعر عرّوض، مجرد استرداد أنفاس يراوحه، وهو ينجو فعلا من كماشة كمينية أكيدة؛ فشلت رحلته الآن؛ منصرف همه الأوحد، هو التوجه بعيداً نحو الشرق، قبل أن يميل تدريجياً باتجاه الساحل، يقصد انزواءة مدخل راس نفرية، حيث يفرغ شحنته البشرية في ضحل البحيرة الشاطئية، ليبحر مبتعداً بغاية سرعة، متخذاً اتجاه عودة طبيعية غرباً، مطمئناً إلى أنه تحرر فعلا من رازح حمل، منتظراً ما يرد من تعليمات، على أول رسالة قصيرة يبعثها من هاتفه المحمول.

أكبر من كتلة خيبة متراكمة رابضة في أعماق المهجّرين على متن القارب، يستشعرون فعلا نجاتهم من خطر، لكن إلى أين؟ وهم من كانوا ينتظرون غمْر أضواء سكينة تدفئ جوانحهم، حاضنة ترجياتهم، عبر سفينة سياحية ترفيهية عرض أعالي المياه، مفتحة منافذها، يتسربون إليها عبر حبل سري بتمام أمان، تنسيهم بذاتها كثير معاناتهم، مُسْرحة عقال تمنياتهم على أروع مدى وأجمله، كما قد رأوا ذلك بأعينهم، ضمن مشاهد وصور حية وجامدة، عُرضت عليهم قبيل الرحلة؛ الآن كل ما أبهرهم وأوشك أن يغمرهم بهوله، أضواء خافرة سواحل مرهوبة لا مرغوبة ولا محبوبة، ليعودوا مولين مرغمين، قانعين بسلامة الإياب... إلى أين؟ رحلة أخرى؟ كم يلزم لها مرة أخرى، من جهد نصَب وكنْز، ومن وقت، ومن سعي مذل وراء الشغل قبل ذلك كله؟ ثم من يدري إن كانت فعلا، قد تتم رحلة ما أو لا تتم أبداً؟

يزداد ضغط سامان بيده على يد صفية، متشابكة أصابعهما، تلح عليه صور مشهد كان الأقوى فيما مرّ به، من صور هجرة وتهجير،

أقوى وأشد حتى من خيبته هو في رحلته الموهومة في بطن حاوية راسخة في موقعها ، منغرزة قوائمها على أرضية ميناء طنجة .

– مْيو موريبر ، نو روتور

يرددها إذ ذاك باستنفار حواس وتدافع أنفاس ، مهاجر سري إفريقي جنوب صحراوي ، وهو ضمن أمثاله ورفاق رحلته ، يقفون صفوفاً على الشاطئ ، تحيط بهم قوات حرس مدني ، أشبه ما يكونون بأسرى حرب ، ملؤهم خيبة وخزي ، وقد ضبطتهم قوات خفر السواحل وعادت بهم إلى البر ، بمن نجا منهم من فقدان أو غرق على الأصح ؛ إنهم مصطفون الآن في انتظار إجراءات إدارية أولية ، للتعرف وتأكيد الهويات الأصلية ، تمهيداً لما يتلوها بعد ذلك ، من تحقيقات واستيفاء معلومات تفصيلية ، عن نقط العبور عبر الحدود البرية ، وعن نقط الانطلاق الأصلية ، والمحطات وخطوط السير ووسائل التنقل . . . ليسلم ذلك كله إلى المجهول ، حسب ما لا يعرفه المعنيّ الأول بالأمر ، المهاجر نفسه ، من معايير ، ليُلقى به في المجهول من جديد ، حتى لو كان عودة إجبارية إلى موطنه ؛ ألم يغادر موطنه أصلا عن رغبة منه وإرادة وقصد؟ أية عودة إذن ، أي موت وأي حياة؟

– مْيو موريبر ، نو روتور

كانوا مصطفين على الشاطئ ، جلهم حفاة ، تعلو ملابسهم الرثة ، أو ما تبقى منها على أجسادهم ، آثار بلل ورمل ، متورمة عيونهم من متجمد دمع في الأغوار ومقاساة أهوال ؛ تتحلق بعيداً عنهم بمقدار ما تسمح به قوة الحرس ، جمهرة متفرجين على المشهد المألوف ، لمن يُضبطون دورياً ، بكيفية أو أخرى ، في خط رحلات غير شرعية نحو الضفة الشمالية ؛ سامان كان إذ ذاك من بين المتجمهرين ، يهمه الأمر

ككل منتم إلى عالم المهجّرين ، يتابع كمعني بالأمر ، مرشح له ومقبل عليه ، بكامل توجس وتحسس ، تفاصيل ما يجري لغيره ؛ وليفهم مما يسمع ويدرك ، أن أكثر ما يقع من مثل هذه الكوارث ، يعود في سبب منه إلى تسرع طالبي الهجرة أنفسهم ، كما إلى منظمي الرحلات ومسؤوليها ، بمن فيهم قواد الرحلة وربابنتها من المستعجلين ، أو المبتدئين الجاهلين أصلا بتضاريس البحر والساحل ، ناهيك عن مفاجآت الطبيعة ونوباتها غير المحسوبة .

وكأنما يكفي وجود قارب ، وأن يُحشد لك جمع من طالبي هجرة يدفعون المقابل المطلوب وزيادة – وما أيسر ذلك كله وأوفره – لتقود بهم رحلة المجهول إلى . . . المعلوم ، المعلوم الذي لا يتعدى أيسر الاحتمالات الممكنة ، وهو الوقوع في كمين الخفر الساحلي ، أو ما هو شر وأخطر : انقلاب أو انعطاب القارب في عمق المسافات البحرية ، ثم العودة القسرية المذلة إلى الساحل ، على نحو ما يحصل في المشهد المألوف أمام أعين جمهرة متفرجين ، وتحت أنظار سامان المتابعة المدققة في أبسط التفاصيل .

– مْيو موريِر . . .

يلفظها المهاجر الجنوب صحراوي ، وينفلت فجأة من بين المهاجرين المصطفين ، يخطو مسرعاً ، مكرراً جملته الوحيدة المقتضبة الموت أحسن . . . لا رجوع لا تراجع ؛ يمضي بأقصى سرعته ، يتلوه سائل يتدلى منه نقطاً وخطاً متقطعاً في أثره ، يتابعه بعض الحرس ، بينما يُستنفر باقيهم متأهبين لما قد يحدث من سائر المصطفين ، أعناق الجمهرة المتفرجة على المشهد مشرئبة ، عيونهم أكثر تطلعاً للجديد الذي لم يكن متوقعاً : فرار أحدهم ، مطاردته . . . إلى أين وكيف؟

مبادرة الهارب كانت مفاجأة كافية لزرع مسافة سبق لصالحه ، مقابل مطارديه من أفراد الحرس ، يعملون على إدراكه واللحاق به ، دون أذى من استعمال سلاح ناري ، ربما لا يتوفرون عليه ولا على ذخيرته . . . الكل يجري ، خطواتهم مواقع أقدامهم تظل وراءهم مرسومة على الرمال في أثر الهارب ، حتى تبدأ المسافة تقصر ، والفاصل يتقلص ، ليبدو الهارب شبه مترنح ، بخطو غير متنظم ، ينم عنه خط السائل المنقط المتقطع المتعرج وفق سيره ، أكثر مما تنبئ عنه خطواته التي أصبحت خفيفة الوطء ، لا تكاد ترسم أثر مسارها على الرمل ، حتى يبدو أخيراً متأهباً للتوقف ، مترنحاً في شبه استدارة حول نفسه ، قبل أن يتهاوى على الأرض . . . يدركونه أخيراً . . . تجمع قطرات أخيرة على موقع إحدى يديه على الأرض ، يمتصها الرمل مقللا من دكنة حمرتها الدموية . . . الموت أفضل . . . لا رجوع . . . قطع اليائس نفسه عن نفسه طريق العودة ، قاطعاً شريان يده .

يمعن عروّض بقاربه في سرعة انسيابه على الماء ، مرتفعاً منخفضاً بتتال موج يقاطعه جانبياً بميل يجعله غير مؤثر في قوة اندفاع القارب ؛ رسوم المسالك بتمام وضوحها قائمة في وعي عرّوض ؛ مدخل راس نفرية ، يكون الملائم لإرساء وإفراغ آمن ، لا يسعف الظرف برؤية مناسبة ، لكن ذا الخبرة يعرف من ميل خط السير عن الساحل مع سرعة القارب ، معالمَ التضاريس الشاطئية ، ليقدر ما يلزم لبلوغ الهدف ، وليحسم لحظة التوائه الكلي تجاه راس نفرية .

وحدها الخواطر متماوجة متقاطعة في أذهان قاطني القارب ، مهما اختلفت أو تلاقت عند بعضهم البعض ، ومهما تعارضت مع شواغل الربان عرّوض .

وحده أزيز القارب يتردد ، وحدها حدة فحيحه المستديم الرتيب تملأ الأسماع ؛ رشات الرذاذ الخفيف المصاحب ، متساقطة باستمرار ذراته البليلة على وجوه المهجّرين ، تسجل بخطوطها المنسابة على وجوم سحناتهم ، حروف خيبتهم المكتومة في الأعماق ، وما من عابئ إزاءها بحركة لمس أو مسح ، كمغيَّبي وعي أو فاقدي إحساس .

ممعناً عـرّوض في انطلاقه يمضي ، نصب عينه المدخل المعلوم ، يعرف جيداً تجاويفه ومسنناته ، كما لا يدرك ذلك أحد غيره ، من أجل ذلك كان قصدَه دون غيره ؛ والآن ، يقدر عرّوض أنه على وشك أن يلامس نقطة التوائه لينحرف بزاوية قائمة يميناً ، ويمضي قدما إلى الأمام ، تجاه المدخل ؛ يوشك الآن أن يلتوي ليمتلك وجهته الجديدة ، محطته النهائية للإفراغ والتحرر من شحنته الآدمية . . . الآن بالضبط ، يقدر أنها نقطة الانعراج .

يوشك عرّوض أن يدير دفة القارب ، حين تبهر أمامه ، بمواجهته على البعد المستقيم ، شلالات أنوار كشافة ، كأنما هي قابعة لاستقباله . . . وَيْ . . . يلوي بسرعة فائقة عكس الاتجاه ، حركة ترتمي بفعلها وحدات الحمولة البشرية مبعثرة متراكمة بعضها فوق بعض ، الأنوار ملاحقة يصاحبها نفير حاد متقطع متتابع .

بكل طاقته ، بأقصى سرعته ، يتقافز القارب الآن ، صوب الأعالي البحرية ، عكس وجهة الموج ؛ الأنوار ملاحقة يلازمها بتقطع متصل نفير التحذير والإنذار ، يوشك القارب أن ينفلت من دائرة الأنوار الكشافة ، يناور عرّوض بانعراجات قوية مباغتة في كل الاتجاهات ، ملازماً فائق سرعته . . . فعلا تفلته كشافات الأضواء ، تبدو له دوائرها باحثة منقبة في اضطراب واضح ، ليمعن في مناوراته المتعرجة مبتعداً

عن مجالاتها ، همه الأوحد الأكبر خط سير ينجيه وحمولته من كمين الخفر ويوصله اليابسة .

تبدو الدوائر الضوئية مسرعة في حركتها الباحثة الدؤوب عن موقع القارب ، لتنطفئ فجأة ويسدل همود شامل ، كأنما الكشافات الضوئية ، في تساقط شلال أشعتها وتراقص دوائرها على رجراج السطح البحري المتموج ، كانت وحدها وبذاتها مصدر الضجة والهدير ، في المحيط والنفوس ، ليعم بانطفائها سكون وأمن كوني شامل .

يتخذ عرّوض خط سير مستقيم ، مخففاً سرعته إلى أقصى حد ، موشكاً أن يتوقف ، كأنما يسترد أنفاسه ، أو يقتنصها فرصة للتفكير فيما يخطط له ويمكنه من مسار آمن ؛ لتبهر على القارب مرة أخرى ، بغتة ، دائرة ضوئية كشافة ، يعقبها النفير التحذيري للخافرة .

بآلية ومنتهى خفة يضغط عرّوض عامل السرعة ، لينطلق القارب منزلقاً متقافزاً بانحرافات قصيرة متوالية ، لا تكاد تغني في انفلاته من دوائر الأضواء المتراقصة ، حتى لتبدو واضحة على متنه شخوص مستقليه ، في حركاتهم وتحركاتهم العشوائية ، بأمارات لغطهم المنثور هباء ، مع متناثر ذرات الماء في رحب الفضاء ؛ وسرعان ما يبدو شخص عرّوض أوفر قامة وأكثر خفة ، وهو يرتمي من على سطح القارب ليغيب تحت الماء ، تاركاً مقود التوجيه إلى خط سيره ، والقارب إلى حظه الرحيم بلا تحكم أو توجيه .

- مْيو موربر . . .

يتداخل اللغط وعشوائية الحركات على متن القارب المنطلق إلى سبيله ، بينما تخف سرعته تدريجياً ، ليقفز من على متنه أحدهم إلى الماء ، دون كلمة .

- نو . . . روتور

تتزايد شدة الدوائر الضوئية في تساقطها على متن القارب ، بقدر ما تقلص المسافة باتجاهها نحوه ؛ تُسمع ارتماءة ينبعث لها رذاذ رشة مياه ، معلنة عن انفتاح سطح الماء لُمرتمٍ آخر في البحر ، ليعقبه آخر ، وآخر . . .

- مْيو موريْر . . . نو روتور

تتردد العبارة في وجدان سامان ، والصورة تعتمل في دواخله ، يهتز لها كيانه ، يضيق بها صدره وينفتح . . . مْيو موريْر . . . صورة الإفريقي الجنوب صحراوي ، وهو ينسلت من جمع أقرانه المصطفين تحت أعين الحراسة على الشاطئ ، تتفحصهم متفرجة على ملامح خيبتهم وانكسارهم ، أو مشفقة على آلامهم ومآلاتهم ، أنظارُ جمهرة من المتطلعين ، وأنظار سامان إذ ذاك ، أكثر من غيره ، مشدودة إلى المشهد المثير . . . يخطو الإفريقي الهارب بأوج قوة على رمل الشاطئ ، تلاحقه خطوات الحرس ، وسرعان ما يبدو كأنه يتواهى من ذاته ، ليترنح كيانه متباطئاً ، وفي صدره آخر نفثة ، لعله يلفظها مبخوخة بشذى عبارة لم تعد مسموعة منه ، لا تكاد تبلغ حافتي شفتيه الواهنتين الملتصقتين . . .

الموت أحسن . . . لا رجوع . . .

يشتد إمساك سامان بيد صفية وقد أصبحا على قرب أكثر ، في خضم عشوائية حركات ولغط متداخل من الجميع ، مساقط الأضواء تعمهم ، متراقصة دوائرها حولهم ، لتشعر صفية بسامان يدافع بقوة كيانه باتجاهها ، يقترب منها أكثر ، وإذا به يترك يدها لحظة ، ثم يعود ليدس في يدها كُرزاً بلاستيكياً مشدّداً من إمساكه على يدها ، ليتركها فجأة ، ويقفز في اليم . . .

- نو سامان ... نو ... نو ...

تحدق بجنون وصراخ في دائرة الماء المنشقة حول ارتماءته ... نو سامان ... نو ... نو ...

تبدو دائرة الماء المنشقة لكيانه تحت شلال الضوء ، توشك أن تلتئم أطرافها على ما فيها ، لتتسع شقتها مرة أخرى ، ويتنفض ماؤها ، منبثقاً عنه سامان ، هامة رأسه ، عنقه ، ذراعاه وأعلى كتفيه ، مستنشقاً هواءه بشهقات مسموعة متتالية ، تتدلى متقاطرة على هامته خيوط فضية مائية ...

- سامان سامان

تصرخ فيه من جديد ... نو سامان ... نو ... تتحرك من موقعها على متن القارب ، مدافعة لتتملك مشهد الرؤية ، مع دوران مركب أصبح لعبة الماء ، لا تكاد تشده أو تتمسك به سوى قوة الأشعة الضوئية المتساقطة على الموقع ، في دوائر ما تنفك تتزايد قرباً وشدة واتساعاً ، يبدو سامان وهو يعمل من جهته ليكتسب قرباً من القارب المتزحزح في موقعه باستمرار ... نو نو سامان نو ... حامل ... أنا حامل ..

يبدو سامان في عرض اليم ، متوقفاً في موقعه كمجمد حركته يتبين ما يسمع ، تصرخ صفية بأقوى ما تستطيع ، تتبينه مجمداً تجاهها كالمنبهر المشدوه ، لتغمره موجة تغيبه طيّها ، ثم ما يلبث أن يبرز بعدها ، لتصرخ صفية بأقوى ما تملك ، وهي تمد يدها باتجاهه عن بعد ... تصيح ، تصرخ أنها حامل ... حامل ...

ينتفض سامان ، ينفض عن هامته نثار الماء ، يتسمع ... تصرخ بأقصى ما لديها من قوة ، يدها على بطنها ... حامل حامل ..

منبهراً يبدو سامان ، مفتح العينين على أقصى مدى ، بارقة إشراق تشع على جبهته المتلألئة بقطرات الماء ، مخايل ابتسام . . . فاغراً فاه انبهاراً ومعالم ابتهاج على محياه . . .

حامل . . . تصيح صفية بمنتهى ما يبدو مرتسماً على محيا سامان من مخايل ارتياح ، يدها على بطنها وأخرى تجاهه . . . حامل . . . حامل . . .

موجة راقصة ببهجة سامان وارتياحه ، تغشى أفق نظرته ، تملأ حلق انبهاره ، يشهق بعربدتها ، تضمه ، يلتف بها ، تلفه في الأحضان ، تخفيه . . .

سامان . . . سامان . . . ساما . . . سا . . .

إشراقة صبح مغيّمة ، أشعة شمسية تنبثق مخترقة حجب سماء داكنة ، تصب من خلالها متفرقة متواهنة .

شاطئ ممتد على شكل قوس فسيح ، تزداد شساعته بأوج حركة جزرية ، تطل معها حراب صخور مسودة مسننة ، موزعة بلا انتظام على امتداد ما يتعرّى من سطح البحر ، بفعل حركة الجزر .

لا يبدو من أثر لنبض حياة على الشاطئ ، عدا نعَقان النوارس محتداً يملأ الفضاء ، لا يدري أحد إن كانت تخوض به معارك ضارية فيما بينها ، ترسله تهديداً ووعيداً ، أو تردده تطريباً وتغريداً ، وهي في أوج حركتها أسراباً ووحداناً ، تجوب الجنبات ، خفاقة الأجنحة في الأعالي طوراً ، ومنكبة طوراً آخر على مخلفات حركة البحر ، من كائنات بحرية ميتة أو حية زاحفة على الصخور ، متحركة في مسارات الجداول والمجاري ، سابحة في ضحل برك عديدة متباعدة ، كأرخبيلات صغيرة مائية بين الحواجز الصخرية .

من بعيد تبدو في مركز تقوس الشاطئ وعلى حصى رمله ، نقط داكنة غير مميزة ، متجمعة متفرقة بغير انتظام ؛ ليُبين الاقتراب من ذلك ، عن أشباح هياكل آدمية ، خالية مما ينم عن حياة ، مقرفصة ، مكومة متكورة على ذواتها ، أو مسلمة جنبها إلى الأرض ببعض تمدد ، شبه نائمة ؛ وأشبه ما يكون الأمر ببيات مديد في محطة انتظار ، يزكيه المتناثر حولهم من بقايا وآثار اقتيات ، وما بين أحضانهم من قنينات ماء ، شبه فارغة وملأى ، على القرب في متناول الأشباح الآدمية

تلك ، أو مرمية مبعثرة على بعد .

على مقربة من أولئك ، تبدو واقفة أشباح من حرس بلدي وشرطة ، بكامل بزاتهم الرسمية وأسلحتهم الخفيفة ، في هيئة تراخ واضح ، يشي بطول وضع وامتداد حال ؛ بينما تبدو رابضة على أعلى الربوة الصخرية المشرفة على الشاطئ ، على هامش الطريق الجبلي الملتوي ، سيارة إسعاف وأخرى أمنية .

همود تام وسكون ؛ ووحدها النوارس تجوب الكون ، متجاوباً نعَقانها في الآفاق ، محلقة محدقة في الأسافل ، أو مُسِفَّة بعزم على أهدافها ، أو قانصة رابضة ؛ بيد أن لا شيء مما فيها من دبيب حيوية ونشاط ، يثير نبض حس في الأشباح الرابضة على رمل الشاطئ أو ربوته المشرفة ، بصنفيها الآلي والآدمي ، بما فيه الحارس الواقف في تراخ على مضض ومعاناة واضحة ، والمستكين كيفما اتفق على بليل رمل .

مياه البحر في امتداداتها الأفقية اللانهائية ، بتمام صفائها ، بتموجات سطحها وهبات ريحها ، بكائناتها من ظاهر وخفي ، بما تجري عليه ، وما هي إليه ، وفق قانونها الأزلي في التجدد والتكرار ، ومن سنن حركة وسكون ، تُبين على امتداد الرؤية ، باتجاه رأس القوس الشاطئي وبموازاته إلى الغرب ، عن نقطة متحركة على سطح الماء ، لتتضح الرؤية عن زورق سريع يشق مياه البحر ، مائلا في خط سيره بالتدريج نحو الشاطئ ، ليخفف من قوة انطلاقه بقدر ما يقترب من نقطة التجمع ، محاذراً بانعراجات متوالية تفادي العوائق الصخرية ، باحثاً له عن مسارات ملتوية بين فراغاتها ، ليبدأ سريان حياة في المتجمد الآدمي على الشاطئ ، يتململ به الراقد في متكئه ، يستقيم به المرتخي في وضعه ، بقدر ما يقترب الزورق وهو يشق مساره ببالغ

حذر وتأن ، حتى يستقر آخر الأمر عند واطئ صخري ممتد على مسافة يلامس بعدها رمال الشاطئ ، حيث يترجل منه بضعة شخوص ، يتحركون لتثبيته ويشرعون متضامنين في إفراغ شحنة ، تبدو أكياساً سوداء أو شبه أكياس ، يتعاونون على إنزالها من القارب أولا ، قبل أن يبدأوا في التعاون على حملها من أطرافها ، والاتجاه بها واحدة تلو أخرى إلى الشاطئ ، يضعونها مرصوفة بعناية ، على مبعدة من نقطة التجمع الآدمي على رمل الشاطئ .

تدب حركة مماثلة في الربوة المطلة ، تنفتح أبواب السيارة الأمنية ، يترجل منها أمنيان ، بينهما رجل يبدو مسوقاً في انحدارهم نحو الجمع ، ليتضح المشهد بقدر ما يقتربون ، مبيناً عن هيكل الربان عرّوض بين الأمنيّيْن ، يبدو في هيئة مذلة وانكسار ، مقيد اليدين ، رث الحالة ، يُبين تي شورت شبه المنزوع عن أعلى جسده ، عن حزام هوائي مطاطي أحمر عريض حول بطنه .

يخطو عرّوض منكس القامة بين الأمنييْن صوب تلك الأكياس ، وبجوارها أصحابها الذين رصفوها متوازية هناك ، حيث يتقدم الأمنيان بعرّوض تجاهها ، وتبدو عليهم حركات حديث متبادل وإشارات عديدة ، فيما بينهم وبين الربان عرّوض ، مع اقترابه وإطلاله على محتوى الأكياس ، حتى يبدو آخر الأمر ، أنهم استنفدوا المراد ، ليتأخروا جميعهم خطوات عن موقع الأكياس ويلزموا أماكنهم .

يلوّح أحد الأمنيين بإشارة ، ليتقدم أحد الحرس تجاه الجمع الآدمي المتبقي في موقعه على الشاطئ ، يكلمهم قليلا ، لينهض ببالغ بطء وتثاقل ، ثلاثة رجال وامرأة مرضع ، تحمل رضيعها في حضنها ، ثم ببالغ تردد واضح تلحق بهم خامستهم ؛ يتوجهون صوب الأكياس

تتابعهم أنظار بقيتهم ؛ وعلى بعد خطوات ، يتقدم إليهم مسؤول أمني ، يوثق ويستوثق من هويتهم :

الرجال أولا : نْسالم غوتون ، نيجريا ؛ رودريغ أوليفي وانتو ، كاميرون ؛ عدنان أبو رضى ، سوريا ؛ والنساء بعد ذلك : أوا بنتو ورضيعها إيبو ، السنغال ؛ صفية الحسوني ، المغرب . . . ليتجه صوب الأكياس الثلاثة المصفوفة ، ينحني عليها واحدة تلو الأخرى ، يسحب زرّارات فتحاتها الطولية ، كاشفة عن محتواها ، مشيراً إلى الخمسة بالتقدم للاطلاع والتعرف .

تشهق السنغالية المرضع أوا ، وهي ترتمي على جثمان زوجها في الكيس الأول .

يلوي رودريغ الكاميروني عنانه مغمضاً عينيه عن المشهد ، مبتعداً وهو يتعرف على جثمان أخيه .

جثامين ثلاثة ممن ألقوا بأنفسهم في عباب البحر ؛ لا أحد يعرف أو يؤكد عدد من ارتموا في عباب اليم ؛ الربان عرّوض آخر من يعلم عددهم ، وهو أول من ألقى بنفسه من القارب ، ولا علم له بما جرى بعد ذلك ؛ يتقدم النيجيري والسوري ، ويتراجعان نافييْن كل من جهته ، أن يكون الجثمان المتبقي من بين الجثامين الثلاثة المعروضة ، لأحد من ذويهما ، مع تأكيدهما أن الاثنين معاً ، صديق أحدهما ، وقريب الآخر ؛ كانا ممن ارتموا تباعاً من القارب إلى البحر .

الربان عرّوض يبدو الناجي الوحيد لحد الآن ، الذي بلغ الساحل سباحة أو أوشك ، حين ألقي عليه القبض من طرف رجال الحراسة والأمن ؛ متأكد عرّوض من العدد الإجمالي لزبناء الرحلة ، مستقلّي القارب ، يؤكد للمسؤول الأمني أن عددهم الإجمالي ، ينقصه الآن

خمسة أفراد ، ليبقى في النهاية ، اثنان من الخمسة لم يُعثر لهما على أثر لحد الآن ، ويعتبران تبعاً لذلك ، ولحد الساعة ، في عداد المفقودين .

بتهيب وبالغ توتر ، تظل صفية مجمدة ، لم تكن لها رغبة في أي اطلاع أو تعرف ، مهما تكن نتيجة ذلك ؛ ترددتْ أصلا ومنذ البدء ، في التوجه نحو الأكياس ، والأمني يُقبل عليهم ، يسألهم عمن يعرف أحداً ممن ألقوا بأنفسهم في اليم ، لتنبري المرضع أولا قصد التعرف على زوجها ، ثم الرجال الثلاثة أحدهم عن أخيه ، وذاك عن قريب ، والآخر عن صديق ؛ وهي صفية عمن؟ وراء من؟ ترددتْ ، بل أمسكتْ رغم تحفز حواسها للنهوض ؛ وكأنما يدرك الأمْني حيرتها ، أو يرى عدم استقرارها ، ليتوجه إليها . . .

– أنتِ . . .

لا تجيب صفية ، وإنما تلتقيْ نظرته بنظرتها ، ليشير إليها بالسبابة أن تنهض وتسير باتجاهه ، يسألها في شبه همس : هل لها من متغيِّب . . . مفقود . . . ومن يكون؟

لا تجيب بشيء . فعلا هي بذاتها تسأل : هل لها من متغيب؟ من يكون متغيبُها أو مفقودها أو . . . تنقاد متحركة ببالغ بطء وآلية ، دون نأمة من لفظ أو حركة ، متحركة متجمدة ، متجمدة متحركة ، تخطو لا تكاد تشعر لها بموطئ قدم ، تسير متهيبة على بعد خطوات من الأربعة ، نحو الأكياس السوداء الثلاثة المصفوفة . . . كيسان مزرّران بالتمام على ما فيهما ، بعد أن أمكن التعرف على صاحبيهما ، ولم يبق إلا الكيس الأوسط الثالث مفتوحاً زرّارُه .

لمن هو؟ تعرفه؟

مغمضة العينين تظل صفية ، وتحفيز الأمني يلحف في سمعها ؛

عليها أن تتشجع ، تساعد ؛ لا راد لقضاء وقدر ، ما وقع قد وقع ، لا خوف الآن ، لا خطر من أي شيء بعد الآن . . .

تعرفه؟ من؟

ينشقُّ جفناها عن نصف نظرة خابية ، تغلفها أصوات وصور ما بين ظلمة وضباب وخارق شعاع ضوء كشاف . . .

مْيو موريرر . . . نو روتور . . . نو . . .

تستشعر سامان يدس في يدها كرزاً بلاستيكياً . . . الموت أحسن . . . لا رجوع . . . لا . . .

نو سامان . . . نو سامان . . . حامل أنا حامل . . . تصيح صفية عبر الرذاذ وغمرة أنوار كشافة

أية نظرة هي؟ ماذا تقول؟ أي بوح صارخ مكتوم؟ حبات الماء المتلألئة بكثافة على مسحة أبنوسي ذاك الجبين ، ارتفاع الحاجبين كسؤال عجب كوني عن المعنى ، أو هي صرخة احتجاج ، يخفيها ضيق الصدر العريض ، بين زبد الموج المتلاطم حول الرقبة وأعلى الكتفين . . .

أي معنى ، وماذا تكون النظرة أو تقول ؟

سامان . . . سامان . . . يدها على بطنها تصرخ في فضاء اليم . . . حامل . . . حامل . . . انفراج شفتيه المليئتين عن غمرة انبهار ، إشراق محياه ، سعة جبينه المرصع تحت مساقط الشعاع بحبات الماء المتلألئة . . . موجة حاضنة تلفه ، تلتف به . . .

سامان سامان سا . . .ما . . .ن . .

انضم للقناة وتابع كل جديد مكتبة
اضغط هنا t.me/read4lead

WEST OF THE MEDITERRANEAN

رواية
NOVEL

غرب المتوسّط مبارك ربيع

أيّة نظرة هي؟ ماذا تقول؟ أيّ بوح صارخ مكتوم؟ حبّات الماء المتلألئة بكثافةٍ على مسحة أبنّوس ذلك الجبين، وارتفاع الحاجبين كسؤال عجبٍ كونيّ عن المعنى، أو هي صرخة احتجاج يخفّيها ضيق الصدر العريض بين زبد الموج المتلاطم حول الرقبة وأعلى الكتفين.

أيّ معنى، وماذا تكون النظرة أو تقول؟

ويشرف صباح.

t.me/read4lead

9 786144 198865